رحلة الشعر

من الأموية إلى العباسية

«القسم الثاني: مرحلة مخضرمي الدولتين»

الدكتور مصطفى الشكعة
أستاذ الأدب العربي
بجامعتي عين شمس وبيروت العربية

١٩٧٢

رحلة الشعر

من الاموية الى العباسية

رحلة الشعر

من الأموية إلى العباسية

«القسم الثاني: مرحلة مخضرمي الدولتين»

الدكتور مصطفى الشكعة
أستاذ الأدب العربي
بجامعتي عين شمس وبيروت العربية

شبكة كتب الشيعة

١٩٧١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثاني

المخضرمون من شعراء الدولتين

ومراحل تطور فنونهم

الفصل الأول

المراحل الزمنية وفنية التحول

الفصل الأول

المراحل الزمنية وفنية التحول

(١)

درج الدارسون في ميدان الدراسات الأدبية على ربط فنون القول بأزمنة بعينها وعصور بذاتها ودول أو دويلات من تلك التي شهدها عالمنا العربي والإسلامي لفترات زمنية تراوحت بين الطول والقصر إلا في حالة واحدة نسبوا فيها الأدب إلى الأرض التي نشأ على ترابها وترعرع بين ربوعها وهي الأندلس فقالوا عنه الأدب الأندلسي ، وفيما عدا ذلك فلدينا الأدب مقسماً على العصور التاريخية ، فهناك الأدب الجاهلي ، والأدب المخضرم الذي يعني الأدب الذي عاش في الجاهلية ولحق الاسلام ، والأدب الأموي الذي يعرف كله أحياناً وباكره حيناً آخر بالأدب الإسلامي ، والأدب العباسي ، والأدب المملوكي ، وأدب عصر الانحطاط وقصد به أدب فترة الحكم العثماني ثم الأدب الحديث ، وحتى في نطاق التسمية العباسية للأدب ، قسمها الدارسون إلى عصر عباسيّ أول وعصر عباسي ثان وعصر عباسي ثالث وهكذا ، تسميات لم يكن هناك بدّ من التزام أكثرها ما دام الأدب يكتب بلغة واحدة ولشعب واحد متشابه العادات متماثل الاعتقادات ، أوجه الاتفاق فيه هي الأكثر ، ونواحي الخلاف هي الأقـــل .

لم يكن هناك بدّ اذن من التزام التسميات التاريخية للفترات الأدبية باستثناء حالة واحدة لم تتكرر ، نسبت تسمية الأدب فيها إلى الإقليم لا إلى الدولة وهي حالة الأدب الأندلسي ، وإحقاقاً للحق نقول إنه قامت في مصر منذ حوالي ربع قرن محاولة لإنشاء تسمية جديدة للأدب الذي نشأ في مصر وإطلاق اسم «الأدب المصري» عليها ، وإلحاحاً على إنجاح الصيغة فقد أنشىء لها في جامعة القاهرة «كرسيّ» للأستاذية عُرف وما فتىء — فيما لو كان لا يزال موجوداً — بكرسيّ «الأدب المصري» ، وجرت محاولات «لتسوير» جانب من الأدب ومحاولة ربطه بالبيئة المصرية دون غيرها من البيئات العربية حتى ينطبق الواقع على التسمية ، ولكن التجربة لم يكتب لها النجاح لسبب بسيط جداً هو أن الشعب الذي يسكن مصر شأنه في ذلك شأن الشعب الذي يسكن العراق شأن الشعب الذي يسكن الأقطار الشامية ، شأن بقية شعوب الأرض العربية ، أمة واحدة ، أدبها أدب واحد على ممر العصور مع سمات مميزة تعتبر من القلة بحيث لا تنهض أساساً لأن تنشىء أدباً إقليمياً على أي من مستويات الأقطار العربية .

لم يكن هناك بدّ إذن من قبول التسميات الزمنية المرتبطة بحالات زمانية أو دول سياسية مرتبطة أيضاً طال المدى ببقائها أو قصر ، بحدود الزمان نشأة وزوالا .

وبعض هذه المسميات صالح كل الصلاحية للإبقاء عليه ، وبعضها الآخر قد لا يكون صالحاً للبقاء ولكن نحن مضطرون للإبقاء عليه حتى نجد له البديل الصالح ، فعلى الرغم من بعض المحاولات التي جهد أصحابها في أن يقسموا الأدب أو الشعر منه بنوع خاص إلى تقسيمات تتصل بالفن أكثر من اتصالها بالدول فقالوا بالعصر الفني والعصر العاطفي والعصر العقلي ، لم يجدوا بداً في آخر المطاف الطويل من أن يربطوا الشعر بالرباط الزماني المتصل بدولة بعينها[1] .

(١) راجع فهرست تاريخ الشعر العربي .

فلنعد إلى القول مرة ثانية إلى أن بعض التسميات الموروثة تسميات معقولة كتسمية الأدب الجاهلي مثلا ، لأن الأدب الجاهلي قد أصبح واضح التقاسيم محدد المعالم ، وقد يصلح ذلك أيضاً للعصر الأموي أو العصر الإسلامي لأن الإسلام جاء فاصلا لما بين الفترتين منهياً العصر الجاهلي إنهاء تاماً لا رجعة فيه ولا إليه ، وإذا كان بعض الشعراء الإسلاميين لم يلبثوا بعد فترة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين أن عادوا إلى النهج الجاهلي في الشعر ، فقد كان ذلك العود جزئياً أو شكلياً ، ذلك أن البيئة الجديدة بالروح الاسلامية التي طبعتها بطابعها قد غيرت من جوهر فنّ القول وإن لم تغيّر كثيراً في أسلوبه ، ومعروف لدينا أن الشعر في عهد الرسول كان واحداً من أسلحة الدعوة إلى العقيدة والذود عن حياضها والذب عن رسولها ، حتى إن حسان بن ثابت صاحب المعجبات المطربات من الروائع في الجاهلية قد صار في ظل الاسلام شاعر الرسول ، وصار للرسالة شعراء ينافحون عنها على ما هو مفصل في الفصل الأول من هذا الكتاب .

ولكن إذا سقطت دولة وقامت أخرى كما حدث للدولة الأموية التي جاءت في إثرها الدولة العباسية ، فماذا يكون موقف الشعراء وما هو موقف الشعر نفسه ؟ لقد أمكن إيجاد تعريف على نطاق قياس سابق حين انتهى العصر الجاهلي وجاء الإسلام ، فأمكن تسمية الشعراء الذين عاشوا في عصر الدولة الأموية وأدركوا الدولة العباسية بالشعراء المخضرمين قياساً على مرحلة التغير السابقة ثم تعدلت الصفة فقيل عنهم «مخضرمي الدولتين» ، غير أنه إن جاز هذا التخلص في نطاق التسمية فهل يمكن ذلك في نطاق الفنّ نفسه بحيث يصبح الفن الأموي بين يوم وليلة متغيراً متطوراً ويسمى بالفن العباسي ؟ الجواب على ذلك بالنفي بداهة . لأنه كم من شاعر أموي عاش في العصر العباسي وظل أموياً في فنه صياغة وموضوعاً ، وكم من شاعر لحق بالدولتين وتحول تحولا يتفق مع طبيعة العصر ولكنه كان بطيئاً محدوداً في تحوله وتطوره ، وهناك الشعراء الذين طوروا شعرهم بشكل أسرع من غيرهم ووضعوا الأسس الفنية لما يمكن أن

يسمى بالشعر العباسي .

الواقع أن التغير السياسي يحدث فجأة ويأخذ شكل الطفرة ، فليس إذن معنى التغير السياسي المفاجىء تغييراً مفاجئاً أيضاً في الإبداع الفني ، وإنما يحدث التغيير الفني في نطاق التطور الذي يأخذ بعض الوقت مهما كانت سرعته ، لقد حدثت النقلة السياسية من الأموية إلى العباسية فجائية ، وأما النقلة الفنية في ميدان الشعر والحضارة فقد اتخذت عدة مراحل هي التي سوف نعرض لها تفصيلا في هذا القسم من هذا الكتاب .

إن التغير السياسي — لطابع السرعة فيه — قد يصادف تألقاً سريعاً ، وليس الأمر كذلك في النتاج الأدبي الذي يحتاج إلى فترة تحول ثم نضوج ثم تألق ، ومن ثم فقد تخبو الجذوة السياسية وتتألق الجذوة الأدبية والفنية ، إن ابن الرومي وابن المعتز وأضرابهما ظهروا في بداية فترة الانهيار السياسي للدولة العباسية ، والمتنبي ظهر مع سقوط بغداد تحت سنابك خيل الديلم وعاش في عهد تمزق الدولة العباسية شر ممزق وأخذ يتنقل من إمارة الحمدانيين في حلب إلى إمارة الأخشيديين في مصر إلى إمارات الديلميين من بني بويه في العراق والعراق العجمي ، وكذلك كان أبو العلاء المعري .

وليس الأمر في هذا الموضوع مقصوراً على الشعر وحده ، فالنثر الفني لم يتألق إلا في عهد ما يسمى بالدول المنقطعة التي هي هشيم حصاد الانحلال والتحلل الذي أصاب الدولة العباسية الكبرى ، فالكاتبان الوحيدان اللذان عاشا في عهد بني أمية هما عبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفع ، ثم قتل عبد الحميد مع مروان بن محمد آخر ملوك بني مروان وبقي ابن المقفع بعض الوقت في عهد العباسيين إلى أن لقي مصرعه ، وتصل الدولة العباسية إلى أوج عظمتها في عهد الرشيد ولا نستطيع أن نقول إن الكتابة العربية أو النثر كان آنذاك في مرتبة عليا من الإجادة ، وإنما بلغ النثر أرقى منزلة له بعد تفتت الدولة العباسية ، وبعد احتلال بغداد من قبل بني بويه ، فبدأنا نسمع عن ابن العميد والصاحب بن عباد والوزير المهلبي وأبي إسحاق الصابي وأبي بكر الخوارزمي

وبديع الزمان الهمذاني وأبي حيان التوحيدي وأبي الفتح كشاجم وأبي الفرج الببغاء أعلام النثر العربي الذين لم ينتج عصر من عصور الأدب اللاحقة فناً مثل فنهم أو عدداً مثل عددهم .

وإذن فليس معنى سقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس أن يتحول شعر الشعراء بين يوم وليلة إلى لون آخر وفن آخر يسمى اللون العباسي أو الفن الهاشمي ، ولكن للسياسة أن تغير نفسها في أي وقت تشاء وأما الشعر فهو كالكائن الحي الذي لا ينتقل من مرحلة الطفولة إلى دور الشباب مرة واحدة بل يأخذ مراحل متتابعة متدرجة . فالأدب شعره ونثره تتقدم به الأيام ، ويظل بعضه ناظراً إلى الماضي مستمسكاً بعاداته وتقاليده ، والبعض الآخر يأخذ من بيئات الماضي بعض سماتها ويأخذ من البيئة الحاضرة قدراً قد يكون مساوياً لما أخذه من بيئته الماضية ، وبعض ثالث يكون تأثره بالبيئة الجديدة أكثر من سابقته ، فيطور نفسه معها ، ولكن بحكم سنة الطبيعة تظل أعماقه مرتبطة ببيئته القديمة يحن إليها وتهفو نفسه إلى آثارها ، وأما النقلة الأدبية المفاجئة فهي مستحيلة الحدوث لأنها ضد طبيعة الأشياء ، ومن ثم فإننا حين نتحدث عن الشعر العربي الذي عاش في فترتي بني أمية وبني العباس فإننا نجده يحبو نحو التداخل المنظم ، ويسير سيراً بين الوئيد والنشط لكي يلتحق بالمجتمع الجديد، يتطور شيئاً فشيئاً حتى يكون هو ومنشئوه المنطلق الذي منه يقفز الشعراء الذين ولدوا في الدولة الجديدة قفزات تدفع بأكثرهم إلى الأمام وأحياناً ترتد ببعض منهم إلى الوراء .

(٢)

وانطلاقاً من هذا القول يكون شعر مخضرمي الدولتين يسير على مراحل ثلاث : مرحلة المحافظين المتمسكين بالأرضية الفنية الأموية ، ومرحلة تقف بجسمها على «الأموية» وتطل برأسها على «العباسية» ونعني «بالعباسية» التطور

والتغير ولكن بقدر ، ومرحلة تقف بنصفها على «الأموية» وتضع نصفها الآخر في العباسية .

فمن أصحاب المرحلة الأولى ونعني بهم أصحاب المرحلة المحافظة التي امتازت بنقاء الأسلوب وإشراقه وجزالة القول وفحولته الأحيمر السعدي الذي عاش أكثر حياته في الصحراء وفي الخلوات قاطع طريق ، إذا ما خلا لنفسه رجعت الصحراء أصداء شعره ، ورددت الفيافي رجع قصيده ، وتلقّى الوحش من وديع ومفترس عربون صداقته له فهو القائل :

عَوَى الذِّئْبُ فاسْتَأْنَسْتُ بالذِّئْبِ إذْ عَوَى
وَصَـوَّتَ إنْسَانٌ فَكِـدْتُ أَطِيـرُ

ومن جملة أبناء هذه المرحلة السائب بن فروخ الذي اشتهر باسم أبي العباس الأعمى ، وكان ذا ولاء فريد لبني أمية مدحهم في أيام ملكهم وبكاهم بعد اندثار دولتهم ، وهجا أعداءهم من بني الزبير وإن لم يجرؤ على هجاء بني العباس ، كما عرض لبعض كبار شعراء زمانه هاجياً مثل البعيث المجاشعي وعمر بن أبي ربيعة،وأبوالعباس في أسلوبه ومعانيه من الفحولة والصفاء والبعد عن أسلوب الحضر بحيث يعتقد أنه أصرّ على أن يظل مقيماً في العصر الأموي رغم مجيء عصر آخر هو عصر بني العباس ، يتنفس أنسامهم ويعيش في ذكرياتهم ويترحم على أيامهم ، وهو بذلك يصر على «الأموية» إصراراً عنيداً لم تنفع معه محاولات الملك العباسي أبي جعفر المنصور .

على أن أشهر أبناء هذه المرحلة ذكراً وأنبههم شأناً هو الشاعر الراجز ابن ميادة الذي كانت المحافظة طابعاً له وميزة ظاهرة فيه ، لقد التزم «الأموية» التزاماً كاملا ،وأحيا تقاليدها وحافظ على معالم تراثها بخيره وشره ،فمن ناحيةخيره التزم العفة في الغزل الذي برع فيه براعة سابقيه من زعماء مدرسته ،والتزم الأصالة في المديح مقتفياً آثار سابقيه من الشعراء الفحول أسلوباً ودرباً ، بحيث يمكن أن نلحقه في كلٍّ من فنّي الغزل والمديح بمدرسة جرير ونعتبره امتداداً لها ،

وأما ناحية الشر التي حافظ ابن ميادة على الإبقاء عليها فهي مدرسة الهجاء والنقائض ، إن إصراراً ما على الهجاء والنقائض يمكن ملاحظته في يسر عند ابن ميادة ، وكأنما قد شق عليه أن تموت ظاهرة فنية شعرية «أموية» حتى ولو كانت هذه الظاهرة جديرة بالزوال .

وقد نستطيع أن نضيف إلى هذه القافلة المحافظة من قافلة الشعراء المخضرمين المحافظين محمد بن ذؤيب المعروف باسم العماني الذي مدح الأمويين والعباسيين على حد سواء ابتداء من مروان بن محمد المرواني حتى الرشيد العباسي ، وكان يجمع بين قول الرجز والقصيد ، إلا أنه كان بدوي الطبع في كليهما مع صعوبة وإغراب . ومن شعراء هذه المرحلة أيضاً ، الحكم الخُضْري إلا أنه لسوء الحظ لم يصل إلى أسماعنا من أخباره إلا القليل ، غير أنه من خلال معاركه مع ابن ميادة ومن خلال النماذج الشعرية التي قالها في هذا السبيل يمكن أن نضمه بغير ما تردد إلى مدرسة هذه المرحلة المخضرمة المحافظة التي حافظت على الوجه «الأموي» للشعر ورفضت في إصرار الانتقال من جو الفحولة والجزالة والإشراق والنقاء والتزام عمود الشعر إلى مرحلة تالية فيها شيء من التطور أو التجدد .

والمرحلة التالية في شعر مخضرمي الدولتين هي تلك التي وقفت على الأرض الأموية بنصف منها وأطلت على الأرض العباسية — فنياً — بنصفها الآخر ذلك أن شعراءها حافظوا على أصالة الجو الأموي للقصيدة قدر استطاعتهم ، ولكنهم راضوا أنفسهم على شيء من التطور في غير ما إسراف أو تسرع ، وظلوا يلتفتون إلى الماضي بين الحين والحين حتى لا تغيب عنهم صورته فيفقد شعرهم سماته التي لا يرضون عنها بديلا من إشراق ونضرة ونقاء وجزالة والتزام لعمود الشعر ، والذين يمثلون هذه المرحلة المتوسطة من وجهة نظرنا شعراء كثيرو العدد ، قد يختلفون مشرباً ويتباينون في الشعر مذهباً ، ولكن كلا منهم خطا إلى الأمام خطوة أو خطوتين ووضع نفسه على دولاب التطور حتى يتحرك به دورة أو بعض دورة . منهم من أغرق نفسه في السياسة إغراقاً كاملا مثل

سُدَيْف وأبي عديّ العبلي وأبي نخيلة الراجز ، فسديف حمل على بني أمية في أيام ملكهم وكان يؤلب الناس عليهم ، وحين تقوم الدولة العباسية وتبقي على بعض الأمويين يسارع إلى استخدام شعره في القضاء عليهم واستئصال شأفتهم ويقول للسفاح في مواجهتهم :

لا يَغُرَّنْكَ ما تَرَى مِنْ رجـالٍ ... إنَّ تحتَ الضُّلُوعِ داءً دَوِيًّا

فَضَعِ السيْفَ وارْفَعِ السَّوْطَ حتّى ... لا تَرَى عَلَى ظهرِهَا أُمَوِيًّـا

وسديف في نطاق عيشه فنياً في مرحلته يلاحق الأحداث السياسية وينقلب من عباسي الهوى إلى حسنيّ العقيدة ، ويدعو لمحمد بن عبد الله بن الحسن ، وأما في ميدان الغزل فهو يجمع بين رقة غزل البادية وتأنق غزل الحضارة .

وقريب من سديف أبو عدي العبلي الأمير الأموي الذي يكره بني أمية ويشايع بني علي ، فيغضب قومه ويرضي بني الحسن ويؤيدهم ويعمل والياً لهم على جنوب الحجاز ، وهو على أمويته ينجو من محنة الإبادة التي قام بهـا السفاح ، وهو شاعر متدفق ثر هطال كالغيث ولكن تطوره كان وئيداً ، فهو إذ لم يغير أسلوبه البياني الأموي إلا أنه فتح موضوعاً جديداً هو رثاء الدول ، فرثى دولة قومه رثاء جعل محمد بن عبدالله بن الحسن يبكي عليهم رغم ما ألحقوا بأهله من عذاب واضطهاد ، والعبلي في تقديرنا خير الشعراء من أبناء بني أمية مقدرة على الشاعر وتمكنا من التعامل معه .

ومن نفس هذه الفئة السياسية — ولو كان ذلك برغمه — أبو نخيلة الراجز الذي مثل عند العباسيين دور مسكين الدارمي عنـد الأمويين ، فإذا كان مسكين هو الذي أثار في بلاط معاوية أَخْذَ ولاية العهد ليزيد دون بقية رؤوس بني أمية ، فإن أبا نخيلة هو الذي أثار أخذ ولاية العهد في بلاط المنصور لابنه المهدي وكان الأمر ثابتاً لعيسى بن موسى ، ولكن في حالة مسكين استطاع معاوية أن يحميه ، أما أبا نخيلة فقد دفع حياته ثمناً لأرجوزته التي دعا فيها إلى تحويل ولاية العهد إلى المهدي .

ولكن شكل التحول الفني عند أبي نخيلة ينحصر في تطوير الأرجوزة وتمهيد الطريق أمامها بحيث جعلها تسير على نسق قصيدة المديح خطوة خطوة من وقوف على الطلل ونسيب ورحلة إلى الممدوح مع التخفف من أعباء الألفاظ الوحشية التي تعتبر لازمة من لوازم الرجز ، ومن هنا تكون خطورة الخطوة التي خطاها أبو نخيلة إلى الأمام في ميدان يستعصي التحول عن إطاره بحيث فرض نفسه أستاذاً لكبار الشعراء الذين حاولوا قول الرجز في نطاق تمدنهم مثل الوليد ابن يزيد وبشار وأبي نواس .

ومن شعراء هذه المرحلة الوسطى الذين يطلون على العصر العباسي وأقدامهم ثابتة على الأرض الأموية شاعر كبير حالت كثرة أخباره الفكهة دون تسنم مكانته الحقيقية في دنيا الشعر ومحاولاته الابتداعية فيه ، إنه أبو حية النميري ، نَفَسُه في الشعر طيِّب ، وغنائيته صادقة الحب ، شفافة الحس ، مهتاجة الوجد ، وهو رقيق حواشي الشعر رائع الغزل ، اكتملت له تماماً أسباب رسم الصورة الشعرية وهو أبرع من وصف الحديث ونعني حديث المرأة ، ومن أبرع من وصفوا الشيب .

هذا وهناك شاعر عرف في أوساط الدارسين بأنه شاعر عباسي ، فلما سبرنا أغواره الفنية لم نستطع أن نجعله حتى في المرحلة المنطلقة من شعراء المخضرمين ، بل اضطررنا لأن نصنّفه هنا في هذه المرحلة الوسطى ، إنه الشاعر الشهير مروان بن أبي حفصة ، إنه نجديّ من اليمامة واشتهر بمدح معن بن زائدة الشيباني ورثائه ، وحاول أن يمدح الملوك العباسيين فلم يوسعوا له صدرهم ولم يفسحوا له في بلاطهم أول الأمر لإفراطه في مدح معن ثم إفراطه في البكاء عليه ، حتى ظنوا أنه لم يعد في كنانته من جيد القول ما يتلاءم مع مكانتهم التي هي بطبيعة الحال أرفع من مكانة عاملهم معن بن زائدة ، فكان على مروان أن يطور نفسه ، لعله حاول ذلك في نطاق المعاني الجديدة فلم يستطع ، فحاول نطاق الموضوع فأفلح معهم ، لأنه طرق بابهم من ناحية أحقيتهم

بالخلافة والملك ، وفي نفس الوقت عمد إلى غمز آل عليّ والتطاول عليهم ، فكان أن أصبح أقرب شاعر إلى قلوب بني العباس وأكثر الشعراء نوالا من عطائهم ، وأما من ناحية الأسلوب فقد لزم مروان طريقاً وسطاً بعيداً عن الصحراوية في جزالة ، قريباً إلى الحضرية في غير ما تهافت عليها ، فكان واحداً من أبناء هذه المدرسة التي تمثل المرحلة الوسطى بين فئة المرحلة الأولى الغارقة في الأموية وفئة المرحلة الثالثة المنطلقة إلى شأو بعيد من الحضرية والتحرر من بعض السمات التقليدية التي لم تعد في نظرها – جزئيا – متمشية مع طبيعة الحياة الاجتماعية التي تغير وجهها تماماً على أيام دولة بني العباس .

وأما المرحلة الثالثة من مراحل شعر المخضرمين فهي مرحلة التطور والخلق والإبداع ، ولكن في ظل إطار التقليدية ، فشاعر هذه المرحلة الذي وطد دعائم التجديد وهيأ سبيله لكل القادمين من بعده كان لا يزال ينظر إلى الماضي بعين وينطلق إلى المستقبل بعين أخرى ، فآدم بن عبد العزيز والحسين بن مطير وابراهيم بن هرمة وبشار بن برد ، وهم رؤوس التجديد الحقيقي في الشعر العربي كانوا دائماً يتمسكون بشخصيتهم الفنية «الأموية» على الرغم من انطلاقاتهم التجديدية أو الإبداعية ، فهم إذا مدحوا – والمديح خلال العصور الأموية والعباسية هو محكّ مقدرة الشاعر – كانوا يلتزمون السمة الأموية ، وكذلك الحال في الرثاء ، حتى إن فناناً كإسحاق الموصلي كان يفضل مروان بن حفصة على بشار ، ومروان محافظ كل المحافظة وبشار منطلق في بعض شعره كل الانطلاق ، ولكن مهما نظر شعراء هذه المرحلة إلى الخلف فإن كل واحد منهم قد خطا في ميدان التجديد والخلق والإبداع بقدرٍ ما وإن اختلف من حيث الشكل أو تباين من حيث الموضوع .

فآدم بن عبد العزيز يقف على إيوان كسرى ويرثي مجد حضارة زائلة ، وهو في هذا يمثل الحلقة الثالثة لترتيب المراحل المتتابعة الثلاث لشعر المخضرمين وشعرائهم . إن أبا العباس الأعمى من شعراء المرحلة الأولى يبكي ذهاب بني

أمية ولا يتنكر لهم حتى في مواجهة الملك العباسي المنصور ، ثم يجيء أبو عدي العبلي ويمثل الحلقة الثانية بقصيدتين إحداهما همزية والأخرى سينية يرثي بهما بني أمية ودولتهم رثاء يؤثر على واحد من أعدائهم هو محمد بن عبد الله بن الحسن فيبكيه ، ويثير واحداً آخر من أعدائهم هو أبو جعفر المنصور فيطرده من مجلسه ، ثم تجيء الحلقة الثالثة التي تشكل فناً جديداً وإن يكن مبتدئاً وهو رثاء الأمم ، ويكون صاحب أبيات الرثاء — وهو شيء لا يدعو إلى الغرابة — آدم ابن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان ، ومن بعد آدم تكتمل لهذا الموضوع الجديد أسباب ثباته حين يجيء البحتري بعد ذلك بما يناهز قرناً من الزمان ليقول سينيته المشهورة في إيوان كسرى . وبعد ذلك يصبح بكاء الدول فنا أصيلا في الشعر العربي عند شعراء الأندلس .

هذا ونحب أن نلفت النظر إلى أن الشعراء الثلاثة أبا العباس الأعمى وأبا عدي العبلي وآدم بن عبد العزيز لم يعيشوا في أزمان متعاقبة ، لقد عاشوا جميعاً في وقت واحد ، ولكن — وهذا بيت القصيد — كان كل واحد منهم يمثل مرحلة من مراحل الكيفية الفنية للشعر ، هذا محافظ ، وذاك متطور ولكن جذور المحافظة تشده إليها بعنف ، والثالث متطور ولكن إغراء التجديد يجعل خطواته إلى الأمام تغلب نظراته إلى الماضي .

ولا يقف الأمر بآدم بن عبد العزيز عند حد معين من التجديد والإبداع وإنما يعمد إلى قول شعر صوفي رقيق يدهشنا لما بينه وبين أبيات رابعة العدوية من شبه بل مشاركة في الألفاظ والمعاني والبحر والروي إلى حد المطابقة ، ومع هذا الشعر الصوفي يقدم لنا آدم نماذج من الشعر الفكه الساخر — يشاركه في ذلك معاصره أبو دلامة صاحب النوادر الطلية — الذي يمكن أن يعتبر القالب الذي احتذاه ابن الرومي بعد ذلك بحوالي قرن من الزمان .

ومن شعراء هذه المرحلة الثالثة الحسين بن مطير الفحل الصوغ الخصب الشاعرية الرائع الموسيقي البارع تجميع المعاني ، الذي أعاد العذرية إلى الغزل فبدأنا نرى لوناً جديداً في الإلحاح على المذهب الأخلاقي والحرص على إظهار

معاني العفة في الحب ، كما بعث شعر الحكمة من جديد بعثاً قوياً راسخاً ، هذا ما كان منه في ميدان التجديد ، وأما في ميدان الخلق والإبداع فهو من أوائل من وصفوا الروض وأحسنوا الهجوم على المعاني المبتكرة والأساليب الرائقة وجاءوا باستعارات جديدة وتشبيهات محبوكة وفنون بديعية من تشطير وطباق ومقابلة .

ويجيء على رأس هؤلاء جميعاً في المرحلة الثالثة شاعران مجيدان في نطاق الفحولة والشموخ من حيث ثبات الأقدام على الأرض الأموية زماناً وفناً ، مبدعان كل الإبداع في نطاق الانتقال بالصور الشعرية إلى مرحلة فيها جدة فنية ورقة موضوعية ، إن هذين الشاعرين هما ابراهيم بن هرمة وبشار بن برد اللذان يمثلان المعبر الحقيقي العريض الذي عبر عليه الشعر من عصر إلى عصر ومن صورة إلى صورة ، وهو معبر يثري من يمر عليه ويرفد من يعبره بما نما على جنباته من ورود وأزاهير وضعت في أناقة وصفّت في افتتان ونسقت في ذوق وحسن ابتكار ، تلك الأزاهير هي الصور الجديدة في الشعر التي جاء بها كل من ابن هرمة وبشار موضوعاً وأسلوباً .

إن أبا عمرو الجاحظ وهو ليس بعيد العهد عن القافلة الضخمة من شعراء تلك الفترة يقول : لم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة[1] ، وإن حكماً كهذا له خطورته الكبرى لأنه ليس صادراً عن أديب عادي ، وإنما هو صادر عن الجاحظ شيخ الكتاب والأدباء والنقاد والعلماء والمفكرين .

والحق إن لكل من الشاعرين الكبيرين صفات وسمات بعضها مشترك بينهما وبعضها الآخر مختلف متباين ، فهما في نطاق المديح كانا يقفان على الأرض الأموية من حيث بناء القصيدة ، ولكنهما من حيث المعاني أتيا بكل عجيب . لقد ابتدعا ضروب القول وتوليد المعاني التي سار على نهجها جمهرة الشعراء العباسيين بعدهم .

---

(١) البيان والتبيين ١/٥١ .

وفي مجال الهجاء كان ابن هرمة يوجع ولا يفحش ، ويؤلم ولا يتدنّى إلى الهاوية الكريهة التي كان يتردى فيها بشار ، ولذلك فقد نجد متعة في قراءة هجاء ابن هرمة ، ولكننا نتقزز ونحن نقرأ هجاء بشار اللهم إلا بعض القصائد القليلة التي ضغط فيها على نفسه وراضها على عدم ذكر العورات وفاحشات الألفاظ وجارحات المعاني .

ومن الناحية السياسية كان ابن هرمة فاطميّ الهوى وأما بشار فكان أموي المشرب ، وكلاهما مدح العباسيين لنيل العطاء ، على أن مدائح ابن هرمة في العباسيين أجود من مدائح بشار .

ولقد اصطنع كل من الشاعرين الحكمة فجاءت عذبة رخاء ، واستقرت أبياتهما في أسماع الناس وقلوبهم ينشدونها ويتمثلونها حين تدعو الحاجة إلى حسن التمثيل ، وإن كانت ثروة الحكمة من أقوال بشار أكثر عدداً ، ربما لأن نصف ديوان بشار بين أيدينا ، وأما ديوان ابن هرمة الذي قيل إن الصولي قد جمعه مفقود ، وكل شعره الذي بين أيدينا هو ما وقعت عليه عيوننا في بعض كتب الأدب والطبقات .

وأسهم كل من الشاعرين بنصيب وافر في قول الغزل ، غير أن غزل ابن هرمة غنائي وجداني رفيع في مجمله ، وأما بشار فقد جمع في غزله بين العذب الفاتن الرفيع والغث الساقط الرقيع ، وهو نفسه يعترف بذلك حينما اعترض بعض المتأدبين ولاحظوا تأرجحه بين الجيد الممتاز والرديء الساقط ، فقال مدافعاً عن نفسه : إنما الشاعر المطبوع كالبحر ، مرة يرمي صدفه ومرة يقذف جيفه[1] ، إن شاعراً مخضرماً آخر مرّ ذكره في شعراء المرحلة الأولى من المخضرمين أجاب نفس الإجابة عندما ووجه بنفس الاعتراض ، إنه ابن ميادة حين دافع عن تباين وجه شعره قوة وضعفاً ، قال : إنما الشعر كنبل في جفيرك ترمي به الغرض ، فطالع وواقع ، وعاصد وقاصد * فالدفاع واحد عند الشاعرين وإن

(١) زهر الآداب ١/٢٢٨ .

* العاصد الملتوي الذي لا يصيب الهدف .

اختلفت لغة كل منهما اختلافاً ما بين البصرة بلدة بشار والمدينة بلدة ابن ميادة.

الواقع أن كلا من الشاعرين — بشار وابن هرمة — مزج رقة البداوة وصفاءها ببهجة الحضارة وطراوتها فجاء شعرهما في هذا الدرب الذي اختطاه لنفسيهما على سمات من الملاحة استهوت القلوب إليه وحببته إلى الأسماع فوعته القلوب ورددته الألسنة، وشعر بشار في هذا الدرب أكثر رواجاً من شعر ابن هرمة الذي لم يغرق نفسه في دنيا الحضر إغراق بشار نفسه فيها ، ومن ثم أيضاً كان بمنأى عن السقطات التي تردى فيها بشار وبخاصة الأقوال التي جنحت به إلى الزندقة، ولكن بشاراً من ناحية أخرى قد اختطف منه بريق الشهرة ، ولذلك قال عنه الحصري إنه أرق المحدثين ديباجة كلام ، وسُمي أبا المحدثين لأنه فتق لهم أكمام المعاني ونهج لهم سبيل البديع فاتبعوه[1] .

وهكذا نجد كلمة «البديع» تكررت عند كل من الجاحظ والحصري، فإذا كانت كلمة البديع هنا بمعناها اللغوي وهو «الجديد» فقد يكون الأمر صحيحاً بالنسبة إلى بشار ، وأما إذا كانت بمعناها الفني أي الصفة البديعية فإن ابن هرمة أقرب إلى هذا الفن من بشار ، بل لقد عمد إليه عمداً من لعب بالألفاظ وإكثار من الجناس والطباق وذهب به الولوع بالتلاعب بالكلمات إلى الحد الذي جعله ينشيء قصيدة من أربعين بيتاً كل حروف ألفاظها مهملة .

وفي الحق إن الناقد المنصف لا يستطيع أن يصدر حكماً مجملا على أي الشاعرين كان أقرب إلى التطور والتجديد طالما كان ديوان ابن هرمة مفقوداً ، ولكنه بقلب راض وضمير مستريح يستطيع أن يضعهما سوياً على رأس مدرسة هزت الشعر العربي هزة صحية عنيفة دفعت به إلى كثير من المسالك والدروب فكثرت دوحاته وظلاله وتنوعت رياضه وثماره .

فلنفصل الحديث إذن عن كل مرحلة من المراحل الثلاث التي مر ذكرها لنقدم شعراءها ونستعرض فنونهم ، ولنحاول أن نركز على بشار في نهاية المطاف لتوفر شعره وتنوعه ومن ثم يمكن توضيح شخصيته وإبراز معالمها .

(١) زهر الآداب ١/٤٢٢ .

الفصل الثاني

المرحلة الاولى : مرحلة الشعراء المخضرمين المحافظين

الأحيمر السعدي

أبو العباس الأعمى

ابن ميّادة

الأحيمر السعدي

يعتبر الأحيمر امتداداً لمدرسة الصحراء في الشعر الأموي ، وبالرغم من أنه يعد من شعراء الدولتين ، إلا أن طبيعة حياته المغامرة جعلته لا يعيش إلا في الفلوات لصاً فاتكاً خارجاً على العدالة مخلوعاً من قومه مهدور الدماء .

لقد كان الأحيمر لصاً فاتكاً ذا هجمات كثير الجنايات ، وكانت عادة القبائل أن تخلع من يخرج على عاداتها وتقاليدها من أبنائها ، فلما عرفت اللصوصية عن الأحيمر وردعه قومه فلم يرتدع خلعته قبيلته وهي «سعد» وطلبه سليمان بن علي أمير البصرة ، فاضطر الأحيمر إلى الخروج إلى الفلوات والقفار وأخذ يضرب فيها شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً . ويصف الأحيمر المناطق التي طرقها فيقول : «ظننت أني جزت نخل وَبار (أرض باليمن) أو قد قربت منها وذلك لأني كنت أرى في رجع الظباء النوى ، وصرت إلى مواضع لم يصل إليها إنسان قط قبلي . وكنت أغشى الظباء وغيرها من بهائم الوحش فلا تنفر مني ، لأنها لم تر غيري قط وكنت آخذ منها لطعامي ما شئت[1] .

إن هذه الحياة القاسية التي فرضها الأحيمر على نفسه بخروجه على القانون

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٧٨٧ .

قد جعلت الصحراء مقامه وجعلته في نفس الوقت يحن إلى قومه تارة وتهفو نفسه إلى العمران ، وتارة أخرى ينفر من الإنسان خشية أن يشي به ويطل دمه ومن ثم كان أنسه بالحيوان ولو كان من الذئاب المفترسة .

ومن ناحية أخرى أصبحت هذه البيئة الصحراوية القاسية تفرض نفسها على أسلوبه فجاء شعره بدوي السمات رغم أن الفترة الزمنية التي عاشها كانت أواخر دولة بني مروان وأوائل دولة بني العباس .

تظهر هذه الملامح الموضوعية والأسلوبية بجلاء في شعره من حنين إلى دياره ببادية الشام وشكوى اختبائه بالعراق وتطوافه بخوزستان وفخره بإخوانه قطاع الطريق وسطوه على الإبل ، كل ذلك يبدو واضحاً رائقاً في قوله :(٢)

لئنْ طالَ ليلِي بالعراقِ لربَّما
أَتَى ليَ ليلٌ بالشآمِ قصيرُ
معي فتيةٌ بيضُ الوجوهِ كأنهمْ
على الرحْلِ فوقَ الناعجاتِ بُدُورُ
أيا نخلاتِ الكرْمِ لا زال رائحٌ
عليكنَّ منهلٌ الغمامِ مطيرُ
سُقِيتُنَّ ما دامتْ بكرمانَ نخلةٌ
عوامرَ تجرِي بينهنَّ بحورُ
وما زالتِ الأيامُ حتى رأيْتُنِي
بِدَوْرَقَ مُلقىً بينهنَّ أدورُ *

---

(٢) الأبيات يكمل بعضها بعضا من كل من معجم البلدان ٢/٦٢٠ ، الشعر والشعراء ٢/٧٨٧،٧٨٨

* دورق بلد بخوزستان يقال لها دورق الفرس .

يُذَكرُني أطلالُكُـنَّ إذا دَجَـتْ
عليَّ ظـلالُ الدَّوْمِ وهـي هجيـرُ
وقد كنتُ رملياً فأَصبحتُ ثاوياً
بِـدَوْرَقَ مُلقـىً بينهـنَّ أدورُ
عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذْ عَوَى
وصـوَّتَ إنسانٌ فكـدْتُ أطيـرُ
رأى اللهُ أنـي للأنيسِ لشانِئٌ
ويُبْغِضُهُـم لـي مقلـةٌ وضميـرُ
فلِلَّيْـل إذْ وارانـي الليلُ حكمُهُ
وللشمسِ إذْ غابتْ عـليَّ نـذورُ
وإني لأستحيِـي لنفسِي أنْ أُرَى
أَمُـرُّ بحبـلٍ ليس فيـه بعيـرُ
وأنْ أسأَلَ العبـدَ اللئـيمَ بعيرَهُ
وبُعْـرانُ ربِّـي في البـلادِ كثيـرُ

ويعيب الأحيمر على قومه تخاذلهم عن حمايته وعن حماية أنفسهم ممـا يتعرضون له من مهانة ، ويعبر الأحيمر عن أساه لبعده عنهم واحتمائه بالصحراء فيقول شعراً مفعماً بروح الفتوة المصحوبة بالمرارة وذلك في هذه الأبيات[1] :

نُبِّئْتُ بـأَنَّ الحيَّ سعـداً تخاذلُوا حِماهُم وهُمْ لو يَعْصِبُون كثيرُ
أَطاعوا لفتيانِ الصِّباحِ لئامَهُمْ فذُوقُوا هوانَ الحربِ حيثُ تدُورُ

(٢) معجم البلدان ٨١/١ .

نظرْتُ بقصـــرِ الأَبْرَشِيَّـــةِ نظرةً وطَرْفِي وَرَاءَ النَّاظرينَ بَصِيرُ
فردَّ عليَّ العينَ أَنْ أَنْظُرَ القـــرى قُرَى الجُوفِ نَخْلٌ معرضٌ وبخورُ
وتَيْهَاءَ يزْوَرُّ القَطَا عنْ فلاتِهـــا إذا عَسْبَلَتْ فوقَ المِتَانِ حَرُورُ

ويصور الأحيمر حالته وهو هارب في الصحراء يعيش مع الذئب إلفين صديقين ويفخر بوفائه ، وإبائه الغدر بمن صادقه واثتمنه ، فيقول هذه الأبيات التي تحمل معاني نبيلة نستغرب أن تصدر عن قاطع طريق : (١)

أَرَاني وذِئْبَ القَفْرِ إِلْفَيْن بعدما بدأْنـــا كلانـــا يَشْمَئِزُّ ويُذْعرُ
تـأَلَّفَنِـــي لمـــا دنَـــا وأَلِفْتُـــهُ وأَمْكَنَنِي للرَّمْيِ لو كنتُ أَغْدُرُ
ولكنَّني لمْ يـأْتَمِنِّي صاحـــبٌ فيرتابَ بِي ما دام لا يتغيَّرُ

وللأحيمر معاني وتعابير طريفة لا يحسن طرقها إلا لص أو قاطع طريق مثل قوله : (٢)

نهق الحمارُ فقلْتُ أَيْمَنَ طائـــرٍ إنَّ الحمارَ من التِّجارِ قَرِيبُ

أو قوله في مقام الفخر : (٣)

يُعيِّرُني الإعدامَ والبـــدرُ معـــرضٌ وسيفي بأَموالِ التِّجـــارِ زعيمُ

وقاطع الطريق لا بد له من جواد أصيل قوي سريع ولذلك فهو يهاجم :

بِـأَقَبَّ مُنْصَلِتِ اللَّبـــانِ كـــأَنه سِيدٌ تَنَصَّلَ مَن جُحُورِ سَعَالِي (٤)

---

(١) الشعر والشعراء ٧٨٨/٢ .
(٢) المؤتلف والمختلف ص ٤٣ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) البيان والتبيين ٥٣/٤ الحصان الأقب الضامر البطن ، المنصلت البارز المستوي ، اللبان الصدر ، السيد بتشديد السين وكسرها الذئب ، تنصل خرج ، السعلاة الغول .

ويتوب الأحيمر بعدما عاث في الأرض الفساد ، فتكون توبته عبئاً ثقيلا على نفسه ، لأنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه إغراء بزّ العراق وطرائف اليمن ، فيقول هذه الأبيات الطريفة :

أشكو إلى اللهِ صبري عن رواحِلِهِمْ ... وما ألاقِي إذَا مرُّوا مِنَ الحَزَنِ

قُلْ للصوصِ بني اللَّخْنَاءِ يَحْتَسِبُوا ... بَزَّ العِرَاقِ ويَنْسُوا طُرْفَةَ اليَمَنِ

فَرُبَّ ثوبٍ كريمٍ كنتُ آخُذُهُ ... من التِّجارِ بلا نَقْدٍ ولا ثَمَنِ

إن شعر الأحيمر – على ما ذكرنا في مستهل الحديث عنه – يمثل أسلوب الصحراء وبيئتها والاحتفاظ بروح الجزالة البعيدة عن رقة الحضارة في آخر عهد بني أمية وبداية دولة بني العباس بحيث يصعب أن يحتسب هذا الشعر شعراً عباسياً وإنما هو شعر أموي الروح والأسلوب رغم أنه قيل على زمان العباسيين .

أبو العباس الأعمى ... ـ ١٤٠ هـ.

إن الشاعر الضرير السائب بن فرّوخ الذي عرف باسم أبي عباس الأعمى كان واحداً من الشعراء المجيدين المطبوعين الذين عاشوا وماتوا وكل ولائهم لبني أمية حتى بعد أن دالت دولة الأمويين وزال ملكهم وأصبح الملك الجديد للعباسيين من بني هاشم .

ولقد عاش أبو العباس يضمر الكراهية لبني فاطمة ويظهر الحقد على بني الزبير ويؤلب عليهم أصحاب السلطان من الأمويين .

وشخصية أبي العباس الأعمى تجمع العديد من المتناقضات ، فهو إذ ينحرف عن جادة الاستقامة في سلوكه ويعمد إلى الانغماس في الشهوات ويراسل الحرائر ويستحل الحرمات[١] ، نراه محدثاً ثبتاً يروي عن عبد الله بن عمر ، ويروي عنه تبعاً لذلك كبار رجال الحديث مثل عطاء ، وعمرو بن دينار ، وحبيب بن أبي ثابت ، والبخاري ، ومسلم ، وأبي داوود ، والترمذي والنسائي وابن ماجه[٢] .

---

(١) أنظر حادثة رواها صاحب الأغاني ١٦/٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) نكت الهميان في نكت العميان ١٥٣ ، ١٥٤ .

(١)

هجـــاؤه

على أن الجانب الأهم في أبي العباس هو شاعريته المطبوعة التي لم يتعد نشاطها فيما وصل إلينا من شعره موضوعين هما الهجاء والسياسة .

فأما في ميدان الهجاء فهو هجام على الكبار دون الصغار يختار من يهجوهم من الذين يعدلونه قدراً في ميدان الشعر وإن كانوا أكثر منة شهرة ، ومن علية القوم ووجهاء العرب من خصوم بني أمية ومناوئيهم .

إنه يهجو البعيث المجاشعي الشاعر الفحل الذي نازل جريراً ويضربه بعصا على رأسه فلا يهم ذاك بأن يحير جواباً ، يروي صاحب الأغاني أن البعيث المجاشعي قدم مكة ، وكان أبو العباس لا يكاد يفارقها ، فصلى البعيث مع الناس وسأل في حمالة كانت عليه ، وكان سؤولا ملحّاً شديد الطمع ، وكان الرجل من قريش يأتيه بالشيء يتحمله عنه ، فيقول : لا أقبله إلا أن تجيء معي إلى الصراف حتى ينقده ويزنه ، فإن لم يفعل ذمه وهجاه ، فشكوه إلى أبي العباس الأعمى ، فقال : قودوني إليه ، ففعلوا ، فلما عرف مجلسه رفع عصاه فضرب به رأسه ثم قال له :

فهلْ أنتَ إلاَّ مُلْصَقٌ في مُجاشِعٍ ... نَفَاكَ جريرٌ فاضْطُرِرْتَ إلى نجْدِ

تَظَلُّ إذا أُعطيـــتَ شيئاً سألْتَـــهُ ... تُطَالِبُ مَنْ أعطاكَ بالوزْنِ والنقْدِ

فلا تطمعنْ من بَعدِ ذا في عطيةٍ ... وثقْ بقبيحِ المنعِ والدفعِ والردِّ

فلسْتَ بمُبْقٍ في قريشٍ خِزايـــةً ... تُذَمُّ ولو أبْعَدْتَ فيه مدى الدَّهرِ

فلم يحر البعيث جوابا، ولما جن الليل عليه هرب من مكة [1]

---

(١) الأغاني ١٦/٣٠٢ ، ٣٠٣ .

ولا يهاب أبو العباس عمر بن أبي ربيعة عندما يتعرض له عمر ، رغم أن هذا مولى من موالي قريش ، وذاك سيد من سادة قريش ، فلم يسلم عمر من لسانه وقوارص كلماته ومرارة هجائه ، إن عمر يتحرش بأبي العباس ويحاول السخرية منه قائلا :[1]

أَفْتِنِي إنْ كنتَ ثَقْفاً شاعراً ... عن فتىً أعرجَ أعْمى مختلِفْ *

سيء السَّحْنةِ كابٍ لونُهُ ... مثلُ عود الخرْوعِ البالي القصِفْ*

فيرد عليه أبو العباس في الحال :

أنت الفتى وابنُ الفتى وأخو الفتى ... وسيِّدُنا لولا خلائِقُ أربعُ

نُكُولُكَ في الهيْجَا وتَقْوالُك الخَنَا ... وشتْمُكَ للمولى وأنَّكَ تُبَّعُ **

ويسمع أبو العباس أن عمر يتصل بجارية له ، وما أكثر من اتصل بهن عمر من جوار وحرائر فيغضب أبو العباس لجاريته ويقول لقائده : قفني على باب بني مخزوم فإذا مر عمر بن أبي ربيعة فضع يدي عليه ، فلما مر عمر وضع يده عليه فأخذ بحجزته.وقال :

أَلَا مَنْ يشترِي جاراً نؤوماً ... بجارٍ لا ينامُ ولا يُنِيمُ

ويَلْبسُ بالنهارِ ثيابَ ناسٍ ... وشَطْرَ الليلِ شيطانٌ رجيمُ

فنهضت إليه بنو مخزوم فامسكوا فمه ، وضمنوا له عن عمر ألا يعاود ما يكرهه[2] .

---

(١) الأغاني ١٦/٣٠٥ .

* الثقف الحاذق الخفيف .

** تبع أي كلف بالنساء

٢ الأغاني ١٦/٣٠٦ .

على أن هذا اللون من الهجاء أقرب ما يكون إلى الهجاء الاجتماعي منه إلى الهجاء الجاد ذي الابعاد والمعاني العنيفة التي عرف بها هجاء عصر بني أمية ، وإن لأبي العباس مشاركة جادة في ذلك ، إن عبدالله بن الزبير يعلم في أثناء غلبته على الحجاز أن أبا العباس الأعمى يكاتب بني أمية فهمّ أن يلحق به أذى غير أنه خوطب في شأنه ورأى أنه رجل ضرير فاكتفى بنفيه إلى الطائف ، فيعمد أبو العباس إلى هجائه وهجاء آل الزبير دون أن يمس أحداً آخر من قريش وذلك على طريقة الأخطل حين استدعاه يزيد بن معاوية ، إن أبا العباس يسدد كل سهامه إلى بني أسد رهط ابن الزبير دون غيرهم من قريش فيقول : (١)

بني أسدٍ لا تذكروا الفخْرَ إنكمْ ... متى تَذْكُـرُوهُ تكْذِبُوا وتُحَمَّقُوا

بُعَيْدات بيْنٍ خيرُكُمْ لصديقكم ... وشركمُ يغـدو عليـه ويَطْـرُقُ

متى تُسأَلوا فضلاً تَضِنُّوا وتبخَلُوا ... ونيرانُكم بـالشَّرِّ فيهـا تَحَرَّقُ

إذا اسْتَبَقَتْ يوماً قريشٌ خرجتمُ ... بني أَسدٍ سكْتاً وذُو المجْدِ يَسْبِقُ

تجِيئونَ خلْفَ القومِ سُوداً وجوهُكُمْ ... إذَا ماقريشٌ للأَضاميمِ أَصْفَقُوا

ومـا ذاكَ إلاَّ أَنَّ لِلُّؤْمِ طابعاً ... يلوحُ عليكمْ وَسْمُهُ ليس يَخْلُقُ *

هذا هجاء جيد وإن كان الشيء القبيح لا يوصف بالجودة ، والهجاء ضرب من القول لا شك قبيح ، خاصة وأن هذا الهجاء في قوم أقل ما يقال فيهم أنهم أكرم على الله وعلى الناس من بني أمية .

ومن الهجاء الجزل الذي جعله الجاحظ شعراً يدخل في باب الخطابة قول

---

(١) المصدر السابق ٣٠٥ .

* بعيدات بين يعني بعد حين ، الأضاميم الجماعات مفردها إضمامة ، أصفقوا لهم جاءوا من الطعام بما يشبعهم ، ليس يخلق ليس يبلى .

أبي العباس في هجائه هذا الذي هو كالسم وأضرى : [1]

إذَا وَصَفَ الإسلامَ أَحْسَنَ وصْفَهُ بفِيــهِ ويـأْبــى قلبُــهُ ويُهَاجِرْهْ

وإنْ قامَ قال الحقَّ ما دام قائماً تقيَّ اللسانِ كافــرٌ بعدُ سائرُهْ

(٢)

مدائحــه :

ولأبي العباس الأعمى في بني أمية مدائح كثيرة ، وعلى كثرة من مدحوا بني أمية فإن أبا العباس فيهم صاحب القول الأروع والأبدع ، ذلك أنه كان يحبهم للحب وليس للرفد ، وهو واحد من القلائل من الشعراء الذين رثوهم بعد سقوطهم .

إن الخلاف يمزق الدولة الأموية ، ومروان بن محمد يجلس على عرش شديد الاهتزام محطوم القوائم في دمشق وتتساقط أجزاء الدولة صقعاً بعد صقع كما تتساقط أحجار البناء المتداعي فيستتر محبو بني أمية ويستخفون ، ولكن هذا الضرير المعوق يضرب في أكناف الأرض غاذاً المسير إلى الشام ليرثي بني أمية لآخر ملوك بني أمية ، ويلقى الضرير في طريقه مصادفة إنساناً يستعد لوراثة جاه بني أمية ويتشوق لعرش مروان ، إنه أبو جعفر المنصور ، ويسأل الرجل الأعمى عن وجهته ومقصده فيذكر له مقصده وينشده هذه الأبيات التي تعتبر من نفائس النفس العربية الشاعرة [2] :

ليــتَ شعرِي أَفاحَ رائحةُ المِسْـ ـكِ وما إنْ إخالُ بالخَيْفِ إنْسِي

حين غابتْ بنــو أُميَّــةَ عنْــهُ والبهاليلُ مِنْ بني عبدِ شَمْسِ

---

(١) البيان والتبيين ١/٢١٨ .

(٢) الأغاني ١٦ /٢٩٩ ، ٣٠٠ وزهر الآداب ١/٣١٣ .

خطبـــاءٌ عـــلى المنابـــرِ فُـــرْسـا ... نٌ عليها وَقَالةٌ غيـــرُ خُـــرْسِ

لا يُعابـــون صامتِيـــنَ وإنْ قـــا ... لوا أَصابُوا ولـــم يقولوا بِلَبْسِ

بحلـــومٍ إذا الحلـــومُ تَقَضَّـــتْ ... ووجودٍ مثـــلِ الدنانيـــرِ مُلْسِ

إن هذه الأبيات بمبناها ووزنها وقافيتها ورويّهاقد أصبحت انموذجاً فيما بعد للشعر الذي ترثى به الأمم ،فعلى منوالها نسج الشاعر الأموي الأمير المخضرم ابو عدى العبلي وعلى منوالها أيضاً نسج الشاعر الأمير الأموي المخضرم آدم بن عبد العزيز حين وقف على إيوان كسرى ، وعلى نفس المنوال نسج البحتري سينيته الطويلة النفيسة في الإيوان ، إن القافية والرويّ لا يوحيان ولكن المعاني بأعماقها وآثارها في النفوس هي التي توحي ، ولقد أوحت هذه الأبيات دون شك إلى كل من آدم والبحتري .

ويتم سقوط دولة بني أمية وتقوم دولة بني العباس ويتولى «خليفة» ثم يقضي ويليه «خليفة» ثان ، ولم يكن هذا الخليفة الثاني إلا أبا جعفر المنصور الذي صحب أبا العباس في الطريق إلى الشام وسمع منه أبياته النفيسة التعيسة ، ويظل أبو العباس على حبه للقوم وولائه لذكراهم ، ويذهب الملك العباس المنصور إلى الحج ويقع بصره في مكة – مقر سكنى الشاعر الأعمى– عليه فيطلب إلى من كان معه من المصاحبين أن يتفرقوا ، ويقترب من أبي العباس ثم يحدثه ويقول له : أنا رفيقك وأنت تريد الشام أيام مروان ، فيجيبه أبو العباس بأنّة فيها حزن وألم ثم ينشد على الفور :

آمتْ نساءُ بـــني أُميَّـــةَ منهُـــمُ ... وبناتُهُـــمْ بمضِيعَـــةٍ أَيْتَـــامُ

نامتْ جدودهمُ وأُسْقِطَ نجمُهُمّ ... والنَّجْمُ يَسْقُـــطُ والجدودُ تنامُ

خلَـــتِ المنابـــرُ والأَسرَّةُ منهـــمُ ... فَعَلَيْهِـــمُ حـــتَّى الممـــاتِ سلامُ

فيسأله المنصور : كم كان مروان أعطاك بأبي أنت ؟ فيقول : أغناني

أن أسأل أحداً بعده [1] .

إن السائب بن فروخ أو بعبارة أخرى أبا العباس الأعمى من حيث شعره أسلوباً وإنشاء ينتمي إلى مدرسة الجزالة المحافظة في مجموعة المخضرمين التي تتصل أسبابها بأسباب الفحولة الشعرية الأموية ، وأما من حيث شعره ميداناً وموضوعاً ، فهو في هجائه أيضاً من المدرسة المحافظة ، ولكنه في بكائه على بني أمية قد وضع دون أن يقصد لبنة كبيرة في موضوع هام من موضوعات الشعر العربي هو رثاء الدول الزائلة الدارسة وبخاصة في أبياته السينية،ولو قد وصلت إلينا القصيدة كاملة إذن لنفذنا من خلالها إلى المعاني التي طرقها بحيث نحدّد له المكان الصحيح في مراحل شعر المخضرمين ، ومن ثم فهو أقرب إلى شعراء المرحلة الأولى من المخضرمين منه إلى شعراء المرحلة الثانية الذين يبدو جانب التجديد عندهم واضحاً وسمات التطور ملموسة ، وإن لم تكن كاملة الأسباب موفورة العلامات .

---

(١) الأغاني ١٠/٣٠٠ .

ابن ميّادة ٠٠٠ ـ ١٣٦ هـ.

(١)

هل هو شعوبي ؟ :

إن الرَّمَّاح بن أبرد بن ثوبان المعروف بابن ميادة واحد من أجود الشعراء المخضرمين بين الأموية والعباسية قدرة على قول الشعر الرصين وخلق الصور والانتقال بين الموضوعات في سهولة ويسر لا يخفيان على القارىء الواعي أو الدارس المستأني ، وهو أيضاً واحد من الشعراء الذين عرفوا بأمهم فنسبوا إليها على غير العادة المألوفة عند العرب حين ينسب المرء إلى أبيه .

ولابن ميادة نَفَسٌ في الشعر عميق وليس من شك في أن الوراثة قد شكلت عنصراً في هذه الموهبة ، وإذا كان أبوه خامل الذكر في هذا الميدان فإن له عمين شاعرين هما العوثبان وقريض ابني ثوبان، كما أن جدته لأبيه هي سلمى بنت كعب بن زهير بن أبي سلمى التي هي بطبيعة الحال أم للعوثبان وقريض وإن كان ابن ميادة لم يأبه كثيراً لهذه اللحمة الفنية، فلقد هاجى خاله عقبة بن كعب بن زهير أكثر من مرة وجرت بينهما ملاحاة[1] على طريقة النقائض

(١) الأغاني ٢/٢٦٨ .

التي جدد ابن ميادة شبابها وبعثها إلى حلبة الشعر من جديد بعد أن كادت تندثر بموت أبطالها جزير والأخطل والفرزدق والبعيث ومن إليهم .

وابن ميادة عربي أصيل من غطفان التي أنجبت النابغة والشماخ وقد مر بنا عند الحديث عن الشماخ قول الحطيئة : أبلغوا عني الشماخ أنه أشعر غطفان، وهو يقصد بذلك فضلا عن إعجابه بالشماخ أن ينال من مكانة النابغة ، فلما ظهر ابن ميادة بدأ الغطفانيون ينسون الشماخ والنابغة ويقولون : الرماح أشعر غطفان في الجاهلية والاسلام وكان خيراً لقومه من النابغة لأنه لم يمدح غير قريش ، وتذهب بنو ذبيان إلى أنه آخر الشعراء[1] .

فابن ميادة عربي صحيح النسب صادق في ولائه لعروبته وليس شعوبياً ولا في أدبه مسحة من شعوبية كما استنتج بعض الدارسين من قوله :

أَنَا ابنُ أَبي سَلْمَى وجدِّي ظالمٌ ... وأُمِّي حَصَـانُ حَصَّنَتْها الأَعاجمُ
أَلَيْس غلامٌ بَيْن كِسْرَى وظالمٍ ... بـأَكْرَمَ مَنْ نِيطَتْ عليهِ التَّمائمُ

فابن ميادة يزعم أن أمه فارسية ومن ثم فقد جعل من فارسيتها مفخرة له ، الأمر الذي يوهم لأول نظرة أن بالشاعر مسحة من شعوبية إن لم تكن الشعوبية بعينها ، والرأي عندنا لا يصل بابن ميادة إلى حد الشعوبية ، ولكن الرجل وقد كانت أمه جارية مشتراة بالمال ولدته في ظروف غير كريمة ، رأى أن ينتحل لها نسباً ، فلما كان انتحال العروبة نسباً لها أمراً مستحيلا لأنها جارية مشتراة ، ولأنها كانت من بنات الصقلب ، وبالتالي فإن السمات العربية بعيدة عن أن تنطبق عليها ، فقد هدى الشاعر تصوره إلى أن يلحقها بالفرس ، ثم يؤكد المعنى الذي تصوره فيفتخر بذلك غير مستهدف الفخر بالفارسية في حد ذاتها، وإنما كان ذلك تغطية لسوءة وفراراً من نقيصة تلحق به ، ولأن تكون أمه فارسية خيراً – من وجهة نظره على الأقل– من أن تكون صقلبية أو مجهولة

(١) المصدر السابق ٢٦٩ .

الجنس والنسب . ومن يقرأ بقية أبيات ابن ميادة في نفس القصيدة يلمس صدق عروبته وابتعاده كل الابتعاد عن الشعوبية ، إذ هو يقول :

لَو انَّ جميعَ الناسِ كانوا بِتَلْعَةٍ ... وجئتُ بجدِّي ظالمٍ وابن ظالمِ
لظلَّتْ رقابُ الناسِ خاضعةً لهُ ... سُجُوداً على أقدامِنا بالجماجِمِ[1]

ومن الطريف أن الفرزدق كان بين جمهور المستمعين إلى ابن ميادة وهو ينشد هذه القصيدة في الموسم ، فلما وصل ابن ميادة إلى البيتين السابقين ، كشف الفرزدق عن وجهه وقال له : كذبت ، أنا أولى منك بهذا ، ووضع الفرزدق كلمتي دارم وابن دارم مكان كلمتي ظالم وابن ظالم ، ونسب البيتين لنفسه فأصبحا يقرآن هكذا : [2]

لَو انَّ جميعَ الناسِ كانوا بتَلْعَةٍ[3] ... وجِئْتُ بجدِّي دارِمٍ وابنِ دارمِ
لَظَلَّتْ رقابُ الناسِ خاضعةً لهُ ... سجوداً على أقدامِنا بالجماجم

وابن ميادة يفخر بقومه وعروبته حين يقول : [4]

سَقَتْنِي سُقَاةُ المجدِ من آلِ ظالمٍ ... بِأَرْشِيَةٍ [5] أطرافُها في الكواكبِ

وابن ميادة لا يفخر بصدق عروبته وقبيلته وحسب ، وإنما هو يفخر بقومه حتى على قريش صاحبة المقام الأسمى بين القبائل في الإسلام ، ولكنه في فخره على قريش يتحرز ديناً ، ويحترس سياسة فيقول :

فَضَلْنَا قُرَيْشاً غيرَ رَهْطِ محمدٍ ... وغيرَ بنِي مرْوَانَ أَهْلِ القبائلِ

---

(١) خزانة البغدادي ١/١٦٠ ، ١٦١ والأغاني ٢/٢٦٧ .
(٢) المصدران السابقان
(٣) التلعة ما ارتفع من الأرض وأشرف أو ما هبط منها وانحدر ، فهي من الأضداد .
(٤) الشعر والشعراء ٧٧١ .
(٥) الأرشية مفردها رشاء وهو حبل الدلو .

فلما سمع البيت الوليد بن يزيد ، وكان الشاعر مقرباً إليه نائلا من رفده قال : قدّمت آل محمد علينا ! فأجابه ابن ميادة : ما كنت يا أمير المؤمنين أظنه غير ذلك [1]

ولا شك أن استثناء الشاعر آل محمد من نطاق من افتخر عليهم من قريش وتقديمهم على آل مروان في الاستثناء والإصرار على ذلك في مواجهة الملك المرواني يدل دلالة واضحة على أن ابن ميادة رغم شطحاته الشعرية ، وإيغاله في الهجاء والطرب له والسعي إليه، كان ذا عفة ودين ، الأمر الذي يجعلنا – في سرعة وفي منطق – نربطه بجبل جرير وننشىء بين مدرستيهما وشيجة موصولة الأسباب ، بل لعله من العدل والمنطق أن نجعل شعر ابن ميادة امتداداً لمدرسة جرير وأن نجعل سلوك ابن ميادة امتداداً لسلوك شخص جرير .

إن هناك تطابقاً غريباً بين كل من جرير وابن ميادة ، فجرير صاحب غزل عف رقيق وابن ميادة صاحب غزل عف رقيق ، وجرير مداح لبني أمية، وفي مدائحه إشراق وترفع عن الاسفاف والتهافت، وابن ميادة مداح لبني أمية وبعض بني العباس فقد كان في أيام هشام وبقي إلى أيام المنصور وهو في مدحه بعيد كل البعد عن التزلف الرخيص ، حتى إنه لما لم يجد سعة صدر لدى المنصور لتقبل مدائحه أقلع عن مدحه ومدح غيره ، في الوقت الذي كان المنصور فيه يحترم ابن ميادة ، ويقدر له إجابته الوليد بن يزيد حين قال له الوليد : قدمت آل محمد علينا ، فأجابه : ما كنت يا أمير المؤمنين أظنه غير ذلك ، وجرير أوغل في قول النقائض وخرج فيها على طبيعته الأصيلة العَفّة ، فعمد إلى ذكر العورات وفاضح القول ، وكذلك فعل ابن ميادة ، مع فارق واحد هو أن جريراً دخل معركة النقائض كرهاً ، وأما ابن ميادة فقد كانت طبيعته الهجائية تدفعه إلى خوضها طائعاً مختاراً ، وجرير سمح الأسلوب سهل المأخذ لين الشاعرية بعيد عن التعسف في رصف الألفاظ واهتصار المعاني حتى

---

(١) الخزانة ١٦١/١ .

وصفه ابن الأخطل بأنه يغرف من بحر ، وكذلك كان ابن ميادة أبعد ما يكون عن الاعتساف والتصنّع ، بل كان يترك نفسه على سجيتها وهي تقول الشعر إلى الحد الذي جعل بعض ناقديه يأخذون عليه عدم الاعتناء بشعره ، ويذكرون أنه لذلك كثير السقط ، فكان يجيبهم بقوله : [1] إنما الشعر كنبل في جفيرك ترمي به الغرض ، فطالع وواقع وعاصد وقاصد * إن هذه الجملة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الشعر كان يصدر عن ابن ميادة سهلا مطواعاً بعيداً عن التصنع والتقعّر ، وإذن فهو على حد التعبير الذي وصف به شعر جرير يغرف من بحر في سهولة وبغير تعسف ولا تصنع ، وجرير متدين ذو عفة في سلوكه وغزله يذهب إلى الحج ويطوف بالبيت ، وكذلك كان ابن ميادة إلى حد بعيد فيه عفة في سلوكه وفي غزله ، وإذا كان ثمة فرق بين الشخصيتين فهو أن جريراً لم يكن حسن الطلعة ولم يكن يهتم بمظهره وليس كذلك كان ابن ميادة ، فقد كان ابن ميادة أنيقاً في ملبسه ، عطراً ، عظيم الخلق طويل اللحية حسن القوام أحمر الوجه ، لم يكن هناك رجل أطيب عَرْفاً منه [2] .

وإذا كان لنا أن ندلف إلى شعر ابن ميادة فليكن مدخلنا إليه من خلال النهج الذي أسلفنا والذي ربطناه من خلاله بجرير ، بحيث جعلنا منه تلميذاً له في قضاياه الشعرية الكبرى وفي أسلوبه العذب الرخيّ .

(٢)

رقة غزله وطهارته :

وغزل ابن ميادة يتسم بالرقة الآسرة والسلاسة المريحة والعفة الظاهرة الواضحة التي يعمد إليها عمداً ، وهو إلى جانب ذلك يبهر السامع بموسيقى منسابة في

---

(١) الأغاني ٢/٢٦٩ .

* الجفير ما توضع فيه السهام ، والعاصد الملتوي الذي لا يصيب الهدف .

(٢) الأغاني ٢/٢٦٨ .

حواشي غزله ، الأمر الذي يجعله يتابعه في غير ما ضجر ولا ضيق بعكس الحال عند بعض من اصطنع الغزل من الشعراء الفحول ولم يكن لقول الغزل أهلا ، يقول ابن ميادة هذه الأبيات الغزلية التي يعمد فيها إلى إظهار العفة والتحشم بالقدر الذي استطاعه من وجهة نظره على الأقل :

وما نِلْتُ منها مَحْرَماً غيـر أنني ... أُقَبِّـلُ بَسَّامـاً من الثَّغْر أَفْلَجَا

وأَلْثُـمُ فَاهَـا تارةً بعـد تـارةٍ ... وأَتْرُكُ حاجاتِ النفوسِ تحرُّجَا

وإني على سَوْطِ الهوى ذو تجلُّدٍ ... أُصابِرُهُ ما لمْ أَجدْ عنهُ مَخْرجَا

ولاَ عَيْشَ إلاَ أَنْ تبيتَ مُلَهْوَجـاً ... على نارِ مَنْ تَهْوَى وتُصْبِحَ مُنْضَجَا

ويعزف ابن ميادة في غزله على قيثارة جرير سحر قول وحسن مأخذ ورقة حاشية في قوله [1] :

كأَن فؤادي في يـدٍ ضَبُثَتْ به ... مُحَاذَرَةً أَنْ يقْضِبَ الحبْلَ قاضِبُه

وأُشفِقُ من وشْكِ الفِـراق وإنني ... أَظُنُّ لمحمـولٌ عليـه فراكبُهْ

فواللهِ ما أَدري أيغلبني الهـوى ... إذا جَدَّ جِدُّ البيْنِ أَم أَنا غالبُهْ

فإنْ أَسْتَطعْ أَغْلِبْ وإنْ يغْلِبِ الهَوى ... فمثْلُ الذي لاقَيْتُ يُغْلَبُ صاحبُهْ

وابن ميادة متحرز دائماً حتى في مقام الفحش ، إنه يهرب من فاحشة القول إذا دفعت به الظروف إليها ، ويعمد إلى القول الناعم العف الرطيب ، لقد كان هجا بني حُميس بن عامر رجالا ونساء ، وذكر نساءهن بصفات لا ترضى عنها المرأة، ثم حدث أن خر يبغي إبلا ضلت منه حتى ورد ماء

---

(١) نور القبس ص ٢١٣ .

(٢) حماسة أبي تمام (المرزوقي) ١٣٣٣/٣ حماسية رقم ٥٣٤ .

لحُمَيْس فقصد بيتاً يسأل عجوزاً فيه عن إبله فاستمهلته وقد عرفته حتى تقدم له شيئاً من القرى ، وفي تلك الأثناء أدخلت عليه فتاة جميلة عليها إزار أحمر ، ثم ما لبثت أن تجردت منه تماماً، ثم قالت العجوز :« انظر يا ابن ميادة الزا ...! هل نساءنا كما نَعَتّ ؟» أي كما وصفتهن بما لا نرضى عنه ؟ فاعتذر لها ابن ميادة وانصرف يقول شعراً في الفتاة الجميلة التي واجهته متجردة تماماً ولم يتضمن غزله فيها لفظة واحدة في فحش قول أو انحراف عن الجادة في مقام قد يجد فيه غيره تعلّة إذا ما فحش أو تبريراً إذا ما ندّ عن نهج الصواب ، ولكن ابن ميادة يقول هذه الأبيات التي تفيض رقة وسحراً وعفة وجمالا : (١)

نظرْنَا فهاجتْنَا على الشوقِ والهوَى ... لزينبَ نارٌ أُوقِدتْ بِجُبَارِ
كأَنَّ سَنَاها لاحَ لي من خَصَاصَةٍ ... على غيْرِ قصْدٍ والمَطيُّ سوارِي
حُمَيْسِيَّةٌ بالرملتيـن مَحَلُّهـا ... تَمُـتُّ بحِلْـفٍ بَيْنَنَـا وجِـوَارِ

وفيها يقول :

كأَنَّـا نراهـا وهي منَّا قريبـةٌ ... على متْنِ عَصْمَاءِ اليديْنِ نَوَارِ
....كأَنَّ على المتْنَيْن مِنْها وَدِيَّةً ... سقتْها السَّواقِي مـن وَدِيٍّ دَوَار
وما روضةٌ خضراءُ يَضْرِبُها النَّدى ... بها قُنَّةٌ مـن حَنْوةٍ وعَـرَارِ
بأَطْيَبَ من رِيحِ القرنفل ساطِعاً ... بمـا التَفَّ مـن درع لها وخمَارِ
وما ظبْيَةٌ ساقَتْ لها الريحُ بَغْمةً ... على غَفْلةٍ فاسْتَسْمعتْ لخُـوارِ
بأَحْسَنَ منها يومَ قامتْ فأَتْلَعَتْ ... على شَرَكٍ مـن رَوْعَـةٍ ونِفـارِ

---

(١) الأغاني ٢/٣١٦ ، ٣١٧ .

فليتكِ يا حسناءُ يا ابنةَ مالـكٍ يَبِيعُ لنا فيكِ المودَّةَ شارِ *

وقال ابن ميادة في جارية كان يحبها ويتردد عليها :

يُمَنُّونَنِـي منـكِ اللقـاءَ وإنني لأَعلمُ لا أَلقاكِ مِنْ دونِ قابلِ
إلى ذاكَ ما حارتْ أُمورُكَ وانجلتْ غَيَايَةُ حُبَّيْكِ انجـلاءَ المخايِلِ
إذا حلَّ أَهلي بالجِنابِ وأَهلُهـا بحيثُ التقَى الغُلاَّنِ مِنْ ذِي أَرَائِلِ
أَقُلْ خُلَّـةٌ بانَتْ وأَدْبَرَ وصْلُها تَقَطَّعَ منهـا باقيـاتُ الحبائِلِ
وحالتْ شهورُ الصيْفِ بيني وبينها ورفْعُ الأَعادِي كلَّ حقٍّ وباطلِ
أَقـولُ لعَـذَّالِـيَّ لمـا تقابـلا عليَّ بطعنٍ مثلِ طعنِ المعابِلِ
فـلا تُكْثِرا عنها السؤالَ فإنهـا مُصَلْصِلَةٌ من بَعْضِ تلْكَ الصلاصِلِ
من الصُّفْرِ لا وَرْهاءُ سمْجٌ دلالُها وليستْ من السُّودِ القصارِ الحوائِلِ
ولكنها رَيْحَانَـةٌ طـابَ نَشْرُهَا وردْتُ عليها بالضُّحى والأَصائِلِ* *

ومن الطريف أن هذه الجارية كانت تحفظ شعر ابن ميادة وتنشره وقد قال له سيار بن ظالم لما رأى جمالها وفتنتها : فما لك يا أبا الشرحبيل — وكانت

---

* العصماء ما يكون في ذراعها بياض من الظباء والوعول . الودية واحدة الودي وهو فسيل النخل وصغاره ، وهي هنا كناية عن الضفائر من الشعر ، النوار النفور ، القنة الجبل الصغير ، الحنوة بهار أصفر طيب الرائحة ، البغمة من بغمت الظبية والبقرة والناقة أي صوتت . أتلعت مدت عنقها متطاولة .

** الغياية كل ما أظلك من سحاب أو غبار ، المخايل جمع مخيلة وهي السحابة التي إذا رأيتها حسبتها مطيرة . الجناب بكسر الجيم أرض لغطفان ، الغلان منابت الطلح . مصلصلة مصوته ، الصلاصل مفردها صلصل وهو طير الفاخته وقيل هو الحمامة . ورهاء خرقاء بالعمل من الوره وهو الحمق ، السمج الذي لا ملاحة فيه ، الحوائل جمع حائلة وهي المتغيرة اللون .

هذه كنيته – لا تشتريها ؟ أجاب : إذن يفسد حبها [1]

على أن حبه الكبير كان لفتاة مريّة اسمها أم جحدر بنت حسان ، تعلق بها تعلقاً شديداً وأبى أبوها أن يزوجها بنجد حيث مرابع أهله ومرابع ابن ميادة وزوّجها لرجل بالشام ، فاهتاجت شاعرية ابن ميادة اهتياج الشعراء العاشقين من قبله ، وقال فيها شعراً ينهج فيه نهج العذريين من أمثال جميل والقيسين .

لقد كان ابن ميادة عفاً كما قلنا ، وكان في نفس الوقت متديناً يؤدي الشعائر . قال يوماً : إني لأعلم أقصر يوم مرّ بي من الدهر ، فقيل له : وأي يوم هو يا أبا الشرحبيل ، قال يوم جئت فيه أم جحدر باكراً فجلست بفناء بيتها فدعت لي بعُسّ من لبن – قدح ضخم – فأُتيتُ به وهي تحدثني ، فوضعته على يدي وكرهتُ أن أقطع حديثها إن شربْت ، فما زال القدح على راحتي وأنا أنظر إليها حتى فاتتني صلاة الظهر وما شربت[2] .

يقول ابن ميادة في أم جحدر حين تزوجت وخرج بها زوجها إلى الشام قصيدة نشم فيها رائحة جميل أو قيس بني عامر :

ألا حَيِّيا رسماً بذي العُشِّ مقفراً ... ورَبْعاً بذي المَدُورِ مستَعْجِماً قَفْرَا

فأَعْجَبُ دارٍ دارُهـا غيْرَ أنَّـني ... إذَا ما أَتيْتُ الدارَ تُرجِعُني صِفْرَا

عشيَّةَ أَثْنِي بالرداءِ عـلى الحَشَى ... كأَنَّ الحشَى من دونِه أُسْعِرتْ جَمْرَا

يميل بنا شَحْطُ النَّوى ثم نلتَقِـي ... عِدادَ الثريَّا صادفَتْ ليلةً بَدْرَا

وبالغَمْرِ قد جازَتْ وجازَ مطيُّهـا ... فأَسْقَي الغوادي بطنَ نَيَّانَ فالغَمْرا

خلِيلَيَّ مِنْ غَيْظِ بْنِ مُرَّةَ بَلِّغَـا ... رَسَائِلَ منِّي لا تَزِيدُكما وَقْرَا

---

(١) الأغاني ٢/٢٨١ .

(٢) الأغاني ٢/٢٧٩ .

أَلا ليتَ شعري هلْ إلى أم جَحْدَرٍ سبيلٌ ؟فأَمَّا الصبرُ عنها فلا صبرَا
فإنْ يك نَذْراً راجعاً أَمَّ جَحْـدَرٍ عليَّ لقد أَوْذَمْتُ في عُنُقِي نَذْرَا
وإني لأَسْتَنْشِي الحديثَ من أجلها لأَسْمَعَ منها وَهْي نازحةٌ ذِكْرَا
وإني لأَسْتَحْيي من اللهِ أن أُرَى إذا غَدَرَ الخلاَّنُ أَنْوِي لها غدْرَا *

لقد رويت هذه القصيدة روايات عدة ولكنها لا تختلف في أبياتها كثيراً عن هذا النص الذي أوردنا ، وهي كما نرى مليئة بأسباب الصبابة ، مفعمة بحرارة العشق الذي نحس فيه الصدق والحسرة ولكن في عفة وتحرز .

وكان ابن ميادة يعمد في حبه أم جحدر إلى رياضة نفسه على الصبر وطلب السلوى كما كان يفعل سابقوه من الشعراء العاشقين ، فمن ذلك قوله :

أَجارَتَنَـا إنَّ الخطـوبَ تنُـوبُ علينَا وبَعْضَ الآمنين تُصِيبُ
أَجارتَنَا لَسْتُ الغَـدَاةَ بِبـارحٍ ولكنْ مقيمٌ ما أَقام عَسِيـبُ
فإنْ تسأَليني هلْ صبرْت فإنني صبورٌ على رَيْبِ الزمانِ صَلِيبُ
جَرَى بانْبِتَاتِ الحبلِ من أُمِّ جحدرٍ ظباءٌ وطيرٌ بالفِـراقِ نَعُـوبُ
نظرْتُ فلَمْ أَعْتَفْ وعافتْ فبَيَّنَتْ لها الطيرُ قَبْلِي واللبيبُ لبيبُ
فقالتْ حرامٌ أَن نُرَى بعدَ هـذه جَمِيعيْـنِ إلاَّ أن يُلِـمَّ غريبُ
أَجارتَنَا صبـراً فيـا ربَّ هالكٍ تَقَطَّعُ مـن وجْدٍ عليه قُلُـوبُ

قال ابن ميادة هذه الأبيات ترجمة عن نعوب غراب عند لقاء له بأم

* ذو العش من أودية العقيق بنواحي المدينة ، المحدور موضع في ديار غطفان . عداد الثريا صادفت بدرا أي مرة واحدة في السنة ، الغمر ونيان موضعان ببادية الشام قرب تيماء ، أوذمت أوجبت .

جحدر فتشاءمت وقالت له : أرى الغراب يخبرني أننا لا نجتمع بعد هذا اليوم إلا ببلد غير هذا البلد[1] .

ومجمل القول في غزل ابن ميادة انه رسم على منوال العاشقين من العذريين قولا وسلوكاً ، وأنه عمد إلى أسلوب يجمع بين مدرسة جرير ومدرسة جميل .

(٣)

مدائحـــه :

وابن ميادة شاعر من شعراء المديح على ما ألمحنا ، ولم يعمد في مدائحه التي وصلت إلينا الى انتهاج المعاني السياسية كما فعل غيره من شعراء المديح الذين مدح بعضهم بني أمية فلما جاء بنو العباس تحولوا إلى مدحهم ، أو كمثل هؤلاء الذين ظلوا على ولائهم لهؤلاء أو أولئك من ملوك الدولتين . لقد كان ابن ميادة متماسكاً من هذه الناحية .

لقد مدح ابن ميادة الوليد بن يزيد وعبد الواحد بن سليمان من الأمويين ، والمنصور وجعفر بن سليمان من العباسيين [2] . أما الوليد فكان يقربه إليه ويوسع عليه في المنح والعطاء ، وإن مدائح ابن ميادة في الوليد تعتبر من عيون شعر المديح في الشعر العربي ، وهو ينتهج فيها أسلوب الأقدمين وطريقتهم من وقوف على أطلال دار الحبيبة والتشبيب بها ثم الرحلة إلى الممدوح على ظهور الإبل عبر الصحراء حتى يصل إلى ممدوحه .

إن ابن ميادة يمدح الوليد بن يزيد بقصيدة عذبة مطلعها[3] :

---

(١) الأغاني ٢/٢٧٣ – ٢٧٥ .
(٢) الخزانة ١/١٦٠ .
(٣) الأغاني ٢/٣٠٤ – ٣٠٦ .

هل تعرفُ الدارَ بالعلياءِ غيَّرهـا سافِي الرياحِ ومُسْتَنٌّ له طُنُبُ

يشبه في بعض أبياتها حبيبته بالظبية ومن ثم يصفها وصفاً جميلا يذكرنا ببعض روائع عدي بن الرقاع فيها حين يقول :

دارٌ لبيضـاءَ مسودٌ مسائِحُهـا كأنها ظبيةٌ تَرْعَى وتَنْتَصِبُ
تحنُو لأَكْحَلَ أَلْقَتْـهُ بِمَضْيَعَةٍ فَقَلْبُها شفَقـاً مـن حولِهِ يَجِبُ

وهي صورة جميلة بارعة لظبية ترعى وقد توجست خيفة على ابنها الصغير الذي ضاع منها فظل قلبها يخفق شفقة عليه ، والصورة رغم بساطتها أصيلة ساعد على أصالتها أن ابن ميادة يعيش في نجد ، فليس بغريب عليه رؤية الظباء والغزلان وهو مقيم أو مرتحل .

ومن صور الغزل التي يأتي بها ابن ميادة في مديحته للوليد قوله : -

يا أَطيبَ الناسِ ريقاً بعد هجْعَتِها وأَملحَ الناسِ عيناً حين تَنْتَقِبُ
ليستْ تجودُ بنيْلٍ حين أَسْأَلُها ولستُ عند خلاءِ اللهوِ أَغتصِبُ
في مِرْفَقَيْها إِذَا ما عُونِقَتْ جَمَمٌ على الضَّجِيعِ وفي أَنيابِها شنَبُ

ويصف ابن ميادة رحلته إلى ممدوحه ويجعل منها رحلة شاقة على ناقة سريعة حتى يستحق جزيل العطاء فيقول :

وليلـةٍ ذاتِ أَهـوالٍ كَوَاكِبُها مثلُ القَناديلِ فيها الزيتُ والعُطُبُ
قد جُبْتُها جَوْبَ ذِي المِقْراضِ مِمطرةٍ إذا استوى مُغْفَلاتُ البيدِ والحَدبُ
بعنتريسٍ كـأَنَّ الدَّبْـرَ يلسَعُها إذا ترنَّمَ حـادٍ خَلْفَها طرِبُ

إلى الوليدِ أَبي العباسِ ما عَجِلتْ ودونَه المُعْطُ من لُبنانَ والكُثُبُ *

ويدخل ابن ميادة إلى صميم المديح الذي وفد من أجله على الوليد في الشام قائلا :

أعطيْتَنِي مائةً صُفْراً مدامعُهـــا كأنها النَّخْلُ روَّى نَبْتَها الشَّرَبُ

لمَّا أَتَيْتُكَ من نَجْـدٍ وساكِنِـهِ
نفحْتَ لي نفحةً طارتْ بها العَرَبُ

إنِّي امرؤٌ أَعْتَفِي الحاجاتِ أَطلُبُها
كما اعْتَفَى شَنِقٌ يُلقَى له العُشُبُ

ولا أُلِحُّ عـلى الخِـلاَّنِ أَسأَلُهُـمْ
كما يُلِـحُّ بِعَظْمِ الغـارِبِ القَتَبُ

ولا أُخَـادِعُ نَدْمـانِي لأَخْذَعَـهُ
عن مالـه حينَ يَسْتَرْخِي به اللَّبَـبُ

وأَنتَ وابْنَاكَ لم يُوجَدْ لكمْ مثلٌ
ثلاثـةٌ كلُّهـمْ بالتـاجِ مُعْتَصِـبُ

الطيِّبُـونَ إذا طابَـتْ نفوسُهُـم
شُوسُ الحواجِبِ والأَبصار إن غَضِبُوا **

---

* المسَن من المطر المنصب . المسائح ما بين الأذن إلى الحاجب من الشعر . يجب القلب يخفق ويضطرب . الجمم كثرة اللحم ، العطب القطن والمراد ذبالة المصباح التي تتخذ من القطن . الحدب الغليظ من الأرض . العنتريس الناقة الغليظة ، الدبر الزنابير أو النحل . المعط بضم الميم وسكون العين جمع معطاء وهي الأرض لا نبات فيها .

** أعتفى أطلب ، الشنق الذي شبع حتى بشم . الندمان المنادم على الشراب وربما توسع في المعنى فصار بمعنى الصديق أو الرفيق ، اللبب البال يقال فلان في بال رخي ولبب رخي . شوس جمع أشوس من الشوس بفتح الواو وهو النظر بمؤخر العين كبرا وتغيظا .

فابن ميادة حين يمدح يعمد إلى الأسلوب الجزل والبحور الطويلة وينسج على منوال الشعراء السابقين له ولا يقصر عنهم ، وإنما يلحق بجيدهم قدر استطاعته ، وليس من شك في أن هذه القصيدة لم تكن أول قصيدة مدح بها ابن ميادة الوليد بن يزيد ، فقد كان ابن ميادة يقيم عند الوليد أياماً طويلة لا يلبث أثناءها أن يحن إلى وطنه في الحجاز فيقول في ذلك شعراً من أرق ما قيل في الحنين إلى الوطن ، مثال ذلك هذه الأبيات الرقيقة العذبة : (١)

أَلا ليتَ شِعرِي هلْ أَبيتنَّ ليلـةً
بِحَرَّةِ لَيْلَـى حيثُ رَبَّتْنِي أَهْلِـي

بلادٌ بهـا نِيطَتْ عـليَّ تَمائِمـي
وقُطِّعْنَ عنِّي حين أَدْرَكِنِي عقـلي

وهلْ أَسْمَعَنَّ الدهر أَصواتَ هَجْمَةٍ
تَطَالَـعُ من هَجْلٍ خَصِيبِ إلى هَجْلِ

فإنْ كنتَ عن تلكَ المواطِنِ حابِسِي
فأَفْشِ علَيَّ الرِّزْقَ واجمعْ إذنْ شَمْلِي*

ويسمع الوليد هذه الأبيات فيقول : يا ابن ميادة ، كم الهجمة ؟ فيقول : مائة ، فيقول يزيد : قد صدرْتَ بها كلها عشراء ، ويخلع عليه كساوي أخرى كثيرة وأموالا له ولأبنائه .

إن هذا الشعر الذي قاله ابن ميادة في مدح الوليد قاله في فتوته وقبل أن يبلغ مبلغ الهرم ، وإذا كان هذا الشعر من القوة وجودة السبك والسيطرة على

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٧٧١ .

* حرة ليلى في ديار بني مرة بن عون من غطفان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة . الهجمة القطعة الضخمة من الإبل، الهجل المطمئن من الأرض .

غوارب المعاني فلم تنفر منه وإنما أخضعها وأسلس قيادها ، فقد ظل الحال معه على هذه الفحولة إلى آخر حياته ، وآية ذلك مـا قاله في مدح المنصور العباسي ، فالمنصور تولى إمرة بني العباس بعد موت أخيه السفاح سنة ١٣٤ هـ وابن ميادة مات سنة ١٣٦ هـ ومعنى ذلك أن ابن ميادة حين مدح المنصور مدحه وهو شيخ ، ومع ذلك فإن شعره في المنصور ينبض بالقوة ويفيض رقة معنى ، وسلاسة أسلوب ، ووفرة موسيقى ونعومة إيقاع ، مع التزامه الجانب التقليدي الذي لم يحد عنه في كل مدائحه .

يقول ابن ميادة من قصيدة طويلة في مدح المنصور العباسي مستهلا أبياته بغزل رقيق : (١)

وكواعبٍ قد قُلْنَ يومَ تواعـدٍ ... قـولَ المجدِّ وهُـنَّ كالمُـزَّاحِ
يا ليْتَنَا في غيْـرِ أمْـرٍ فـادِحٍ ... طلعَتْ علينا العيسُ بالرَّمَّـاحِ
بينَا كذاكَ رأيْنَنِـي مُتَعَصِّبـاً ... بالخَزِّ فوق جُـلالةٍ سُرْدَاحِ
فيهِنَّ صِفْراءُ المعاصِمِ طفلـةٌ ... بيضاءُ مثلُ غريضةِ التُّفَـاحِ
فنظرْنَ من خَلَلِ الحِجَالِ بـأَعْيُنٍ ... مَرْضَى مُخالطُها السَّقامُ صِحَاحِ
وارْتَشْنَ حينَ أَرَدْنَ أَن يَرْمِينَنِي ... نَبْلاً بـلا ريشٍ ولا بِقـداحِ

ومن خلال هذا الغزل الذي تبدو الصنعة فيه ومن ثم فقد خلا من العاطفة التي ألفناها في سابق غزله ، أو لعلها السن المتقدمة ، نقول إنه ينتقل من ذلك إلى مدح المنصور وبني هاشم فيقول :

فلئن بَقِيـتُ لأَلْحَقَـنَّ بـأَبحرٍ ... يَنْمِينَ لا قُطْعٍ ولا أَنْـزَاحِ
ولآتِيَـنَّ بـني عـليٍّ إنَّهُـمْ ... مَنْ يـأْتِهِمْ يُتَلـقَّ بالأَفـلاحِ

(١) الأغاني ٢/٣٢٢ ، ٣٢٣ .

قَوْمٌ إذا جُلِبَ الثناءُ إليْهِمُ بِيعَ الثَّنَاءُ هُنَاك بالأَرْبَاحَ
وَلأَجْلِسَنَّ إلى الخليفةِ إنه رحْبُ الفِناءِ بِواسعٍ بَحْبَاحِ *

ويذكر الاصبهاني أن هذه القصيدة طويلة ، ولكنه لم يأت بغير هذه الأبيات التي لا نستطيع أن نلمس فيها أنفاس ابن ميادة الطويلة وهجومه على المعاني ، ذلك الهجوم الذي ألفناه منه ، وربما لو كانت القصيدة كلها بين أيدينا لاستطعنا أن نجد فيها ما ينال من إعجابنا وما يجعلنا نقف أمامها وقفة أطول .

ومهما كان الأمر فإن ابن ميادة شاعر مداح، ومدائحه التي وصلت إلينا نشم من خلال أبياتها عبير الأصالة وسمات الفحولة ، ولكنه في مديحه لم يجنح إلى استعمال المعاني السياسية ولم يعمد إلى المشاركة في مدح هؤلاء على حساب أولئك ، كما لم يتقرب إلى أولئك بسبب الآخرين أو النيل منهم ، فكان وقوراً في مدحه وقاره في غزله ، وإن كان غزله في مرتبة أعلى بكثير وأسمى بقدر أوفر من مدائحه .

(٤)

هجاؤه ونقائضه :

وإذا كان ابن ميادة قد برع في الغزل وشارك في المديح فإن الجانب الثالث والأشهر من شعره هو الهجاء ، بل ربما قامت شهرته بين الخاصة الذين ألموا بشعره على الهجاء دون غيره من فنون الشعر ، ذلك أن ابن ميادة كان كثيراً ما

---

* الجلالة الناقة العظيمة ، السرداح الناقة الطويلة وقيل الكثيرة اللحم . الطفلة بفتح الطاء الجارية الرقيقة البشرة الناعمة ، الفريضة الطرية . ارتشن نبلا اتخذن لها ريشا . قطع بضم وسكون جمع أقطع وهو الذي انقطع ماؤه ، أنزاح جمع نزح بفتحه ثم فتحة ومع ما نزع أكثر مائة وهو أيضا الماء الكدر .

يتحرش بغيره من الشعراء حتّى يهاجوه فيهاجيهم بحيث شكّل معهم معارك هجائية أقرب ما تكون إلى النقائض التي سبقت زمانه بسنين غير عديدة .

وكان لابن ميادة قابلية غريبة في تقبل الهجاء ، أو كما يقول الأصبهاني : كان عِرِّيضاً للشر ، طالباً مهاجاة الشعراء ومسابّة الناس ، وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول : [1]

اعْرَنْزَمِي مَيَّادَ لِلْقَوَافِي

أي اشتدي وكوني صلبة ، فإني سأهجو الناس فيهجونك ، والأبيات كاملة ، أو بالأحرى ، والمصاريع كاملة هي :

اعْرَنْـزَمِي مَيَّـادَ لِلْقَوَافـي واسْتَسْمِعِيهِـنَّ ولا تَخَافِي .
سَتَجِدِينَ ابْنَكِ ذَا قِذَافِ

ويروي صاحب الأغاني أخباراً تفيد أن ابن ميادة كان يستنشد بعض النساء أهاجي الشعراء فيه وفي أمه في مواجهتها ، فكان يضحك لذلك في الوقت الذي تغضب فيه ميادة وتثور وتهم بضرب المرأة المنشدة .

إن هذه الأخبار تفيد بدون شك أنه كان بالشاعر مسحة من حماقة لعلها لم تصاحبه طويلا ، وإنما لازمته في فترة شبابه الأول حين كان بادى الشعور بمقدرته على القول في مختلف فنون الشعر ومنها التصدي لخلق الله من الشعراء ومهاجاتهم واستثارتهم ، على أن ابن ميادة لم يكن البادىء بالهجاء في كل الأحوال ، فكثيراً ما كان بعض الشعراء يتصيدون له المواقف والأشعار ليتخذوا منها ذريعة لهجائه ، فمن ذلك على سبيل المثال أنه قال أبياتاً جميلة في الفخر بالعرب والعجم على حد سواء حين نسب أمه إلى العجم ، وهي أبيات بليغة مر ذكرها ، والبيت الذي كان موضع الثورة عليه وبالتالي مهاجاته هو قوله :

---

(١) الأغاني ٢/٢٦٣ .

أليس غلامٌ بين كسرى وظالمٍ بأكرم مَنْ نيطَتْ عليه التَّمائمُ

فرد عليه الحكم الخُضْري وهو من كبار الشعراء المعاصرين لابن ميادة قائلا : (١)

وما لكَ فيهمْ من أبٍ ذِي دَسِيعَةٍ ولا ولدتْكَ المُحْصَنَاتُ الكرائمُ

ومَا أَنْتَ إلاَّ عبدَهُم إنْ تُرِبْهُمُ من الدهرِ يوماً تَسْتَرِبْكَ المقاسِمُ

رمى نَهْبلٌ في ... أُمِّك رميةً بحوْقَاءَ تسقِيها العُرُوقُ الثَّواجِمُ *

والواقع أن ابن ميادة قد تهاجى مع عدد كبير من الشعراء وجرت بينه وبينهم نقائض عديدة ، غير أنها لم تتخذ شكل النقائض التي سبقتها والتي خاضها الشعراء الفحول المعروفين ، وإنما كانت نقائض ابن ميادة سواء في ذلك ما قاله أو ما قيل فيه تدور حول الشتم والسب والتحقير والسخرية وخدش الأعراض وهي بعض عناصر نقائض الشعراء الفحول ، وإن كان الغرض الأكثر وضوحاً هناك هو أيام القبائل وتاريخها ومغازيها وثاراتها .

والشعراء الذين ناقضهم ابن ميادة وناقضوه من الكثرة بمكان ، فلقد كان هدفاً لنبلهم ومرمى لسهامهم ، وكان في المعركة وحده لا يشدّ من أزره شاعر آخر وهو مع ذلك يثبت في الميدان ويفحمهم في كثير من الأحيان ، مع أن فيه نقطة ضعف شديدة هي أمه التي لم تكن من الحرائر وكانت جارية صقلبية عاشت في كنف أكثر من رجل ، هذا فضلا عن أن ابن ميادة نفسه خرج إلى الحياة فيما تذكر بعض الروايات خروجاً غير كريم ، ومن ثم فإن تشبيهه بجرير في هذا المقام قد يكون فيه بعض الظلم لابن ميادة لأن جريراً لم يكن فيه من عيب من وجهة نظر مناقضيه إلا انتماؤه إلى بيت فقير من بطون تميم ،

---

(١) الأغاني ٢/٤٦٢ .

* الدسيعة كرم الفعل ، وقيل المائدة الكريمة . نهبل عبد لبني مرة كانت ميادة تزوجته بعد سيدها

وفيما عدا ذلك فلم يكن حوله من النقائص مثل ما كان حول ابن ميادة ، الأمر الذي يزيد من قدر ابن ميادة حين يواجه خصومه محاصراً بكل هذه المعايب ويصمد أمامهم وينتصر على كثير منهم .

وإذا كان لنا أن نعدد بعض من هاجاهم ابن ميادة فإننا نستطيع أن نذكر الحَكَم الخُضْري الذي مر ذكره ومرت بعض أبياته وكان مقدماً في الرجز والقصيد ، ذا قدرة على القول بارعة ، وشعره يضعه في مصاف كبار الشعراء ، بل إنه واحد من خمسة يجعلهم ابن قتيبة ساقة الشعراء وهم ابن هرمة وابن ميادة والحكم الخضري ورؤبة ومكين العذري[1] . وإذن فهو ندّ قوي لابن ميادة ، بل إن الحكم متمرس على الهجاء دريب عليه ، لقد لقي ابن ميادة صخراً الخضري ، فقال له : يا صخر اعنت عليّ ابن عمك الحكم بن معمر ، فقال له صخر : لا والله يا أبا الشرحبيل ما أعنته عليك ، ولكن خيل إليك ما كان يخيل إليّ ، ولقد هاجيته فكنت أظن أن شجر الوادي يعينه علي [2] .

ومن الذين التحموا بابن ميادة شُقران السَّلاماني وكان عبداً سليط اللسان فاحش القول عنيداً في لفظه وشعره ، وكان أكثر لقائهما في ندوة الوليد بن يزيد العابثة ، وفي حمى الوليد كان شقران يكيل لابن ميادة أفحش الألفاظ وأوقح أنواع السباب التي ترفعت عنها نقائض الفحول على كثرة ما تورطوا فيه من نقائض فكان ابن ميادة يستعين بالوليد في دفع أذاه عنه ويقول : يا أمير المؤمنين اكفف عني هذا الذي ليس له أصل فأحفره ولا فرع فأهصره[1] فكان الوليد يضحك ويقول : أشهد أنك قد جرجرت كما قال شقران :

فجاءتْ بخوّار إذا عُضَّ جَرْجَرَا

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٧٥٣ .

(٢) الأغاني ٢/٣٠٢ .

(٣) الأغاني ٢/٣٠٨ .

وهو مصراع لبيت من قصيدة كريهة المعاني والألفاظ قالها شقران في ابن ميادة [1] .

ومن الذين ناقضهم ابن ميادة عقال بن هاشم وسنان بن جابر الحُمَيْسي وعبد الرحمن بن جهم الأسدي .

وإذا كان لنا أن نقدم نماذج لنقائض ابن ميادة مع خصومه من الشعراء فقد يكون في بعض نقائضه مع الحكم وما يفي بالغرض .

يقول حكم بن معمر الخُضْري في ابن ميادة :

خليليَّ عُوجَا حيِّيَا الدارَ بالجُفْرِ
وقُولاَ لها سقْياً لِعَصْرِكِ مِنْ عَصْرِ
وماذا تحيِّي مـن رسومٍ تلاعَبَتْ
بها حَرْجَفٌ تُذْري بأَذْيالها الكدرِ

وفي هذه القصيدة يهاجم الحكم بني مرة قوم ابن ميادة فيهجوهم ويجردهم من المكرمات وينسب إليهم من الأمور ما ينال من مروءتهم وينتقص من طهارتهم فيقول في طائفة من التهم : [2]

فيا مُرَّ قد أَخْزَاكِ في كـلِّ موطنٍ
من اللُّؤْمِ خِـلاَّتٌ يَزِدْنَ على العَشْرِ
فمنهنَّ أَنَّ العَبْـدَ حامِـي ذِمَارِكم
وبئس المحامي العبدُ عن حَوْزَةِ الثغْرِ
ومنهنَّ أَنْ لَـمْ تمْسَحُوا وجْهَ سابقٍ
جوادٍ ولم تـأْتُوا حَصَاناً على طُهْـر

(١) الأبيات في الأغاني ٢/٣٠٧ .
(٢) المصدر السابق ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

ومنهنَّ أَنَّ الميْتَ يُدْفَــنُ مِنْكُــمُ
فيفْسُو عــلى دُفَّانِهِ وهــو في القَبْرِ
ومنهنَّ أَنَّ الجــارَ يَسْكُنُ وسْطَكم
بريئاً فيُلقَــى بالخِيانَةِ والغَــدْرِ
ومنهنَّ أَنْ عُذْتُــم بـأَرْقَطَ كوْدَن
وبئْسَ المحامي أَنتَ يا ضرطةَ الجَفْرِ*
ومنهنَّ أَنَّ الشَّيْخَ يُوجدُ منكــمُ
يَدِبُّ إلى الجاراتِ مُحْدَوْدِبَ الظَّهْرِ

لا شك أن هذه المعاني الكريهة قد صدمت وجداننا ، ولكن هذا شأن النقائض جميعاً ، على أن الحكم لم يغفل مدحه قومه وفخره بهم ، وهي ظاهرة عرفت بها النقائض أيضاً ، لأن النقائض عادة تجمع بين فخر الشاعر بنفسه وقومه وهجاء لخصمه وثلب لمروءته ومروءة قبيله ، ومن ثم فإنا نجد بعض هذه المعاني الفخرية عند الحكم في قوله :

إذا يَبِسَتْ عِيدَانُ قومٍ وجدتَنَــا
وَعِيدَانُنَا تُغْشَى على الوَرَقِ الخُضْرِ
إذَا الناسُ جاءُوا بالقُرومِ أَتَيْتُهمْ
بِقَرْمٍ يُساوِي رأسُهُ غُرَّةَ البــدْرِ
لنا الغورُ والأَنْجَادُ والخَيْلُ والقَنَا
عليكــمْ وأَيَّــامُ المكارِمِ والفَخْــرِ

---

* الكودن البرذون الهجين ، والجفر بفتح ثم سكون ولد الماعز إذا بلغ أربعة شهور وفصل عن أمه .

ولا يكاد ابن ميادة يسمع قول الحكم في قومه حتى يسارع إلى مناقضته بقصيدة يسير فيها على نفس النهج من بحر وقافية وروي وتعديد للنقائض التي رآها في بني محارب رهط الحكم واحدة بواحدة : [1]

لقدْ سَبَقَتْ بالمخزيـــاتِ مُحَارِبٌ ... وفازتْ بِخَلاتٍ على قَوْمِها عَشْر
فمنهنَّ أَنْ لم تَعْقِرُوا ذاتَ ذِرْوَةٍ ... لحقٍّ إذَا ما احْتِيجَ يوماً إلى العَقْرِ
ومنهنَّ أَنْ لم تَسْحُـوا عربيَّةً ... من الخيلِ يوماً تحت جُلٍّ على مُهرِ
ومنهنَّ أن لم تضْرِبُوا بسيوفِكُمْ ... جَمَاجِمَ إلاَّ .... القُرَّحِ الحمْرِ
ومنهنَّ أَنْ كانتْ شيوخُ محاربٍ ... كما قدْ علمتمْ لا تَريشُ ولا تَبْرِي
ومنهنَّ أَخْزَى سوْأةٍ لـو ذَكَرْتُها ... لكُنْتُم عبيداً تخدِمون بَنِي وَبْرِ
ومنهنَّ أنَّ الضـأْنَ كانتْ نساءَكم ... إذَا أَخْضَرَّ أَطرافُ الثُّمامِ من القَطْرِ
ومنهنَّ أَنْ كانتْ عجوزُ محاربٍ ... تريخُ الصِّبا تحتَ الصفيحِ من القَبْرِ
ومنهنَّ أَنْ لوْ كانَ في البحرِ بعْضُكُمْ ... لَخَبَّثَ ضَاحِي جِلْدِهِ حَوْمَةَ البحْرِ

ونقائض ابن ميادة وحكم كثيرة بعضها شعر وبعضها رجز . ومن أطرف هذه النقائض وأحكمها صنعة وأكثرها حشداً لمعاني الهجاء واقتناصاً لها وأقربها شبهاً إلى نقائض الفحول قول ابن ميادة في حكم من قصيدة أولها[2] :

أَلاَ حيِّيَا الأَطلالَ طالتْ سِنِينُها
بحيثُ التَقَتْ رُبْدُ الجناب وعِينُها

يقول فيها :

---

(١) الأغاني ٢/٢٩٩ ، ٣٠٠ .
(٢) المصدر السابق : ٣٠٠ .

فلمَّا أتاني مـا تقـولُ مُحـاربٌ ... تَغَنَّتْ شياطيني وجُنَّ جُنُونُهـا

أَلمْ تَرَ أَنَّ اللهَ غشَّى مُحاربـاً ... إذَا اجْتَمَعَ الأَقوامُ لوناً يَشِينُها

ترى بِوُجُوهِ الخُضْرِ خُضْرِ محاربٍ ... طوَابِعَ لُؤْمٍ ليْسَ ينْفَتُّ طِينُها

لقد ساهمتْنَاكُمْ سُلَيْمٌ وعامـرٌ ... فَضمْنَاهُمُ إنَّـا كـذاكَ نَدينُها

فصارتْ لنا أَهلُ الضئينِ محاربٌ ... وصارتْ لهمْ جَسْرٌ وذاكَ ثمينُها

إذا أَخذتْ خُضْرِيةٌ قائِم الرَّحَى ... تحرَّك قُنْبَاهَا فَطَارَ طحينُهـا

وما حَمَلَتْ خُضْرِيَّةٌ ذات ليلـةٍ ... من الدهرِ إلاَّ ازْدَادَ لؤْماً جَنِينُها

والقصيدة بهذا النهج حوت أبياتاً بلغت حدًّا من الإيلام لحكم بحيث لم يجد مفراً من أن يضمنها بألفاظها مع تغيير يقتضيه السياق نقيضته التي واجه بها ابن ميادة ، وقد بدا تفوّق ابن ميادة على حكم في هاتين النقيضتين حين استغل سمرة لونهم في شن الحملة عليهم وحين عرض تعريضاً شديداً بنسائهم ، الأمر الذي جعل الحكم يفقد صوابه ويستهل نقيضته بشتم ابن ميادة بأمه كما يفعل السوقي حين يفقد صوابه ، إن الحكم يقتفي أثر جرير في نقيضته الميمية ضد الفرزدق التي يقول فيها :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا ... وجاءت بوزواز قصير القوائم

يقول حكم : [1]

لأَنْتَ ابنُ أَشْبَانِيَّةٍ أَدْلَجَتْ بـهِ ... إلى اللُّؤْمِ مِقْلاَتٍ لئيمٍ جَنِينُها

فجاءَتْ بروَّاثٍ كـأَنَّ جبينَـهُ ... إذا مَا صَغَا في خِرقَتَيْها جَبينُها

فمـا حملـتْ مُرِّيَّـةٌ قـطُّ ليلةً ... من الدهرِ إلاَّ ازْدَادَ لؤْماً جَنِينُها

---

(١) الأغاني ٢/٣٠١ .

وما حملتْ إلاَّ لألأمِ مَنْ مَشَى ... ولاَ ذُكِرتْ إلاَّ بأمرٍ يَشِينُها
تَزَوَّجُ عِثْوانُ الضئينَ وتبتغي ... بها الدَّرَّ لا دَرَّتْ بخيرٍ لَبُونُها
أظنَّتْ بنو عِثْوانَ أنْ لستُ شاتماً ... بشتْمِي وبعضُ القومِ حَمْقى ظُنُونُها
مدانيسُ أبرامٌ كأنَّ لحاهُمُ ... لِحَى مُسْتَهِبَّاتٍ طوالٍ قُرُونُها *

هذا ولابن ميادة نقائض أخرى أشرنا إليها قبل قليل مع عقال بن هاشم[1] ، ومع عبد الرحمن بن جهيم الأسدي[2] بلغت من براعة القول حيناً وعنفه وشدته حيناً آخر ما يجعل عصر النقائض قد كتبت له الحياة لفترة زمنية أطول بحيث لا نستطيع أن نقرر أن النقائض انتهت بموت الشعراء الفحول ، ولكنها انتهت بموت ابن ميادة الذي مثل دور جرير على مسرحها واعتبر من هذه الناحية امتداداً لمدرسته .

ومجمل القول أن ابن ميادة كان مدرسة رحيبة الجنبات في دنيا الشعر وهو في أصالته مستجيب لملامح العصر الأموي المحافظة أكثر من استجابته لسمات العصر العباسي المتطورة ، ولعل السبب الرئيسي في ذلك أنه عاش في الجزيرة العربية ولم يخرج منها إلى الشام إلا منتجعاً مسترفداً عند ملوك بني أمية وأمرائهم ، وهو تبعاً لذلك محافظ في شعره موضوعاً وأسلوباً ، وأثر البيئة المحافظة واضح كل الوضوح في غزله ومدائحه ، كما أن أثر البداوة صارخ في نقائضه .

ومهما يكن من أمر فقد كان ابن ميادة فحلا في شاعريته ، جزلا في بناء قصيدته ، سريعاً في التعبير عن ذات نفسه بأرق شعر وأوضح أسلوب ، لقد كان يعتمر ذات سنة فنزل مطر شديد وصواعق راح ضحيتها بعض الناس وانهدمت كثير من البيوت ، فعلق ابن ميادة على ذلك قائلا : هذا العيث لا

---

* مدانيس من الدنس ، أبرام من البرم ، مستهبات من صفات التيوس حين تنهض وتهيج .
(١) الأغاني ٢/٣٠٩ .
(٢) المصدر السابق ٣٣٢ - ٣٣٤ .

الغيث ..

فقيل له : ما الغيث عندك فقال على الفور هذين البيتين البارعين :

سحائبُ لا مِنْ صَيِّبٍ ذِي صواعقٍ
ولا مُخْرِقَـاتٍ ماؤُهُـنَّ حَمِـيمُ
إذا ما هَبَطْنَ الأَرْضَ قد ماتَ عُودُها
بَكَيْنَ بها حتَّـى يَعِيشَ هَشِـيمُ

إذا كان ابن ميادة في ظل محافظته لم يعمد إلى التلاعب بالألفاظ والمعاني فإنه في هذين البيتين قد جمع كثيراً من ألوان البيان والبديع من استعارة رائعة وبديع طريف ، وإذا كان هذا البديع الجديد والصور البيانية التي جاءت في شعر ابن ميادة من القلة والضآلة بحيث لا تنهض لكي تشكل مذهباً ، فإنه على كل حال إرهاص جديد لظهور فن جديد .

---

* العيث الفساد والغيث المطر .

الفصل الثالث

المرحلة الثانية : مرحلة الإطلال على « العباسية »

سُدَيْف

أبو عديّ العَبْلي

أبو نُخَيْلَة الرَّاجِز

أبو حَيَّة النُّمَيْري

مروان بن أبي حفصة

سُدَيْف

(١)

تلوثه بدماء بني أمية :

اسم سُدَيْف الكامل هو سديف بن ميمون وكان يدّعي ولاء بني هاشم فقد كان مولى لامرأة من خزاعة وكان زوجها من اللهبيين فنسب إليهم[١] .

وسُدَيْف من الشعراء المخضرمين الذين غرقوا إلى أذقانهم في خضم السياسة أيام بني أمية وبني العباس وإذا كان قد أسهم إسهاماً نارياً في تأليب الناس على بني أمية والتمهيد لبني العباس فإن ذلك لم يمنع مصيره من أن يكون قتلا على يد الذين مدحهم وانتصر لهم .

لقد كان سديف — فيما يذكر ابن المعتز — شاعراً مفلقاً وأديباً بارعاً وخطيباً مصقعاً ، وكان مطبوع الشعر حسنه [٢] ، وإن الآثار القليلة التي وقعت بين أيدينا تؤيد نظرة ابن المعتز إليه وإن كانت تجعل منه رجل سياسة وشاعر مذهب أكثر منه أي شيء آخر .

---

(١) طبقات ابن المعتز ص ٣٧ والشعر والشعراء ٧٦١ .

(٢) الطبقات ٣٧ .

كان سديف يحمل على بني أمية ويوغر صدور الناس عليهم، يصور ظلمهم وفسادهم واستبدادهم في محتوى فريد من عنف القول وبراعة التسديد وذلك في قوله [1] :

«اللهم قد صار فيئُنا دُولَةً * بعد القسمة، وإمارتُنا غَلَبَةً بعد المشورة، وعهدُنا ميراثاً بعد الاختيار للأمة ، واشْتُرِيَت المعازفُ والملاهي بمال اليتيم والأرملة ، وحَكمَ في أبشار * المسلمين أهلُ الذِّمة ، وتولّى القيامَ بأمرهم فاسقُ كل محلة ، فلا ذائدَ يذود عن هَلَكَة ، ولا مُشْفِقَ ينظر إليهم بعينِ الرحمة ، ولا رادِعَ يَرْدَعُ من آوى إليهم بمظْلَمَة ، ولا ذو شفقة يشبع الكبد الحرّى من السَّغَب ، فهم أهل ضَرَع * وضيعة ، وحلفاء كآبة وذلة . قد استحصد * زرع الباطل وبلغ نهايته ، واستجمع طريده واستوسق ، وضرب بِجِرانِه * . اللهم فأتِــحْ له يداً من الحق حاصدة تجتث سنامه ، وتهشم سوقه ، وتبدد شمله ، وتفرق كلمته ، ليظهر الحق في أحسن صورته ، وأتمّ نوره ، وأعظم بركته . اللهم وقد عرفْنا من أنفسنا خلالاً تقعد بنا عن استجابة الدعوة ، وأنت المفْضِل على الخلائق أجمعين ، والمتولي الإحسان على السائلين ، فآت لنا من أمرنا حسب كرمك وجودك وامتنانك ، فإنك تقضي ما تشاء وتفعل ما تريد » .

وتتجمع الأسباب التي تسقط الأمم فتسقط دولة بني أمية وتقوم دولة بني العباس، ويتصل الخبر بسُديف وهو في مقامه بمكة فيستوي على راحلته مغذّاً المسير إلى أبي العباس السفاح ، وهناك يجد في مجلسه بعض بقايا بني أمية وعلى رأسهم سليمان بن هشام بن عبد الملك وكان يكنى أبا الغمر وكان صديقاً للسفاح ، فتثور في رأس سديف كل أسباب الكراهية لبني أمية وينشد السفاح مادحاً مؤلباً أبياته السياسية التاريخية [2] :

---

(١) الطبقات ٣٨ ، والشعر والشعراء ٧٦١ .

* الدولة ما يتداول فيكون مرة لهذا ومرة لذاك . أبشار جمع بشر . الضرع بفتحتين الضعف . الضيعة الهلاك . استحصد الزرع حان له أن يحصد . جران البعير بكسر الجيم عنقه .

(٢) العقد الفريد ٤٨٦/٤ وطبقات ابن المعتز ٣٩ .

أصبحَ المُلْكُ ثابتَ الآساس بالبهاليل من بني العبّاسِ
لا تُقِيلَنَّ عبدَ شمسٍ عِثاراً واقطعَنْ كلَّ رَقْلةٍ وغِرَاسِ
ولقد ساءني وساءَ سِوائي قربُهُمْ من منابرٍ وكراسِي
فاذكروا مصرعَ الحُسَيْن وزيدٍ وقتيلاً بِجَانِبِ المِهْرَاس
والقتيلَ الذي بحرَّان أَضْحى رَهْنَ رَمْسٍ وغُرْبَةٍ وتَنَاسِ
ذُلُّها أظهر التودُّدَ منها وبها منكمُ كحزِّ المواسِ
أَنْزِلُوها بحيثُ أنزلها اللـ ـهُ بدارِ الإتْعاسِ والإنْكَاسِ *

إن هذا الشعر ليس أكثر من إيقاظ للفتنة وتذكير بالثأر وإثارة لنخوة جاهلية ، وليس له من الشعر إلا نظمه ، أما حقيقته فمقالة سياسية عصبية كريهة حركت في نفس السفاح روح القتل ونية الانتقام من أعيان بني أمية الذين كانوا يحضرون مجلسه وعلى رأسهم صديقه أبو الغمر الذي طالما مد إليه يد المساعدة ، وما كاد اليوم التالي يهل صباحه حتى أرسل أبو العباس يستقدم بني أمية وعلى رأسهم أبو الغمر ، ولا يكاد سديف يراهم حتى يوجه أبياتاً إلى السفاح كانت القاضية على كل أموي يقول فيها :

لا يَغُرَّنْكَ ما تَرى من رجالٍ إنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ داءً دَوِيّا
فَضَعِ السَّيْفَ وارفعِ السَّوْطَ حتَّى لا ترَى على ظَهْرِهَا أُمَوِيَّا

لقد استجمع سديف كل أسباب العنف اللفظي والثورة المعنوية العاتية في هذين البيتين من القصيدة حتى أن سليمان بن هشام أحس بما قد يتلوها من مجزرة فقال لسديف : يا ابن الفاعلة ألا تسكت ، فاشتد غضب أبي العباس

* المهراس ماء بأحد ، وقتيل المهراس هو حمزه بن عبد المطلب . القتيل الذي بحران هو ابراهيم بن محمد بن علي رأس الدولة العباسية وقد قتله مروان بن محمد .

لذلك ونظر إلى رجاله وأشار عليهم بالضرب[1] ، وقيل في رواية أخرى إن السفاح سأل هشاماً عن رأيه في هذا الشعر فقال : والله إنه لشاعر ولكن شاعرنا قال ما هو أشعر من هذا ، فقال السفاح وما هو ؟ قال :

شُمْسُ العَداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهمْ وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا صَبَرُوا

فشرق وجه أبي العباس السفاح بالدم وقال : كذبت يا ابن اللخناء ، إني لأرى الخيلاء في رأسك بعد ، ثم كانت المذبحة التي ضربت فيها رؤوس كل كل من حضر من الأمويين[2] .

وتسرف بعض الروايات في رسم صورة المذبحة فتروي أن السفاح قد أمر بالأنطاع فبسطت على القتلى ثم جلس فوقهم ودعا بالغذاء فتغذى وإن بعض القوم ليتحرك وفيهم من يُسمع أنينه ، فلما فرغ من غذائه قيل له : هلا أمرت بهم فدفنوا أو حولوا إلى مكان آخر فإن رائحتهم تؤذيك ؟ قال : والله إن هذه الرائحة لأطيب عندي من رائحة المسك والعنبر ، الآن سكن غليلها [3] .

وما أن سحبت جثث القتلى ودفنوا بالأنبار حتى وقف عليهم سديف قائلا [4] :

طمِعَتْ أُميَّةُ أنْ سَيَرْضَى هاشِمٌ عنها ويَذْهَبَ زَيْدُهَا وَحُسَيْنُها

كـلاَّ ورَبِّ محمّـدٍ وإلَهِـــهِ حتى يُبَادَ كَفُورُهـا وَخَؤُونُها

---

(١) طبقات ابن المعتز ص ٤٠ .

(٢) العقد الفريد ٤/٤٨٧ .

(٣) طبقات ابن المعتز ص ٤٠ .

(٤) العقد الفريد ٤/٤٨٧ .

(٢)

مع الحسنيـــة :

وسديف رجل السياسة المتقلب الذي لا يثبت على حال هو أيضاً شاعر الدماء ، قتلت أبياته بقايا بني أمية ، ومن هنا يسرع بنا الظن إلى أن الرجل عباسي الهوى والمذهب إلى الحد الذي جعله يؤلب على بني أمية في أيام ملكهم ويتآمر على بقاياهم بعد زوال عهدهم ، ولكن السياسة لا قلب لها ، والمفهوم السياسي عند سديف مفهوم متطور وهو استبدال القبيح بالحسن وليس السيء بالسيء، لقد لاحظ من سلوك المنصور أشياء لم يتوقعها منه وأحسّ أنه يستبدل ظلماً بظلم وطغياناً بطغيان ، وهنا تظهر دعوة مناوئة لملك بني العباس على يد محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذي خرج بالمدينة فبايعه أهل مكة والمدينة ، ويخرج أخوه ابراهيم — الذي لقب بابراهيم الإمام — بالبصرة فتدين له مع الأهواز وواسط ، إنها حركة سياسية جديدة تدل ريحها على خير يصيب الناس وعدالة تفشو في المجتمع ، وإنها أيضاً دعوة هاشمية طالبية وهي بالنسبة إلى بني العباس كالدعوة التي قام بها عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب على مستهل عهد بني مروان ، وليس من قبيل المصادفات أن تكون أولى البلاد المبايعة في الحالين الحجاز والعراق . إن الأمر المهم في ذلك كله أن الشاعر المغامر السياسي سُديف يسارع إلى تشجيع الدعوة الجديدة والانخراط في سلكها والحملة على بني العباس فيقول في أبي جعفر المنصور [١] :

أَسْرَفْتَ في قَتْلِ الرعيَّـةِ ظالمـاً فاكفُفْ يديْكَ أضلَّها مَهْدِيُّها
فَلَتَأْتِيَنَّكَ رايـةٌ حَسَنِيَّـةٌ جرَّارَةٌ يَقْتَادُهَـا حَسَنِيُّهَـا

إن سُدَيْفاً لا يحمل على أبي جعفر وحسب ، وإنما يهدده بالدولة الحسنية المنطلقة من تحت راية محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه ابراهيم .

---

(١) العقد ٥/٨٨ .

ولا يقف الأمر بسديف عند هذا الحد وإنما يجعل من شاعريته داعية لبني الحسن ودولتهم المنتظرة ، وهنا يصدر شعره أنيقاً مصنوعاً مليئاً بالعاطفة حيالهم مفعماً بالكراهية لبني العباس أعدائهم فيقول : [1]

إنَّ الحمامةَ يومَ الشِّعبِ من حَضَنٍ[2]
هاجتْ فُؤَادَ مُحِبٍّ دَائِمِ الحَزَنِ
إنَّا لَنَأْمَلُ أَنْ ترتدَّ أُلْفَتُنَا
بَعْدَ التباعُدِ والشَّحْنَاءِ والإِحَنِ
وتَنْقَضِي دولةٌ أحكامُ قادَتِها
فِيها كأَحْكَامِ قَوْمٍ عابِدي وَثَنِ
فانهضْ بِبَيْعَتِكُمْ نَنْهَضْ بِبَيْعَتِنا
إنَّ الخِلافَةَ فيكمْ يا بَنِي حسَنِ
لا عَزَّ رُكْنُ نِزَارٍ عندَ نائبَةٍ
إنْ أَسْلَمُوكَ ولا رُكْنٌ لِذِي يَمَنِ
أَلَسْتَ أَكْرَمَهُمْ يوماً إذَا انْتَسَبُوا
عوداً وأَنْقَاهُمُ ثوباً مِنْ الدَّرَنِ
وأَعْظَمَ النَّاسِ عندَ اللهِ مَنْزِلَةً
وأَبْعَدَ النَّاسِ مِنْ عَجْزٍ وَمِنْ أَفَنْ

لقد كان سديف في مرحلته السياسية الثالثة تلك، صادق الولاء ثابت الحب ولكن حبه وولاءه لم يجديا نفعاً للدعوة الجديدة، كما لم يُجْدِ شعره ذلك الرائق

---

(١) العقد ٥/٨٧ ، ٨٨ .
(٢) حضن بفتحتين جبل بأعلى نجد .

الرقيق ، فما أن قُضي على الدعوة الطيبة الباسلة حتى وجد سديف نفسه في فم الموت غير مستطيع الهرب من أبي جعفر المنصور ، فكتب إليه من مهربه مستسمحاً مستعفياً : [1]

أَيُّها المنصورُ يـــا خَيْرَ العَـرَبْ خَيْرَ مَنْ يَنْمِيهِ عبدُ المُطَّلِبْ
أَنـــا مــولاكَ وراجٍ عَفْوَكُـــمْ فَاعْفُ عنِّي اليَومَ مِنْ قَبْلِ العَطَبْ

ولكن المنصور لا يعفو عنه ، وما كان ليفعل بعد الذي رآه فيه وسمعه منه فأرسل إليه من قتله وقيل من دفنه حياً .

إن سديفاً صورة صادقة للشاعر المخضرم الذي عاش دولتين وأسهم في السياسة وقال فيها شعراً ونثراً وخطباً ، فالذي لا شك فيه أن أظهر ما يميز شاعراً مخضرماً هو أسلوب حياته ، ونمط تفكيره ، وطريقته في القول ، تلك الطريقة التي تمثل جسراً بين عهدين وقنطرة بين سياستين وثقافتين ومجتمعين .

(٣)

غزلـــه :

فإذا نحن نظرنا إلى الشاعر سُديف بعيدين عن مضمار السياسة وجدنا له نفساً شاعرية رقيقة وروحاً خفيفة الظل تمسح متاعب الجدية الشديدة التي سادت حياته وسادت انطباعنا عنه . لقد سلم سديف مرة على رجل من بني عبد الدار ، فقال له الرجل : من أنت ؟ قال سديف : أصلحك الله أنا أحد أهلك ، أنا سديف بن ميمون . قال العبدي : والله ما أعرف في أهلي ميموناً ، فرد سديف على الفور : ولا مباركاً[2] .

---

(١) الشعر والشعراء ٧٦٢ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ٣٧ .

وسديف إذا خلا إلى نفسه قال شعراً غنائياً جميلا ، فيه روح وفيه أصالة ومعاني مبتكرة ربما أخذها غيره عنه بعد وفاته وجعل منها أبياتاً تحفظ وأشعاراً تردد، فمن رقيق شعره في الغزل قوله : [1]

أَعِيبُ التي أَهْوَى وأُطْرِي جَوَارِياً
يَرَيْنَ لهـا فَضْلاً عليهنَّ بَيِّنـا
بِرَغْمِي أُطِيلُ الصَّدَّ عنْهَا إِذَا بَدَت
أُحَـاذِرُ آذَانـاً عليْهـا وَأَعيُنَـا

ويقول سديف شعراً رقيقاً جديراً بأن ينظر إليه نظرة الجدة والاستحسان فيصف النساء في قوله : [2]

وإِذَا نَطَقْنَ تَخَالُهُـنَّ نَوَاظِمـاً دُرًّا يُفَصَّـل لُؤْلُـؤاً مَكْنُونَـا
وإِذَا ابْتَسَمْـنَ فإِنَّهُـنَّ غَمَامَـةٌ أَوْ أُقْحُوانُ الرَّمْـلِ بـاتَ مَعِينَا
وإِذَا طَرَفْنَ طَرَفْنَ عَنْ حَدَقِ المهَا وفَضَلْنَهُـنَّ مَحَاجِـراً وجُفُونَـا
وكأَنَّ أَجْيَاد الظِّبَـاءِ تَمُدُّهـا وخُصُورَهُـنَّ لطافـةً ولُدُونَـا
وأَصحُّ مـا رأَتِ العيونُ مَحَاجِراً ولَهُنَّ أَمرَضُ ما رأَيْتُ عُيُونَا
وكأَنَّهُنَّ إِذا نَهَضْـنَ لِحَاجِـةٍ يَنْهَضْنَ بالعَقِدَاتِ مِنْ يَبْرِينَا[3]

إن المتمعن في معاني هذه الأبيات وصوغها يستطيع أن يلمح في غير ما كدٍّ إنها امتداد محسّن متطور لشعر الغزل الذي صدر عن الغزلين الأمويين ، يصور مرحلة من مراحل الانتقال في فن الشعر من حيث الأسلوب والإطار

(١) المصدر السابق ٤٠ ، ٤١ .
(٢) زهر الآداب ١/١٥ .
(٣) حدق المها عيون بقر الوحش ، اللدون اللين ، يبرين موضع .

والمحتوى ، فهنا نغمة جديدة تخلصت من بعض سمات البداوة وإن لم تنطلق تماماً إلى قلب سمات الحضارة ، وهي كل حال تقف على مشارفها ، كما يستطيع أيضاً أن يلمح في نفس الوقت بوادر التطور الذي ظهر واضحاً في نفس الفترة جلياً عند بشار وابن هرمة رئيسي مدرسة المخضرمين وكبيريْ شعراء مدرسة المحدثين العباسيين .

وإذن فسديف برغم خمول ذكره عند الدارسين وقلة أخباره وأشعاره في متون كتب الأدب والتاريخ ، يستحق وقفة طويلة سوف تؤدي بدارسه ولا شك إلى موقف يرى فيه أنه صورة دقيقة لحقيقته الزمنية والفكرية والأدبية : انهماك في السياسة الى الأذقان مع مشاركة فعلية فيها على المستوى المذهبي والأدبي ، وشعر وجداني رقيق متطور المعاني يربط بين مدرسة الغزلين السابقين ومذهب بشار الذي عاصره وعاش بعده قليلا .

إنه من ناحية الفكرة السياسية ينتمي إلى مدرسة أبي العباس الأعمى وأبي عدي العبلي من حيث كون كل منهما عاش حياته من أولها إلى ختامها غارقاً في خضمها ، وأما من ناحية الفكرة الشعرية وأسلوب التعبير فهو أقرب إلى المرحلة الوسطى التي تغذ المسير إلى مدرسة الشعر الحضري .

أبو عَدِيّ العَبْلي

(١)

أمير أموي متشيّع :

إن العبلي شاعر من البيت الأموي عاش حياته كلها متقلباً في ميدان السياسة غارقاً في خضمها ، لقي فيها ما يلقى كل مشتغل بها في أزمنة التقلب والبعد عن الاستقرار ، فبرغم أن مقامه كان بالمدينة إلا أنه كان دائم الرحلة كثير الانتقال طوعاً أو كرهاً ، فهو حيناً في الشام ينعم بالحياة الرضية في جوار أقربائه من الحكام الذين لا يلبثون أن يضيقوا ذرعاً بآرائه السياسية التي تعارضهم وتوالي بني الحسن وتذكر بالإجلال ذكرى أمير المؤمنين عليّ فيعود أدراجه إلى المدينة ، وفي نطاق العقيدة السياسية أيضاً يتجه إلى جنوب الحجاز حاكماً ، ثم إلى اليمن هارباً ، وهكذا ، وهو في كل ما وصل إلى أيدينا من شعره لم يخرج أبداً عن نطاق فكرة سياسية ، ولم يحدْ عن مبدأ مذهبي ، وهو في كل شعره يصدر عن أصالة مطبوعة وجزالة معجبة ونَفَسٍ في الشعر عميق عريق، يسير فيه على النهج التقليدي الذي لم يأخذ بالأسباب التي جنح إليها بعض معاصريه من تلاعب بالمعاني وتصرف بالألفاظ ، ذلك أن بيئته وعقيدته لم

تسعفاه بشيء من ذلك ، وهو برغم هذا كله شاعر شامخ مطلّ على دنيا الشعر من مكان سامق رفيع .

إن اسمه عبد الله بن عمر العبلي وكنيته أبو عدي ، كما كان يعرف أيضاً بأبي عدي الأموي[1] . وهو أموي ولكنه لا يرضى عن تصرفات الحكام من قومه فيميل إلى بني هاشم ويذم بني أمية ، إنه يكره ما يجري عليه قومه من سب عليّ بن أبي طالب على المنابر ، ويعلن إنكار ذلك ، فينتهي الخبر إلى بني أمية فينهونه عن ذلك ، فيغادر الشام إلى المدينة ويسجل رأيه وفكره في قصيدة مفعمة بالعاطفة لعليّ وآل الرسول مفتخراً بقرشيته في عبد شمس وهاشم على السواء :

شَرَّدُوا بي عند امتداحي عَلِيًّا ... ورأَوْا فِيَّ ذاكَ داءً دوِيًّا
فورَبِّي لا أَبرحُ الدهرَ حتَّى ... تُخْتلَى مهجتي بحُبِّي عليًّا
وبَنِيهِ لحبِّ أَحمدَ إني ... كنتُ أَحبَبْتُهمْ بحبِّي النَّبِيًّا
حبَّ دينٍ لا حُبَّ دنيا وشرُّ الْـ ... ـحُبِّ حُبٌّ يكونُ دُنْيَاوِيًّا
صَاغَنِي اللهُ في الذُّؤَابةِ منهمْ ... لا زَنِيماً ولا سَنِيداً دَعِيًّا
عدويًّا خالي صريحاً وجدِّي ... عبْدُ شمس وهاشمٌ أَبَوَيًّا
فسواءٌ عَلَيَّ لسْتُ أُبالِي ... عبْشَمِيًّا دُعِيتُ أَمْ هاشِمِيًّا [2]

وهو لا يكتفي بإظهار مودته لبني هاشم وحسب ، وإنما يعرِّض بقومه بني أمية ويتمنى لو لم يكن منهم وكان من بني مخزوم أو غيرهم من قريش فيقول :[3]

---

(١) الأغاني ١١/٩٣ ، ٣٠٢
(٢) تختلى تقطع ، الزنيم والسنيد الدعي الملصق بالقوم وليس منهم ، عبشمي أي من عبد شمس
(٣) الأغاني ١١/٣٠٣ .

خسَّ حظِّي أَنْ كنتُ من عبْدِ شَمْسٍ
ليتني كنتُ من بـني مَخْـزُومِ
فأَفُـوزَ الغَـداةَ فيهـمْ بسَهْـمٍ
وأبيـعَ الأَبَ الكريـمَ بِلُـومِ

(٢)

مصانعة العباسيين :

وينجح الانقلاب السياسي الدموي العباسي وتُطلب رأس كل أموي، فيحتجب أبو عدي ويتفادى وجه الفتنة التي لا تبقي ولا تذر ، ثم يهديه تفكيره إلى الذهاب متنكراً إلى السفاح ويدخل عليه وينشده قصيدة من عيون الشعر يستهلها استهلالا تقليدياً جميلا موجّهاً :

أَلا قـلْ للمنـازلِ بالسِّتـار سُقِيتِ العيثَ مِنْ دِمنٍ قِفَارِ
فهلْ لـكِ بعدنـا عِلْـمٌ بسلمى وأترابٍ لهـا شِبْـهِ الصِّـوارِ
أَوانسُ لا عـوابسُ جافيـاتٌ عن الخلق الجميلِ ولا عوارِي
وفيهنَّ ابنـةُ القَصَـوِيِّ سلمى كهمِّ النفْسِ مُفْعَمَـةُ الإزارِ
تلوثُ خِمارَهـا بـأَحَـمَّ جَعْـدٍ تُضِلُّ الفالياتُ بـه المـدارِي
بَرَهْرَهَـةٌ مُنَعَّمـةٌ نَمَتْهـا أُبُوَّتُهـا إلى الحسبِ النُّضارِ

ويمضي العبلي سائراً في هذا الدرب المونق من القول حتى يصل إلى مبتغاه من السفاح :

أَيـا أَهْلَ الرسولِ وصِيـدَ فِهْـرٍ وخَيْـرَ الواقِفيـن عـلى الجِمارِ

أَتُؤْخذُ نِسْوتي ويُحَـازُ مـالـي ... وقد جاهرْتُ لو أَغنَى جِهارِي
وأُذْعَرُ أَنْ دُعِيـتُ لعبـد شمسٍ ... وقد أَمسكْتُ بالحـرمِ الصَّواري
بنُصْرةِ هاشمٍ شَهَّـرتُ نفْسي ... بِدارِي للعِـدا وبعيْـرِ دارِي
بِقُرْبَـي هاشمٍ وبحـقِّ صِهـرٍ ... لأَحمـدَ لفَّـهُ طيـبُ النِّجـارِ
ومنـزلُ هاشمٍ من عبـدِ شمسٍ ... مكانَ الجِيدِ من عَلْيا الفِقار[1]

فيرحب السفاح به ويطلق سراح أهله ويرد عليه ما أخذ منه ، فقد كان السفاح على علم بموقفه من قومه ورأيه فيهم ، وتظل صلته بالعباسية طيبة ولكن لوقت غير طويل ، إذ يطلب إليه المنصور ذات يوم أن ينشده ما قال في قومه ، فيطلب العبلي أن يعفيه الملك العباسي من ذلك ، ولكنه يلح فيمتثل وينشد قصيدته البارعة التي سوف نعرض لها بعد قليل ، والتي مطلعها :

ما بالُ عينِكَ جائـلاً أَقذاؤُهـا ... شرِقَتْ بعَبْرَتِهـا فطالَ بكاؤُهَا

حتى إذا انتهى إلى قوله :

فبنو أُميَّةَ خيرُ من وطىءَ الحصَى ... شرفاً وأَفضلُ ساسةٍ أُمراؤُهـا

قال له المنصور : أخرج عني لا قرب الله دارك ، فيخرج الرجل متجهاً من جديد إلى المدينة . إن العبلي لم ينشده القصيدة من تلقاء نفسه ، فلما طلب إليه ذلك اعتذر ، وهو ينشدها امتثالا لرغبة الملك الكبير المحدث ، ولكن

---

(١) الستار اسم موضع ، الصوار بالصاد المشددة المكسورة القطيع من البقر ، القصوي نسبة إلى قصي أي فتاة كريمة من بيت كريم ، تلوث تلف ، الأحم الأسود ، المدراة والمداري شيء شبيه بالمشط وإضلال المداري في الشعر كناية عن غزارته ، البرهرهة البيضاء أو رقيقة الجلد ، النضار بمعنى الخالص الذي لم يشبه ما يدنسه ، الصيد جمع أصيد وهو الذي يرفع رأسه كبرا ، الصواري جمع صاري والإمساك بالصاري في الحرم قد يكون القصد من التعبير به الأمان .

الملك العباسي لا يطيق احتمال ما ضمت من معاني رائعة صورت حال بني أمية وقت وقوع الفتنة بينهم واختلاف كلمتهم .

هنا تنتهي المرحلة الثانية من العقيدة السياسية لعبد الله العبلي ويكره بني العباس ، وإذ هو على مشارف المدينة قادماً من العراق يمر على سُوَيْقة وهي الموضع الذي كان يسكنه آل علي بن أبي طالب ، ويقصد عبد الله والحسن ابني الحسن بن عليّ فيبرّانه ويحسنان إليه ، كما يعطف عليه محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه ابراهيم وأمهما هند ، ولا يلبث محمد بن عبد الله بن الحسن أن يخرج على المنصور العباسي ويستقر له الأمر بالحجاز أو يكاد، فيسارع العبلي إلى الانضمام إلى هذه الوثبة الطيبة التي تعيد الخلافة إلى آل البيت الذين أحبهم وآثرهم على قومه الأقربين، ويلي إمرةً للحكومة الحسنية، غير أنه لا يلبث عليها إلا أياماً ، فإن الحظ العاثر كان قد طوّق الدولة الناشئة فقضى المنصور العباسي عليها ، وقتل الشابين العظيمين اللذين قاما بها وهما محمد الذي لقب بالنفس الزكية وأخوه ابراهيم الذي لقب بالإمام ويهرب أبو عدي العبلي إلى اليمن حيث تنقطع أخباره .

وإذا كنا لا نعرف السنة التي ولد فيها العبلي ولا السنة التي مات فيها ، فمن الثابت أنه مدح من الأمويين هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، ومن العباسيين أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور ، فيكون والأمر كذلك شاعراً مخضرماً من شعراء الدولتين عاش حياته خلالهما مفكراً متحركاً نشطاً منشداً معبراً عن كل خلجة من خلجات نفسه ، وكل خطرة من خطرات عقله ، وكل فكرة من أفكار عقيدته ، في قالب شعري جزل أخاذ ، في ثوب من الفحولة جعله قريباً كل القرب إلى مدرسة الشعر الأموي التي كان روادها الفحول ، وكانت مدرستها الجزالة والتجديد ، إذا ما مدح أو استجار .

(٣)

أصالة مديحه :

وإذا ما حاولنا أن نعرض لشعر العبلي ، فسوف نجد أنفسنا دون أن نشعر نعيش معه أفكاره وآراءه ومذاهبه وهمومه ونبوغه في شعره وبراعته في صوغ آرائه.

لقد عاش العبلي في مستهل حياته شاعراً يمدح الكبار من بني قومه ، وهو في مدائحه يتبع طريقة القدماء من حيث بناء القصيدة والأسلوب وهو في ذلك تقليديّ ملتزم ، ولا عليه في ذلك طالما كان شعره من الجودة والإتقان بحيث يرضي الأذواق ويطرب الأسماع ، إنه يمدح هشام بن عبد الملك فيبدأ القصيدة بالنسيب وبكاء الشباب والرحلة إلى الممدوح ووصف الراحلة ولكن في أبيات محكمة النسج تبدو فحولة القول فيها واضحة ملموسة[1] :

ليلتي من كَنُودَ بالغَـوْرِ عُـودي ... بصفاءِ الهوَى مِنُ آمِّ أَسِيـدِ
ما سمِعْنَـا ذاكَ الهوى ونَسِينـا ... عهْدَهُ فارْجِعي به ثُمَّ زِيدِي
قد تولَّى عصرُ الشبابِ فقيـداً ... رُبَّ جارٍ يبينُ غيـرَ فقيـدِ
خَلُقَ الثوبُ من شبـابٍ ولِبْسٍ ... وجديدُ الشبابِ غيرُ جديـد
فَاسْرِ عَنْكَ الهمومَ حين تداعتْ ... بِعَلاةٍ مثـل الفَنِيـق وَخُـودِ
عَنْتَريسٍ تُوفِـي الزمـامَ بِفَعْمٍ ... مثلِ جذعِ الأَشاءةِ المجْـرُودِ
وَارْمِ جَوْزَ الفَلاَ بهـا ثم سُمْها ... عجْرَفِـيَّ النَّجـاءِ بالتَّوْخِيـدِ
وهشاماً خليفـةَ اللـهِ فاعْمَـدْ ... واصْرِمَنْ مِرَّةَ القويِّ الجليدِ[2]

---

(١) الأغاني ١١/٣٠٤ وما بعدها .

(٢) اسر عنك الهموم ألقها عنك ، تداعت هنا بمعنى تجمعت ، العلاة الناقة العالية الصلبة ، الفنيق الفحل المكرم لا يؤذي ولا يركب ، الوخود كثيرة الوخد وهو ضرب سريع من السير ، =

ثم لا يلبث أن يستهوي الشاعر مذهبُهُ الذي بدأه في وصف الرحلة ووصف حال الناقة بين حنين إلى البطاح وغذ للمسير والسرى تطوي الجبال وتقطع البيد ، براها طول السفر فاحدودب ظهرها وزال شحمها ، ثم لما وصلت الرصافة ،

نَزَلَتْ بامرىءٍ يرى الحمدَ غُنْماً ... باذِلٍ مُتْلفٍ مفيدٍ مُعِيدِ
بَذَلَ العدلَ في القِصاصِ فأَضْحَى ... لا يخافُ الضعيفُ ظلمَ الشديدِ

والحق أن الشاعر لا يكاد يتخلص من الوصف التقليدي للرحلة حتى يضرب في ساحة المديح منطلقاً فياضاً كموج البحر تتابعاً ويسراً في غير ما توقف أو تعسف أو تعسر أو تعثر ، شاعرية منطلقة نحسّ فيها أن خواطر الشاعر تسبق قلمه وأن ملكته أسرع من ريشته ، وهو وإن لم يتعدّ المألوف من صفات المدح ، إلا أنه يقدمها موفورة غامرة متزاحمة محتشدة بفيض من سرعة مرتاحة إن صح هذا التعبير :

مِنْ بَنِي النَّضْرِ من ذُرَا منبِتِ النضْـ ... ـرِ بأَوْرَى زَنْدٍ وأَكرمِ عُودِ
فهو كالقلبِ في الجوانحِ منهـا ... واسِطٌ سرَّ جِذْمِهـا والعديـدِ
بين مروانَ والوليدِ فبـخْ بـخْ ... للكريـم المجيـدِ غيـرِ الزَّهيدِ
لو جرى الناسُ نحو غايـةِ مجدٍ ... لِرِهـانٍ في المحفِـلِ المشهـودِ
لَعَلاَهُـمْ بسابغيْـنِ مـن المجـ ... ـدِ على الناسِ طارفٍ وتليدِ
إنكـمْ معشرٌ أَبَـى اللـهُ إلاَّ ... أَنْ تفوزوا بدَرِّهـا المحشودِ
لم يـرَ اللهُ معشراً مِـنْ بني مـر ... وانَ أَوْلَـى بالمُلْـكِ والتَّسْويدِ

= العنتريس من النوق الصلبة الشديدة الكثيرة اللحم الجريئة ، الفهم الشيء الكثيف ويراد به هنا العنق ، الأشاءة النخلة الصغيرة ، المجرود المقشود ، جوز كل شيء وسطه ، العجرفية في السير السرعة ، النجاء السرعة ، التوخيد من الوخد وهو ضرب من السير .

قـادةٌ سادةٌ ملـوكٌ بحـارٌ وبهاليـلُ للقُـرومِ الصِّيـدِ
أَرْيَحِيُّـونَ ماجـدُونَ خِضَمٌّـو نَ حماةٌ عند ارْبِـدَادِ الجُلـودِ
يقطعون النهارَ بالـرأْي والحـزْ مِ ويُحْيُـون ليلَهـم بالسُّجودِ
أَهـلُ رِفْـدٍ وسؤْدُدٍ وحيـاءٍ ووفـاءٍ بالوعـدِ والمـوعـودِ
ويـروْن الجِـوارَ مـن حُرَمِ اللا ـهِ فمـا الجـارُ فيهمُ بوحيدِ
لو بمجـدٍ نـالَ الخلـودَ قبيلٌ آلَ مـروانَ فُزْتُـمُ بالخلـودِ
يا ابنَ خيْرِ الأَخْيارِ مِنْ عبدشمس يا إمامَ الورَى وربَّ الجنـودِ
عبـدُ شمسٍ أَبـوك ثـم أَبونا لا نُنَادِيـكَ مِنْ مكانٍ بعيـدِ

لا شك أن فيض الشاعر وانطلاقته نابعة من نبعين ثَريّيْن هما شاعريته وحديثه عن قومه ، إن الفرق كبير من حيث الشاعرية والقول الجزل الفياض المطبوع بين هذه القصيدة وبين الرائية التي قيلت في السفاح .

(٤)

تحذير العشيرة :

ويقع الخلاف بين رجال بني أمية وتدب الفتنة في صفوفهم وتختلف كلمتهم ويطل النحس برأسه من خلال هذه المحنة ويرفع بعضهم السيف في وجه الآخر وتتهدد الدولة بالفناء وما يستتبع ذلك من شر وهلاك لقوم هم أهل الرئاسة والسياسة والندى والسيادة والنهي ، إن أبا عدي الأموي يصوغ كل هذه المشاعر المتشائمة ويندب هذه الفُرقة بشاعرية فذة في أروع مقطوعة موسيقية حزينة قيلت في مثل هذه المناسبة ، إنها تحذير العاقل الذي يرى ما تخفيه الأيام من شؤم وبوار فيقول هذه الأبيات التي جمعت بين التحذير والتعنيف والحكمة

والفخر وبكاء العشيرة والتمني والدعاء . إنها تحفة من شعر فلسفة السياسة والتنبؤ بالمصير . إن الشاعر الكبير لا يقدم معاني مجردة وأحاسيساً مفردة ، وإنما هو يقدم أيضاً أسلوب شعر ومنهج بيان وفحولة نسج وبراعة تعبير ، في سماحة وسهولة وراحة وانسياب ، بادئاً بمعنى رائق كنا نظن أن المتنبي الذي جاء بعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان هو صاحبه ومبدعه ، وهو الشرقة بالدمعة أو بالعبرة ، فإذا الشاعر الأموي الكبير هو صاحب هذا المعنى النفيس ، يقول الشاعر الكبير من أبناء أمية في بعض هذه القصيدة [1] :

ما بالُ عَيْنِكَ جائلاً أَقْذَاؤُهـــا ... شَرِقَتْ بِعَبْرَتِها فَطَالَ بُكاؤُهـا

واعْتادَهـا ذِكْرُ العشيرةِ بالأَسى ... فصَبَاحُها نـابٍ بها ومساؤُهـا

شَرِكُوا العِدا في أَمْرِهِمْ فتفاقَمَتْ ... منها الفُتُونُ ومُزِّقَتْ أَهواؤُهـا

ظلَّتْ هنالك وما يعاتِبُ بعْضُهـا ... بعضاً فينْفَع ذا الرجاءِ رجاؤُها

إلاَّ بمرهَفَةِ الظُّبـاتِ كأَنهـا ... شُهبٌ تَقِلُّ ـ إذا هوتْ ـ أَخْطاؤُها

وبِعُسَّلٍ زُرْقٍ يكـون خِضَابُهـا ... عَلَقَ النحورِ إذَا تفيضُ دماؤُها

فبذاكـمُ أَمْستْ تعاتبُ بينهـا ... فلقد خَشِيتُ بأَنْ يُحَمَّ فَنَاؤُها

ماذا أُؤَمِّلُ إنْ أُميَّـةُ ودَّعَـتْ ... وبقاءُ سكـانِ البـلادِ بقاؤُهـا

أَهلُ الرياسةِ والسياسةِ والنَّـدَى ... وأُسودُ حـربٍ لا يَخِيمُ لقاؤُها

غَيْثُ البلادِ هُـمُ وهُـمْ أَمراؤُها ... سُرُجٌ يضيءُ دُجى الظَّلامِ ضياؤُها

فلئـنْ أُميـةُ ودَّعَـتْ وتتايَعَتْ ... لغوايـةٍ حَمِيـتْ لها خُلَفَاؤُها

لَيُوَدِّعَـنَّ من البريَّـةِ عِزُّهـا ... ومـن البـلادِ جمالُها ورجاؤُها

---

(١) الأغاني ٣٠٧/١١ وما بعدها .

لهفي على حزْبِ العشيرةِ بينهـا هـلاً نَهَـى جُهَّالَها حلماؤُهـا
هلاً نُهىً تَنْهَـى الغويَّ عن التي يُخْشَى على سلطانِها غوغاؤُها
وتُقـىً وأحـلامٌ لهـا مُضَريَّةٌ فيها إذا تَدْمَي القلوبُ دواؤُها
لما رأيتُ الحربَ توقـدُ بينهـا ويَشُبُّ نـارَ وَقُودِهـا إذكاؤُها
نَوَّهْتُ بالملـكِ المهيمـن دعوةً ورواحُ نَفْسِي في البلادِ دُعاؤُها
ليرُدَّ أُلْفَتَهـا ويجمـعَ شَمْلَهـا بخِيَارهـا فخيارُهَـا رُحَماؤُهـا
... فبنُو أُميَّةَ خيرُ من وطيءَ الثَّرى شرَفاً وأفضلُ ساسَةٍ أمراؤُهـا

إن هذه القصيدة من الجودة والإتقان واتساع الأفق وسعة الفكرة بحيث جعلت ملكاً كبيراً كأبي جعفر المنصور يلح في الطلب إلى العبلي أن ينشده إياها، وكان العبلي على ما مر بنا قبل قليل يطلب من المنصور أن يعفيه ، إنه لم يتصور أن المنصور سوف يصاب بغصة عند سماعه إياها ، ولكن لعل الشاعر العظيم كان مشفقاً على نفسه من أن يغص هو نفسه وهو ينشدها ويستعيد مواقف قومه ومجدهم الزائل ، ويستجيب الشاعر للملك وينشد ، فلا يحتمل المستمع ما فيها من معاني تترى كريمة متزاحمة فيطرد الشاعر من مجلسه في حماقة ربما كانت فريدة في تقاليد معاملة الملوك العرب .

(٥)

أول شعر في دولة سقطت :

إنه لا ينبغي النظر إلى هذه القصيدة كمجرد شعر جيد رفيع القيمة الفنية

الأسلوبية والصوغية ؛ ذلك لأنها من القصائد القليلة في الشعر العربي حتى ذلك العهد التي ينفعل قائلها انفعالا راقياً ويفنى فناء عميقاً في قضية خطيرة تتعلق بمصير قومه ، ذلك المصير الذي يتعلق به من وجهة نظره على الأقل مصير أمة ، ومن ثم فلقد تفاعلت شاعريته مع قضية قومه الحاسمة في شيء كثير من الاستنارة وسعة الأفق وحسن الفهم ورقي التناول ، فكانت هذه القصيدة الفريدة عمق معنى وبراعة تناول وسداد فهم وسلاسة أسلوب .

لقد كان العبلي الأموي صادقاً الصدق كله في إحساسه بأفول نجم قومه وذهاب ملكهم وغروب شمسهم ، ولقد حدث كل ما توقع وذهبت كل أمنياته أدراج الرياح ، فضربت الرؤوس الكبيرة والصغيرة ، وأسرت الأوانس وسبيت الحرائر ، بعد الملك والحكم والغنى والقصور ، ولكن أيضاً بعد الفرقة والفساد والظلم واللهو والفاحشة والاستهتار ، على أن الشاعر يفيق على النكبة فيقول قصيدته الفريدة السينية في رثاء دولة بني قومه ، ولعلها القصيدة الأولى في الشعر العربي التي قيلت في رثاء دولة آفلة وفي بكاء ملك زال وانطوى ، ولا نكاد نرى لها شبيهاً في عصره إلا أبيات أبي العباس الأعمى السِّينيه .

إن سينية العبلي شيء جديد في سماء الشعر العربي ومنزع فريد منطلق الفكر في دنيا أدبنا الباكرة ، صحيح أن نغمات البكاء توشي القصيدة من أولها إلى آخرها وكان الشاعر يستطيع فيها أن يتمثل أمجاد قومه العديدة خلال فترة حكمهم التي كادت أن تكمل قرناً من الزمان وبذلك كان يصل بالقصيدة فكراً ونسجاً وموضوعية إلى الذروة ، ولكن لا عليه في ذلك فقد أخذت عليه المصيبة كل جوانب تفكيره وإحساسه فكان باكياً راثياً لدولة قومه ولبني قومه، يقول العبلي مجيباً ابنته الصغيرة لما سألته عما عراه : [1]

---

(١) الأغاني ١٠/٢٩٨ – ٣٠٠ .

تقـولُ أُمـامـةُ لمَّـا رأتْ ... نُشُوزِي عنِ المضْجِـعِ الأنْفسِ
وقِلَّـةَ نَوْمِـي عـلى مضْجَعِـي ... لَدَى هَجْعَـةِ الأعْيُـنِ النُّعَّسِ
أبي ، ما عراك ؟ فقلتُ الهمومَ ... عَـرَوْنَ أبـاكِ فـلا تُبْلِسِي
عـروْنَ أبـاكِ فحبَّسْنَـهُ ... من الذُّلِّ فـي شرِّ مـا مَحْبِسِ
لفقْـدِ العشيـرةِ إذْ نالهـا ... سهـامٌ مـن الحَدثِ المُبْئِسِ
رَمَتْهـا المنـونُ بـلا نُصَّـلٍ ... ولا طـائشاتٍ ولا نُكَّسِ
بـأسْهُمِهـا الخالساتِ النفوسَ ... متى ما اقْتَضتْ مهجةً تَخْلِسِ
فصرعـاهُمُ في نواحـي البلاد ... دِ تُلْقَـى بأرضٍ ولم تُرْمَسِ
كريـمٌ أُصِيـبَ وأثوابُـهُ ... مـن العـارِ والـذامِ لم تُدْنَسِ
وآخـرُ قـد طـار خَوفَ الرَّدَى ... وكـان الهُمـامَ فلـم يُحْسَسِ
فكـم غـادروا من بَوَاكِي العيو ... نِ مَرْضَى ومن صِبْيةٍ بُؤَّسِ
إذا مـا ذكَرْنَهُـمُ لـم تَنَـمْ ... لحَـرِّ الهمـومِ ولم تَجْلِسِ
يُرجِّعْـنَ مثـلَ بكـاءِ الحمـا ... مِ فـي مأتـمٍ قَلِـقِ المجْلِسِ
فذاكِ الـذي غَالَـني فاعلمـي ... ولا تسأَليـني فَتَسْتَنْحِسِي
وأشيـاءُ قـد ضِفْنَنِـي بالبـلاد ... ولستُ لهـنّ بِمُسْتَحْلِسِ
أفـاض المدامـعَ قتلَـى كُـدىً ... وقتلَى بكُثْـوةَ لـم تُرْمَسِ
وقتـلى بِـوَجٍّ وبـالـلابَتَيْ ... ـنِ مـن يثربٍ خيرُ ما أنْفُسِ
وبالزابِيَيْـنِ نفـوسٌ ثـوَتْ ... وقتلَـى بنهـرِ أَبِـي فُطْـرُسِ
أولئـك قـومٌ تداعـتْ بهـمْ ... نوائـبُ مـن زمـنٍ مُتْعِـسِ

أَذَلَّتْ قيادي لمن رَامَنِي وأَلْزَقَتِ الرَّغْمَ بالمَعْطَسِ
فما أَنْسَ لا أَنْسَ قتلاهمُ ولا عاشَ بَعْدَهُمُ مَنْ نَسِي[1]

لقد كان العبلي يحبّ آل الحسن وقد مر بنا أنه خرج على بني العباس وبايعهم ، ومن الناحية التاريخية فإن أمر بني أمية مع بني فاطمة معروف من قتل وتعذيب وتشريد ، ومع ذلك كله فقد طلب محمد بن عبد الله بن الحسن من العبلي أن ينشده شيئاً مما رثى به قومه ، فأنشده هذه القصيدة وما كاد يأتي عليها حتى بكى محمد ، فيستنكر عمه الحسن بن الحسن بكاء ابن أخيه ويقول له : أتبكي على بني أمية وأنت تريد ببني العباس ما تريد ؟ فيقول له : والله يا عم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم ، وإن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر [2] .

إن القصيدة التي تنتزع الدموع من عيني رجل فتجعله يبكي على أعدائه لا بدّ أن تكون شيئاً فريداً في بابها وفتحاً جديداً في ميدانها ، ولقد كانت كذلك هذه السينية الرائعة للعبلي ، كانت كذلك من عدة جوانب ، منها أن القصيدة موجهة من رجل حزين مبتئس لابنته وقد تعروا من مجد ملكي تليد ، ومنها الحديث على المواقع أو المذابح الذي حلت بالقوم في حضور النحس المفاجيء وغيبة السعد الذي لازمهم طويلا ، ومنها جو الحزن الذي بسطه الشاعر في حذق وبدون تصنّع على أذن السامع وخاطره مع اختيار قافية حزينة هي قافية السين مشفوعة برويّ لعبت الكسرة فيه دور النادبة، ومنها أن الشاعر

---

(١) لا تبلسي من الإبلاس وهو اليأس والتحير ، عرون من عرا يعرو أي أصاب، نُصَّل جمع ناصل والناصل من السهام الذي سقط نصله وهو أيضا ذو النصل ، نكس من نكس أي نزل وخفض ، تخلس تسرق ، لم ترمس لم تدفن ، لم يحسس لم يشعر أحد به ، بؤس بالتشديد مفردها بائس ، مجلس قلق أي مضطرب لما فيه من حزن شديد ، الرغم التراب ، المعطس كمجلس الأنف .

(٢) الأغاني ١١/٣٠٠

قد جعل من قصيدته سجلا تاريخياً للمواقع الكثيرة التي لقي في كل واحدة منها عدد من رجال بني أمية حمامهم فترملت وذلت نساء كن ربات جمال وساكنات قصور وتيتم وابتأس صغار أبرياء هم ملء فم الدنيا براءة وجمالا وبسطة عيش ، فمن المواقع الكثيرة التي لقي فيها رجال بني أمية مصارعهم وعدّدها الشاعر في وثيقته هذه التاريخية الحزينة ما لقوه في كدى وكثوة واللابتين ووجّ والزاب الأعلى والزاب الأسفل ونهر أبي فطرس .

وإذا كانت هناك كلمة تقال في شعر العبلي بالقياس إلى شعر الشعراء من أبناء البيت الأموي، فمهما قيل في براعة الوليد وتجديده، أو آدم بن عبد العزيز وانطلاقه وتفتحه أو الحصني المسلمي وبراعته في الجمع بين الجزالة والرقة ، فإن العبلي قد أدى دوره في تمجيد دولتهم ورثاء ملكهم ، وهو بهذا الدور قد أضاف شيئاً إلى التراث الشعري العربي ، واستحق أن يحتل مكاناً مرموقاً بين كبار الشعراء الذين تمسكوا بجلال الجزالة والفحولة وانطلقوا وهم ممسكون بأطرافها إلى آفاق رحبة من جدّة الموضوع وخصوبة الفكر ة .

أبو نُخَيْلَة «الراجز»

أبو نخيلة شاعر راجز واسمه يعمر وقف بقدميه بثبات على أرض العصر الأموي شعراً ورجزاً ، وأطل برأسه على عهد بني العباس حتى زمن المنصور مجدداً في الغرض والموضوع ، وأخذ يمدح قافلة الملوك في الدولتين منذ مسلمة بن عبد الملك حتى المنصور العباسي ، فكانت الرأس التي أطل بها على بني العباس سهلة القطاف يسيرة الاحتزاز لأنه تعامل بها في زمن بني العباس بنفس المعايير التي كانت تشيع في عهد بني أمية .

(١)

مدّاح هجّـــاء :

إن أبا نخيلة شاعر جمع بين قول القصيد وإنشاء الرجز وهو من الرواد في الرجز وإن كان في أول أمره عيالاً على رؤبة بن العجاج إلى الحد الذي كان ينتحل أراجيزه وينسبها لنفسه[1] ، ثم ما لبث حين استوى عود الرجز لديه أن أقلع عن ذلك واستقل بأسلوب ونهج يميزانه عن رؤبة وغيره من الرجاز .

(١) الموشح ٣٤٣ .

وأبو نخيلة بالإضافة إلى ذلك كله مداح هجاء ، بل هو يمدح الرجل ، فإذا لم يجزل عطاءه هجاه ، بل إنه يحمل في يده مديحة وفي الأخرى قذيفة ، كل منهما مترصبة الانطلاق ، فإما عطاء بعقبة مديح ، وإما منع يتلوه هجاء، لقد فعل ذلك مع المهاجر بن عبد الله الكلابي وكان بينهما شبه في الخلقة والقوام حتى ليكاد يصعب على المرء إذا اجتمعا سوياً أن يعرف من منهما المهاجر أبو نخيلة ، وفد أبو نخيلة على المهاجر بن عبد الله مادحاً ممتاحاً قائلا ومن من أرجوزة :[1]

يـا دارَ أَمَّ مـالكٍ أَلاَ اسْلِمـي ... عـلى التَّنائِي مِنْ مُقَامٍ وانْعَمي

كيفَ أَنَا إنْ أَنـتِ لـم تَكَلَّمِي ... بالوحْي أَو كيفَ بـأَن تُحَمْحُمي

تقـولُ لي بنْتِـي مَـلامُ اللُّوَّمِ ... يـا أَبَتَـا إنَّـكَ يوْماً مُؤْتِمي

فقلـتُ كـلاَّ فاعلمِي ثُمَّ اعلمِي ... أَنِّي لِميقَـاتِ كتابٍ مُحْكَمَ

لوْ كنتُ في ظلمةِ شِعْبٍ مُظْلِـمِ ... أَوْ فِي السَّماءِ أَرْتَقِـي بِسُلَّمِ

لانْصَبَّ مقدارِي عـلى مُجَرْثَمِي ... إنِّي وربِّ الراقصاتِ الرُّسَّم

وربِّ حـوضِ زَمْـزَمٍ وزمـزِم ... لأَثْنِيَـنَّ الخيـرَ عِنْـدَ مَقْدَمِي

وعنـدَ تَرْحالِـيَ عـنْ مُخَيَّمي ... على ابنِ عبدِ اللهِ قِرْمِ الأَقْرَمِ

فـإِنَّـنِي والعِلْـمُ ذُو تَـرَسُّمِ ... لـمْ أَدْرِ مـا مُهَاجِـرُ التكرُّمِ

حتَّى تَبَثْبَثْـتُ قضايـا الغُشَّـمِ ... مهاجـرٌ يـاذَا النَّوَالِ الخَضْرَمِ

أَنتَ إذا انْتُجِعْـتَ خيرُ مَعْـمِ ... مُشْتَرَكُ النائـلِ جـمُّ الأَنعُـمِ

ولتمـيمٍ منـكَ غيـرُ مَقْسَـمِ ... إذَا الْتَقَوْا سِتًّا معـاً كَالْهُيَّم

---

(١) الأغاني ١٨/٣٤٠ منشورات مكتبة الحياة بيروت .

قـد علِـمَ الشامُ وكـلُّ موْسِمِ أَنَّكَ تحلُو لِـي كحُلْوِ المعْجَـمِ
طوراً وطوراً أَنتَ مثلُ العلْقَـمِ

فلما انتهى أبو نخيلة من أرجوزته أمر له المهاجر بناقة ، ولكن أبا نخيلة استقل هذا العطاء القليل ، فترك الناقة ومضى مغضباً وقال هاجياً :

إنَّ الكِـلابيَّ اللئـيمَ الأَثْرَمَـا أَعْطَى عَـلىَ مَدْحِيهِ ناباً عَزْرَمَا
ما جَبَرَ العظْمَ ولكنْ تَمَّمَا

ألم نقل إنه يحمل في يد مدحاً وفي الأخرى قدحاً ، هذا للعطاء الوفير وذاك للرفد القليل .

على أن الذي نهتم له هنا أمران ، الأمر الأول أن أبا نخيلة مهد الأرجوزة وأسلس قيادها بحيث جعل منها قصيدة مدح كاملة أسباب المبنى المديحي وبذلك انطلق بالرجز إلى ميدان كان موقوفاً على الشعر ، صحيح أن ازاجيز قيلت قبل ذلك في مدح بعض الأمراء ، وقد مر بنا شيء قليل من ذلك ، ولكن الأمر هنا مختلف ، فقد ألبس أبو نخيلة الأرجوزة ثوب القصيدة كاملا محبوكاً بحيث جعل منها وسيلة للامتياح كما جعل منها قصيدة سياسية على ما سوف نوضح بعد قليل . وأما الأمر الثاني فهو أن أبا نخيلة حين مهد الأرجوزة ووطأ أكنافها لكي تحتل مكان قصيدة المديح احتلالا كاملا عمد إلى إضفاء ملامح شعر المديح وتقاليده عليها ، فمن تقاليد شعر المديح وملامحه أن يبدأ الشاعر بالنسيب وذكر الديار ، وهذا هو ما فعله أبو نخيلة في أراجيزه التي كان يمدح بها من يفد عليهم من الأمراء ووجوه القوم .

هذه ظاهرة جديرة بالتنويه والالتفات وهي وإن شارك فيها رجاز آخرون أبا نخيلة وبخاصة في الفترة العباسية حين صار الرجز شعراً أقرب إلى الترف منه

(١) طبقات ابن المعتز ص ٦٤ .

إلى البداوة وأخذ يشارك في ترف الصيد والطرد والقنص ومدح الخليفة ، **إلا أن** أبا نخيلة رائد في هذا الموضوع لأنه جعل من الرجز مزاحماً للشعر في أهم غرض من أغراضه وهو المديح .

(٢)

يمدح الأمويين :

قلنا إن أبا نخيلة كان ثابت الأقدام على أرض العصر الأموي ، ونحن في ذلك لا نعدو الحقيقة ، فلقد وفد شاعرنا على مسلمة بن عبد الملك فقيراً لا يملك شروى نقير على شهرة وصيت في الشعر ، مطروداً من أبيه لعقوق كان فيه وخشونة في أخلاقه دفعت بأبيه إلى أن يضيق به ذرعاً .

دخل أبو نخيلة على مسلمة بن عبد الملك فمدحه بهذه الأبيات الجميلة :

أَمَسْلَمَ إِنِّي يـا ابْنَ كلِّ خَلِيفَةٍ ... ويا فارسَ الهيْجَا ويَا جَبَلَ الأَرْض

شكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكرَ حبلٌ من التُّقَى ... ومَا كلُّ من أَوْلَيْتَهُ حاجةً يَقْضِي

وأَلْقَيْتَ لمَّا أَنْ أَتَيْتُـكَ زائـراً ... رواقاً مديداً سامِقَ الطُّولِ والعَرْضِ

وأَحْيَيْتَ لي ذِكْرِي وما كانَ خامِلاً ... ولكنَّ بَعْضَ الذكرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْض

وهكذا يحرص أبو نخيلة على أن يقرر أمام الملك الأموي أنه غير خامل الذكر ولكن ذكره وصيته سوف يزدادان نباهة باتصاله بهذا الممدوح .

ولما ولي هشام بن عبد الملك عرش بني أمية دخل عليه أبو نخيلة مادحاً راجزاً سالكاً نفس المسلك الذي أشرنا إليه من إلباس الأرجوزة ثوب قصيدة المديح فقال : [1]

---

(١) الأغاني ١٨/٣٣٠ .

لمَّـا أَتَتْنِـي بُغْيَـةٌ كـالشَّهْدِ ... والعَسَلِ الممزوجِ بَعْدَ الرَّقْـدِ

يـا بَرْدَهَـا لمُشْتَـفٍ بالبـرْدِ ... رَعَتْ مـن الجِمـالِ مُسْمَغَـدٌ

وقلـتُ للعيسِ اعْتلِـي وَجِـدِّي ... فهي تُخدِّي أَبْـرَحَ التَّخَـدِّي

قـد أَدَّرَعْـنَ فـي مسيـرٍ سَمْدِ ... ليلاً كليْلِ الطيْلَسانِ الْجَـرْدِ

إلى أَميـرِ المؤمنيـن المُجْـدِي ... ربِّ مَعَـدٍّ وسِوَى مَعَـدِّ

ممن دعا من أَصيَـدٍ ونَجْدِ ... ذِي المجدِ والتشريفِ بعد المجْدِ

في وجهِـهِ بـدرٌ بدَا بـالسَّعْـدِ ... أَنتَ الهُمامُ القَرْمُ عَقْدُ الجدِّ

طوقْتَهـا مجتمَـعَ الأَشَـدِّ ... فانهلَّ لمـا قُمْتَ صوبُ الرَّعْدِ[1]

(٣)

في خضم السياسة العباسية :

وتنقضي دولة بني أمية وتجيء دولة بني العباس فكان طبيعياً أن يمدحهم أبو نخيلة ، ولكن الانتقال من مديح قوم إلى مديح آخرين ممن أتوا على انقاضهم أمر صعب في أول أمره ، غير أن ذكاء الشاعر من ناحية وشهوة سماع المديح عند الملك الجديد من ناحية أخرى تحلان المشكلة حلا سعيداً . يدخل أبو نخيلة على أبي العباس السفاح ويستأذن في الإنشاد ، فيقول له السفاح : لاحاجة

---

(١) العيس الأبل البيض يخالط بياضها شقرة المذكر أعيس والمؤنث عيساء، اعتل ارتفع ، المتخذي الإسراع ، والسمد من سمدت الأبل جدت ، والادراع افتعال لبس الدرع وهو قميص المرأة ، الطيلسان لباس أسود من ألبسة العجم ، الجرد بفتح الجيم الخلق ، المجدي من أجدى عليه يعني أعطاه عطاء كثيرا من الجداء والجدوى بفتح الجيم وهو المطر الذي لا يعرف آخره ، الأصيد الملك ، القرم بفتح القاف السيد ، وأصله الفحل المكرم لا يركب ولا يرحل .

لنا في شعرك ، إنما تنشدنا فضلات بني مروان ، فيقول أبو نخيلة على الفور وقد واتته الفرصة يا أمير المؤمنين :

كنَّـا أنـاساً نَرْهَـبُ الأَمْلاَكَا إذا ركبوا الأَعنـاقَ والأَوْرَاكَا
قـد ارتَجَيْنَـا زَمنـاً أَبَاكَـا ثُـمَّ ارتجيْنَـا بَعْـدَه أَخَاكَا
ثُـمَّ ارتجينَـا بعـدَهُ إِيَّـاكَـا وكانَ ما قلـتُ لمـنْ سِوَاكَا
زُوراً فقدْ كَفَّرَ هَذَا ذَاكَا

بهذه الروح الخفيفة المرحة ، وبهذه البديهة السريعة ينشد أبو نخيلة هذه الأرجوزة الطريفة فتقع من نفس المنصور موقعاً رضياً فيضحك ويجيزه جائزة سنية ويقول له : أجل إن التوبة لتكفر ما قبلها وقد كفّر هذا ذاك [1] .

ويظل أبو نخيلة متصلا بالعباسيين مادحاً لهم ، ويموت أبو العباس فيمدح المنصور في جملة من يمدحون حتى يستغل أبو نخيلة كأداة سياسية لخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد وأخذها لمحمد المهدي ، تماماً كما حدث من معاوية حين أوعز إلى مسكين الدارمي حتى يقول شعراً في أخذ البيعة ليزيد ، وكما فعل جرير في أخذ البيعة لأيوب .

إن الملك العباسي أبا جعفر المنصور يستغل بداوة أبي نخيلة وقد سمع أنه أنشأ أرجوزة تدعو إلى جعل ولاية العهد للمهدي وإزاحة عيسى عنها ، فإذا كان يوم البيعة جيء بأبي نخيلة فأدخل على المنصور فأنشد في جمع من الحضور بينهم عيسى بن موسى :

ليس ولـيٌّ عهدنـا بالأَسْعَـدِ عيسى فَزَحْلِقْهـا إلى مُحمَّـدِ
من عندِ عيسى مَعْهَداً عَـنْ مَعْهَدِ حتى تُـؤَدَّي من يـدٍ إلى يدِ

(١) المصدر السابق ١٨/٣٣٤ .

.... فقد رضِينَا بالغلامِ الأَمْرَدِ وقد فرغْنَا غيرَ أَنْ لم نَشْهَدِ
وغير أَنَّ العَقْد لم يُؤَكَّدِ فلو سمِعْنَا قَوْلَكَ امدُدْ أَمْدُدِ
كانتْ لنا كدعكةِ الوردِ الصدِى فناد للبَيْعَةِ جمعاً نَحْشُدِ
في يومنا الحاضر هذا أَو غدِ واصنَعْ كما شئْتَ ورُدَّ يُرْدِدِ
ورُدْهُ منك ردَاءً يُرْتَدِ فهو رداءُ السابق المقَلَّدِ
وكان يُرْوَى أَنها كأَنْ قَدْ عادتْ ولو نُقِلَتْ لمْ تُرْوَدِ [1]

ويعاود أبو نخيلة مرة أخرى إنشاد أرجوزة في نفس المعنى السياسي ، ويدفع الراجز الشاعر أغلى ثمن لأرجوزتيه وهو حياته فقد أرسل عيسى بن موسى خلفه وهو فار إلى خراسان من حز رأسه وألقى بجسمه للطيور في الفلاة، وهو أمر يبدو طبيعياً لمن كان يتورط في السياسة في أزمان الفتن ، ولكن الأمر الهام أن أبا نخيلة ينقل لنا على عهد العباسيين صورة دقيقة لهدف من أهداف الشعر السياسي كانت على أيام بني أمية حين كان الشعر يسهم إسهاماً بيّناً في ولاية العهد وأخذ البيعة لهذا أو لذاك من أبناء الخلفاء .

(٤)

في الطرديات :

فإذا خرجنا من نطاق المديح وشعر السياسة وجدنا أبا نخيلة رائداً من رواد الرجز في ميدان الصيد والطرد فمن ذلك قوله في طرد عشر نعامات يصفهن[2] :

---

(١) الأغاني ١٨/٣٥١ .

(٢) طبقات ابن المعتز ص ٦٥ ، ٦٦ .

أَنْعتُ مُهْراً سبَطَ القَرَاةِ ... وَرْداً طِمِرًّا مُدْمَجَ السَّراةِ

يغدُو بِنَهْدٍ في اللجامِ عاتِ ... نعائماً عشْراً مُطَرَّدَات

صُكَّ العراقيبِ هُجَنَّعَاتِ ... فانصاعَ وانْصَعْنَ مُوَلِّيَاتِ

ما كان إلاَّ هَاكَهُ وهاتِ ... حتى اجتمعْنَ مُتَنَاغِصَاتِ

بالسَّهْبِ والغَدْرِ من الحمَاةِ ... واختلَّ حُضْنَا هَيْقَةٍ شُوسَاتِ

فانعقرتْ من آخرِ الهَيْقَاتِ ... بغيرِ تَكْبِيرٍ ولا صَلاةِ

كأنها خالِفَةُ السُّراةِ[1]

ذكر ابن المعتز أن لأبي نخيلة أراجيز كثيرة ومشهورة وأورد له عدداً منها وكلها من عيون الرجز ، فإذا كانت أراجيز الطرد لم تظهر بعد أبي نخيلة إلا عند أبي نواس أمكن القول في يسر أن أبا نخيلة يمثل قنطرة هذا اللون من الشعر من العصر الأموي إلى العصر العباسي ، ومن ثم فإن صفة الخضرمة تمثل فيه نقطة انتقال واضحة المعالم بين بعض فنون الشعر في العصرين هما إحلال الارجوزة محل قصيدة المديح بكل ميزاتها وسماتها ، والارجوزة الطردية التي ظهرت بعد ذلك بما يقارب نصف قرن عند أبي نواس كبير شعراء الطرديات في الشعر العربي .

هذا وإن أهمية أبي نخيلة لم تقف عند هذه الميزات التي ذكرنا ، ذلك أن له ميزة أخرى على جانب كبير من الأهمية فهو الذي علم الوليد بن يزيد

(١) القراة أصلها القرا بمعنى الظهر ، الطمر الفرس الجواد ، السراة الظهر ، النهد الفرس الجميل العالي والأصل في النهد الشيء المرتفع ، الهجنعات الطويلات ، متناغصات متزاحمات ، السهب الفرس الواسع الجري ، الحماة عضلة الساق ، الهيقة النعامة ، شوسات طويلة ، خالفة التي تقف بعد تحرك غيرها ، السراة جمع سار .

الشعر[1] وكان الوليد يحبه حباً شديداً ، فإذا عرفنا أي خطر لمكانة الوليد في تطور الشعر العربي وبخاصة شعر الخمر أدركنا خطورة الشاعر البدوي يعمر الذي عرف باسم أبي نخيلة لأن أمه ولدته بجوار نخلة فغلبت عليه هذه الصفة .

لقد كان أبو نخيلة من الشعراء القلائل الذين جمعوا بين قول القصيد وقول الرجز وهي ميزة أخرى له لم تتكرر في كثير من الشعراء وله نماذج طيبة من الشعر الرصين مرّ بعضها في مدح مسلمة بن عبد الملك .

على أن هناك ملحة طريفة تتصل بكل من أبي نخيلة والفرزدق أحببنا أن نثبتها هنا لأنها تدل على أخلاق كل من الشاعرين وسلوكه وبراءة أبي نخيلة وبداوة الفرزدق وكبره إلى حدود الحماقة .

لقد حبس عمر بن هبيرة وهو أمير على العراق الفرزدق لأنه كان هجاه وأبى أن يتقبل شفاعة أحد فيه ، وكان في السجن مع الفرزدق رجل من عجل شفعت فيه بكر بن وائل فأطلق سراحه ، فتقدم أبو نخيلة في يوم فطر إلى عمر ابن هبيرة وأنشأ يقول :

أَطْلَقْتَ بالأَمسِ أسيرَ بَكْرِ ... فهلْ فداك نَفْرِي وَوَفْرِي

من سببٍ أو حجةٍ أو عُذْرِ ... ينجي التميميَّ القليلَ الشكْرِ

مِنْ حَلَقِ القيْدِ الثِّقَال السُّمْرِ ... ما زال مجنوناً على ....[2] الدَّهْرِ

ذَا حَسَب ينمُو وعقلٍ يجري ... هبْهُ لأَخوالِكَ يومَ الفِطْرِ

فأمر ابن هبيرة بإطلاق الفرزدق ، فلما أخرج الفرزدق سأل عمن شفع له ، فقيل له أبو نخيلة ، فعاد إلى الحبس ورفض الخروج منه وقال : لا أريمه ولو متّ ، انطلق قبلي بكري ، وأخرجت بشفاعة دعى ؟ (وكان أبو نخيلة

---

(١) طبقات ابن المعتز ص ٦٣ .

(٢) كلمة نابية فضلنا عدم ذكرها .

مغموزاً في نسبه) والله لا أخرج هكذا ولو من النار ، فأخبر بذلك ابن هبيرة فضحك ودعا به فأطلقه ، وقال وهبتك لنفسك .

إن هذه الحادثة تبين لنا براءة أبي نخيلة وبساطته رغم سلاطة لسانه في الهجاء ، وهي في نفس الوقت تبين جاهلية الفرزدق وصلفه إلى حد القبول بالسجن ورفض الحرية إن جاءت على يد من لا يعدله مكانة وشرفاً .

أبو حية النميري ... – ١٥٨

(١)

أخباره وطرائفه :

نحن أمام شخصية شاعرة فذة مجيدة هي شخصية الهيثم بن الربيع النميري القيسي النزاري الذي عرف في دنيا الشعر باسم أبي حية النميري ، وهو طبقاً لمكانه في هذا البحث من الشعراء المخضرمين بين الأموية والعباسية .

والمتتبع لشعر الهيثم وأخباره يجد أن أخباره وسلوكه الاجتماعي الضحوك الممراح قد جنى على شعره وحال بين الدارسين وبين متابعة فنه الأصيل المتين ، فالهيثم أو أبو حية كان من الظرف وحب الدعابة بحيث يختلق أموراً تروى عنه لكي يدخل السرور إلى قلوب الناس وكان في اختلاقه هذه الدعابات يعمد إلى المبالغات التي جعلت بعض المؤرخين يلصقون به صفات الكذب والجبن والهوج والبخل [١] .

---

(١) الشعر والشعراء ٧٧٤ ، طبقات ابن المعتز ١٤٣ ، الأغاني ١٤٣/١٥ ط بيروت – مكتبة الحياة .

هذه الصفات الكريهة التي نسبت إلى هذا الشاعر العظيم لم تكن من الصحة بمكان، او هي بعبارة أدق لم تكن من الصحة كل الصحة بمكان، فقد كانت له تصرفات مرحة يعمد فيها إلى المبالغة الضاحكة التي جعلت بعض الناس ينسبونه إلى الكذب وما هو بكذاب ولكنه صانع نكتة ، وجعلت آخرين ينسبونه إلى الهوج وما هو بأهوج ولكنه صاحب مرح يدخل السرور على قلوب الناس شأن كثيرين من الفكاهيين المرحين الذين يعيشون في كل زمان ومكان ويوجد منهم الكثيرون حتى في زماننا هذا الذي نعيش فيه وعلى بعد زمني من أبي حية النميري يقارب الاثني عشر قرناً .

فمن طرائف أبي حية قوله : عنّ لي ظبي ذات يوم فرميته ، فراغ من سهمي، فعارضه والله ذلك السهم، ثم راغ ، فراوغه السهم حتى صرعه ببعض الخبارات [1] .

ومن مبالغاته الطريفة قوله : رميت والله ظبية ، فلما نفذ سهمي عن القوس ذكرت بالظبية حبيبة لي فعدوت خلف السهم حتى قبضت على قُذَذِه قبل أن يدركها [2] .

ومن متعلقات أبي حية التي عرف بها سيفه المشهور الذي سماه — ظرفاً وتفكهاً — لعاب المنية ، وربما كان للعاب المنية هذا شأن كبير في تشويه صورة صاحبه عند الناس فلم يتوقعوا أن يصدر عنه شيء جدّي فانصرفوا عن جملة أخباره ، وبالتالي عن جملة أشعاره ، فخمل من جراء ذلك ذكره وأهمل شأنه . والطريف أن لعاب المنية هذا كان كما يصفه الأصفهاني ليس بينه وبين الخشبة فرق ، وكما يقول ابن المعتز : كانت المغرفة أقطع منه ، فضلا عن جبن صاحبه ، وإن كان الجبن لا يعيبه كل العيب من حيث الشاعرية فقد خلق

---

(١) الشعر والشعراء ٧٧٤ ، والبيان والتبيين ٢٢٩/٢ ، والخبارات هي ما لان واسترخى من الأرض وتحفر .

(٢) الأغاني ١٤٥/١٤ ، والبيان والتبيين ٢٢٩/٢ ، قذذ السهم ريشه .

هكذا ، وكان حسان شاعر الرسول جباناً كل الجبن ، ولكن أهم أخبار «لعاب المنية» هذا أن كلباً دخل بيت أبي حية ذات ليلة دون أن يفطن إليه ، فلما أحس به في البيت توهمه لصاً ، فقام على باب البيت واقفاً وقال : أيها المغترّ بنا المجترىء علينا ، جئت والله إلى خيرٍ قليل وسيف صقيل ، ونفس تأبى الضيم وتأنف العار ، جارها آمن ، وعدوّها خائف ، أما سمعت بلعاب المنية ، ثكلتك أمك ؟ مشهورة ضربته ، لا تخاف نبوته ، يقرب الأجل ، ويبطل الأمل ، أخرج بالعفو عنك ، لا أدخل بالعقوبة عليك ، إني والله إن أدع قيساً تملأ الفضاء خيلا ورجلا ، يا سبحان الله ، ما أكثرها وأطيبها . ثم فتح الباب فإذا كلب قد خرج عليه فقال : الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفاني منك حرباً [1] .

وحتى تأخذ القصة نهجاً أكثر فكاهة فقد أضافت رواية ابن المعتز إليها أن أبا حية قعد بعد ذلك ورفض أن يدخل البيت فقيل له : ما لك لا تدخل؟ فقال : لعل اللص في البيت وهذا كلبه قد خرج [2] .

هذه الطرائف ومثيلاتها جعلت بعض المتزمتين من أصحاب الأخبار يغضون من قدره حتى ذهب البعض إلى وصفه بالصرع وذهب آخرون إلى وصفه بالجنون إلى غير ذلك من الصفات التي تنال من قدر الرجال ، ولكن الفيصل في الحكم على فنّ الرجل وشاعريته أشعاره نفسها وتقويمها بالقدر الذي يضعها في مكانها الصحيح من دنيا الشعر ويضع صاحبها في مقامه الحقيقي في دنيا الشعراء .

أما أن أبا حيّة من مقدمي شعراء الدولتين فهذا شيء لا مراء فيه فقد مدح الخلفاء فيهما جميعاً — على رواية الأصفهاني — ولعله يريد أنه مدح جميع الخلفاء الذين عاصرهم من هؤلاء وأولئك ، فقد مدح هشام بن عبد الملك

---

(١) الأغاني ١٥/١٤٣ ، والشعر والشعراء ٧٧٥ .
(٢) الطبقات ١٤٤ .

المرواني ، كما مدح أبا جعفر المنصور العباسي ، غير أن شيئاً من مدائحه لم يصل إلينا باستثناء قصيدة مدح فيها المنصور وهجا فيها بني حسن – يقصد آل الحسن لخروجهم على العباسيين في الحجاز والعراق – يقول فيها : [1]

أَحِينَ شِيمَ فلمْ يَتْرُكْ لهُمْ تِـرَةً ... سَيْفٌ تَقَلَّدَهُ الرِّئْبَالُ دُو اللِّبَدِ
سَلَلْتُمُـوهُ عليكـمْ يا بَنِي حَسَنٍ ... ما إنْ لكُمْ مِنْ فلاحٍ آخِرَ الأَبَدِ
قدْ أَصْبَحَتْ لبَنِي العبَّاسِ صافِيةً ... لجَدْعِ آنَافِ أَهلِ البَغْيِ والحَسَدِ
وأَصْبحَتْ كَلَهاةِ اللَّيْثِ في فَمِهِ ... ومَنْ يُحَاوِلُ شَيْئاً في فَمِ الأَسَدِ ؟

إن مدح أبي حية للمنصور وهجاءه لبني حسن لا يعني أنه كان ذا مذهب سياسي ، بل إن مذهبه في الحياة الذي تصوره أخباره لا يشجعنا على أن نخرطه في سلك مذهب معين أو عقيدة سياسية بعينها ، ولكنه أراد أن يمدح لينال رفداً، ولما لم تكن قصيدته من قوة المديح بحيث تقف مع غيرها من مدائح الشعراء الآخرين على قدم المساواة ، ولما لم يلمس الممدوح فيه صدق المادح وقوة عاطفته فقد أمر له بصلة قليلة لم يكن يتوقعها ودون ما تأملها ، ومن ثم فقد عاد على الفور إلى الحيرة حيث بيوت الخمر ، ودخل إلى واحدة منها وسأل صاحبتها أن تبيعه خمراً بنسيئة أي مؤجل الدفع وقد عمد – كي تستجيب إلى سؤله – إلى بعض التصرفات الشيطانية ، وكانت كلما سقته كأساً خطّت في الحائط خطاً ، فكان يقول في ذلك مستخفاً وكأنه أضمر في نفسه ألا يسدد ثمن ما شرب من كؤوس : [2]

إذَا أَسقَيْتِنِـي كـوزاً بِخَـطٍّ ... فَخُطِّي مَـا بَدَا لَكِ في الجِدَارِ

وبقية الأبيات فيها خروج على الحياء ، والقصة نفسها فيها الكثير من الإباحية[2] وإنما أشرنا إليها حتى تكون من القرائن التي تحول بين أبي حية وبين جدية المشاركة السياسية أو المذهبية .

(١) الأغاني ١٥/١٤٦ .
(٢) الأغاني ١٥ /١٤٦ .

(٢)

غنائيته ووصفه الحديث :

ولكنّ أبا حيّة النميري في ميدان الشعر الوجداني النابع من النفس الدافق من الحس شاعر لا يشق له غبار ، من يتوفر على دراسة شعره يجده شاعراً غنائياً عظيماً يتقدم على كثيرين من ملهمي الشعراء ومتقدميهم في هذا الفن ، غزله عاطفي نفاذ رقيق ، مصور للنفس العاشقة ، رسام للجمال ، يحسن تصوير الحب ومشاعره ، ويجيد ألوان التشبيب ، سحر كثيراً من النقاد المنصفين ومؤرخي الأدب الذين لهم مشاركة في الغوص والدرس واقتناص أسراره وسبر أغواره دون الوقوف على السطح وسرد الأخبار بغير وعي ، وترديد بعض أقوال الأقدمين دون الإحاطة والمراجعة والوقفة المتبصرة والنظرة الفاحصة .

لقد ذهب كثيرون من النقاد القدامى والأساتذة العظام إلى إطرائه والثناء عليه مثل المبرد والحصري والشريف الرضي وابن المعتز وأبي تمام وابن الشجري ، فالحصري القيرواني يقول : إنه جيد الطبع مألوف الكلام رقيق حواشي الشعر[١] ، وأبو عمرو يفضّله على الراعي ، والراعي كما نعلم واحد من فحول الشعر فيقول : هو أشعر في عظم الشعر من الراعي[٢] والشريف المرتضي يشبه غزله لصدقه وعمقه بغزل مجنون بني عامر[٣] ، ويقول ابن المعتز : ما رأيت ذكياً ولا عاقلا ولا كاتباً ظريفاً إلا وهو يتمثل من شعر أبي حية النميري بشيء[٤] .

فلنستعرض إذن أمثلة من شعر أبي حية لنرى مقدار إجادته ومبلغ ترجمته عن ذات نفسه في غنائه الصادر عن حب وعشق جعلاه يطلق هذا الغناء الرقيق في نطاق من جزالة الأسلوب وإطار من فخامة القول :[٥]

---

(١) زهر الآداب ٢١٩/١ .
(٢) الأغاني ١٤٤/١٥ .
(٣) أمالي المرتضى ٤٤٧/١ .
(٤) الطبقات ١٤٦ .
(٥) أمالي القالي ٢٨١/٢ وزهر الآداب ١٤/١ .

وخَبَّرَكِ الواشونَ أَنْ لَنْ أُحِبَّكُمْ ... بَلَى وَسُتورِ اللهِ ذاتِ المحارمِ

أَصُدٌّ وما الصَّدُّ الذي تَعْلَمِينَهُ ... عزاءً بكمْ إلاَّ ابتلاعُ العلاقِمِ

حياءً وبُقْيَا أَنْ تَشِيعَ نَمِيمَةٌ ... بِنَا وبكُمْ ، أُفٌّ لأَهْلِ النَّمَائِمِ

وإنَّ دماً - لوْ تَعْلمينَ - جَنَيْتِهِ ... على الحَيِّ ، جاني مِثْلِهِ غيرُ سَالِمِ

أَمَا إنَّهُ لوْ كان غيرُكِ أَرْقَلَتْ ... إليهِ القَنَا بالرَّاعِفَاتِ اللَّهاذِمِ

ولكنَّهُ واللهِ ما ظَلَّ مُسْلِماً ... كَغُرِّ الثَّنَايَا واضحاتِ الملاغِمِ

إذَا هُنَّ سَاقَطْنَ الأَحاديثَ لِلْفَتَى ... سقاط حَصَى المرْجانِ مِنْ كَفِّ ناظِمِ

رَمَيْنَ فأَقْصَدْنَ القلوبَ ولا تَرَى ... دماً ماثِراً إلاَّ جَوىً في الحَيَازِمِ[1]

ولا ينبغي المرور على الأبيات السابقة دون أن نقف على البيت الأول وما فيه من قسم تحبب المرء في القسم رغم كراهية ذلك ، لقد جعل أبو حية من القسم نغمة موسيقية تصافح الأذن في رقة وسماحة، إنه يقسم بستور الله ذات المحارم التي تحتمل معاني الإسلام مجملة وقد تعني الكعبة بيت الله ذات الستور ، ومهما كان الأمر فهو قسم رقيق ألف الشاعر أن يقسم به في أكثر من قصيدة، والبيت الثاني من القصيدة فيه هو الآخر معنى طريف فإذا كان الحب مر المذاق عند جمهرة المحبين ، فإن المرارة عند أبي حية تقع في الصدّ نفسه ، الذي يضطر إليه اضطراراً ، حياء منه وخوفاً من أن تشيع النميمة بينه وبين محبوبه ويمشي الناس بينهما بالوقيعة .

وأبو حية من البارعين في وصف أحاديث النساء ، تلك الأحاديث الساحرة

---

(١) العلاقم واحدها علقم وهي القطعة من كل شيء مر . أرقلت أسرعت والأرقال ضرب من السير السريع ، الراعفات الرماح يسيل منها الدم ، اللهازم القاطعات من الألسنة والمفرد لهذم . الملاغم ما حول الفم . الماثر السائل ، الحيازم مفردها حيزوم وهي ضلع الفؤاد وما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر ، أقصدن القلوب رمينها .

التي تتناثر كلماتها كتناثر حصى المرجان من كف ناظمها أو من سلك ناظمها كما جاء في بعض الروايات ، فإذا هي تنفذ إلى القلوب فلا تدميها ولكن تحرقها بنار الجوى وحرارة شوق الصدور :

إذَا هُنَّ ساقَطْنَ الأَحاديثَ لِلْفَتَى
سُقُوطَ حَصَى المرْجَانِ مِنْ كَفِّ ناظِمِ
رَمَيْنَ فأَنْفَذْنَ القلوبَ ولا تَرَى
دَماً مائِراً إلاَّ جَوىً في الحيَازِمِ

ويتمم الشريف المرتضى هذه القصيدة بستة أبيات أخرى ويضعها في مكان الاستحسان وإن اختلفت روحاً عن الأبيات السابقة لما فيها من مادية صرفة وبداوة في الألفاظ تجعلها إلى حدّ ما متباينة عن سابقاتها فضلا عن اختلاف الروح والمذهب بين هذه وتلك ولكنها على كل حال فيها قوة بناء وفحولة إنشاء [1] :

كأَنْ لمْ أُبَرَّحْ بالغُيور وأَقْتَتِلْ
بِتَفْتِيرِ أَبْصارِ الصِّحاحِ السَّقَائِمِ
ولمْ أَلْهُ بالحِدْثِ الأَلَفِّ الذي لهُ
غَدَائِرُ لمْ يُحْرَمْنَ فَارَ اللَّطَائِمِ
إذَا اللهْو يَطْبِينِي وإذْ أَسْتَمِيلُه
بِمُحْلَوْلِكِ الفَوْدَيْنِ وَحْفِ المَقَادِمِ
وإذْ أَنَا مُنْقَادٌ لِكُلِّ مُقَوَّدٍ
إلَى اللهْوِ حَلاَّفِ البَطَالاتِ آثَمِ

(١) آمالي المرتضى ١/٤٤٤ .

مُهِينُ المطايَـا مُتْلِـفٌ غيرَ أَنَّنِي
على هُلْكِ ما أَتْلَفْتُـه غيرُ نـادِمِ
أرى خَيْرَ يَوْمَيَّ الخسِيسَ وإنْ غَلاَ
بِيَ اللَّوْمُ لمْ أَحْفِلْ مَلاَمَةَ لائِمِ [1]

وفي مقام الحب والصدّ وهو المعنى الذي قصد إليه أبو حية في مستهل قصيدته السابقة يعمد الشاعر مرة أخرى إلى شرح مكنون فؤاده وتعففه عن زيارة البيت الذي يحب مشيراً إلى المفسدين الغاضبين النمامين ، وهي أمور درج على على ذكرها المحبون في كل زمان ، ولكنْ لأبيات أبي حية هنا وقع جميل في النفس للاحساس بما تشتمل عليه من صدق ولبراعة الشاعر في تصوير خلجات نفسه في يسر وسماحة وفي غير ما تعسف أو تكلف :[2]

أَصُدُّ عن البيْتِ الحبيبِ وإنَّنِي ... لأُصْغِي إلى البيْتِ الذي أَتَجنَّبُ
أَزورُ بيوتـاً غيْـرَهُ ولأَهْلُـهُ ... عَلَى ما عدَا عَنْهُمْ أَعَـزُّ وأَقْرَبُ
وقَطَّـعَ أَسبـابَ المـودَّةِ مَعْشَرٌ
غَضَابَى ، وهلْ في أَحْسَنِ القَوْلِ مَغْضَبُ
وأَلاَّ تَنِـي يا أُمَّ عَمْرٍو نَمِيمَـةٌ ... تَدِبُّ بها بَيْنِي وبَيْنَكِ عَقْرَبُ
ومَا بَيْنَنَا لوْ أَنَّهُ كـانَ عالِمـاً ... بذاكَ الأُلَى يُولُونَ ما يَتَرتَّبُ

---

(١) كأن لم أبرح أي كأن لم أعذب ، الغيور يعنى به زوجها أو أخاها ، أقتتل أقتل. الحدث المحادث، الألفُّ عظيم الفخذ ، الفار نافجة المسك ، اللطائم جمع لطيمة وهي القافلة التي يكون فيها المسك . طباه دعاه ، الفودان معظم شعر الرأس مما يلي الأذنين ، الوحف الشعر الكثيف الأسود ، المقادم مقدمات الرأس . حلاف البطالات أي حلاف في البطالات . خير يومى الخسيس أي أحب أيامي إلى اليوم الخسيس عند أهل الرأي والعقل .

(٢) آمالي المرتضى ١/٤٥٠ .

حَدِيثٌ إِذَا لَمْ تَخْشَ عَيْناً كأَنَّهُ ـ إِذَا ساقَطَتْهُ ـ الشَّهْدُ بل هو أَطْيَبُ
لَو انَّكَ تَسْتَشْفِي بِهِ بَعْدَ سَكْرَةٍ مِنَ الموتِ كانتْ سَكْرَةُ الموتِ تَذْهبُ

ويبني الشاعر كل فكرته الجميلة على الحديث ، حديث النميمة الذي يوقع به بين المحبين قوم غضابى ، وفي مقام الاستغراب يقول الشاعر المحب : هم ينقلون إليك بالنميمة عني قولا وليس حديثي إلا أحسن القول ، هو صدى لحديثك الذي هو الشهد ذلك الذي لو استشفى به من كان في سكرات الموت لذهبت عنه سكرة الموت ، إنها مبالغة في المعنى ولكنها مبالغة عذبة :

حديثٌ إِذَا لَمْ تَخْشَ عَيْناً كأَنَّهُ
إِذَا سَاقَطَتْهُ الشَّهْدُ أَوْ هُـو أَطْيَبُ
لوَ انَّكَ تَسْتَشْفِي بِهِ بَعْدَ سَكْـرةٍ
مِنْ الموتِ كادَتْ سَكْرَةُ الموْتِ تَذْهَبُ

لقد تسابق الشعراء قبل أبي حية وبعده في وصف حديث الغانيات فالنابغة الذبياني يقول :

لَوْ أَنَّها عَرَضَتْ لأَشْمَطَ راهِـبٍ عَبَدَ الإِلَـهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّـدِ
لَرَنَا لِلَهْجَتِها وَطِيـبِ حَدِيثِهَـا وَلَخَالَـهُ رَشَداً وإِنْ لمْ يَرْشُدِ

والقطامي يقول : [1]

وفي الخُدُورِ غمامَاتٌ بَرْقَنْ لَنَـا
حتَّى تَصَيَّدْنَنَـا مِنْ كلِّ مُصْطَادِ
يَقْتُلْنَنَـا بِحَدِيـثٍ ليسَ يَعْلَمُهُ
مَنْ يَتَّقِينَ وَلاَ مَكْنُونُـهُ بَـادِ

(١) الشعر والشعراء ٧٢٣ .

ويقول كثيّر وقد مرَّ ذكر البيتين :

نَظَرْتُ إليهَا نَظْـرةً وهْيَ عَاتِـقٌ
عَلَى حين أَنْ شَبَّتْ وبَانَ نُهُودُهَـا
مِنَ الخَفِراتِ البِيضِ وَدَّ جَلِيسُها
إذَا ما انْقَضَتْ أُحْدُوثةٌ لو تُعِيدُهَا

ويقول سُدَيف معاصر أبي حية وقد سبق ذكر البيت عند الحديث عن سديف :

وإذا نطقْـنَ تَخَالُهُـنَّ نَوَاظِمـاً دُرّاً يُفَصَّلُ لُؤْلُـؤاً مَنْظُومَـا

ويقول بشار وهو أيضاً معاصر لأبي حية :

وكـأَنَّ رَجْـعَ حديثِهَـا قِطَـعُ الرِّيَـاضِ كُسِينَ زَهْـرَا
حَـوْرَاءُ إنْ نَظَـرَتْ إليْـ ـكَ سَقَتْـكَ بالعَيْنَيْنِ خَمْرَا

ويقول أبو تمام وقد جاء بعد أبي حية بطبيعة الحال :

تُعْطِيكَ مَنْطِقَهـا فَتَعْلَـمُ أَنَّـهُ لِجَنَى عُذُوبَتِـهِ يَمُـرّ بِثَغْرِهَـا
وأَظُـنُّ حَبْـلَ وِصَالِهـا لِمُحِبّها أَوْهَى وأَضعَفُ قُوَّةً مِنْ خَصْرِهَا

ويقول البحتري :

وَلَمَّا التَقَيْنَا واللِّوَى مَوْعِدٌ لنَـا
تَعَجَّبُ رَائِي الدُّرِّ حُسْناً ولاَ قِطُـهْ
فَمِنْ لُؤْلُؤٍ نَجْنِيـهِ عَنْـدَ ابتسَامِها
ومنْ لُؤْلُؤٍ عنْدَ الحَديث تُسَاقطُـهْ

هذه كلها صور للحديث كما حلا لكبار الشعراء أن يتصوروه ، ولكل أبيات خيالها وبراعة صوغها ، ولكننا لا نزال نجد براعة في تصور ذلك الحديث الذي يشفي المحتضر في سكرة الموت إذا ما صافح أسماعه ، وهو الصورة الرائعة التي جاء بها الشاعر الذي عرفه المؤرخون بالحماقة والبخل والصرع والجنون ، إنه على كل حال بعيد عن كل هذه الصفات وهو يسخو علينا بهذه المعاني المستحدثة والأخيلة الخصيبة الخلابة .

ووصف حديث النساء بهذه البراعة يستتبع وصف الثغر الذي ينطلق منه الحديث في نطاق الصور العذبة التي مرت بنا لأبي حية ولغيره من الشعراء ، وأبو حية عندما يصف ثغر محبوبته يقدم صوراً متتابعة رائعة من المعاني الطريفة الشاعرة في نطاق موسيقى غامرة فيقول [1] :

سَقَتْني بِكَأْسِ الحُبِّ صِرْفاً مُرَوَّقاً
رِقــاقَ الثَّنايــا عَذْبــةَ المُتَرَيِّــقِ
وخُمْصَانَــةٍ تَفْتَــرُّ عــنْ مُتَنَضَّدٍ
كَنَــوْرِ الأَقَاحِــي طَيِّــب المتَذَوَّقِ
إِذَا امْتَضَغَتْ بَعْدَ امْتِتَاع من الضُّحَى
أَنَابِيبَ مِنْ عُود الأَرَاك المُخَلَّــقِ
سَقَتْ شُعَبَ المِسْواكِ مَــاء غَمَامَةٍ
فَضيضاً بخُرْطُــوم الرَّحيقِ المُرَوَّقِ[2]

---

(١) زهر الآداب ٢٢٧/١ وأمالي المرتضى ٤٤٨/١ .

(٢) راق السحاب وتريق إذا لمع ، ويجوز أن يكون الترق من الريق. خمصانة ضامرة البطن . المخلق المدهون بالخلوق وهو ضرب من الطيب ، والامتتاع الارتفاع ومنها النهار الماتع ، الفضيض ما تناثر من الماء ، الخرطوم : سلاف الخمر وهو أول ما يخرج من غير عصر .

وقد يستلفت النظر تلك الصورة البارعة التلوين والتكوين التي رسمها الشاعر في مسيرة وصفه وانطلاقته للمسواك ، ولعل هذه الصورة في نظرنا من أجمل ما قيل في المسواك فضلا عما قيل في وصف الثغر .

(٣)

تجسيم الصورة الغزلية الرفيعة :

ومن صور الغزل الدافىء والصبابة الحارة عند أبي حية شكواه من فتاة اسمها «رميم» ضمنت عند جاراتها على حد تصوره دوام هيامه بها وتعلقه بحبها وهي ترميه بوفرة ، ولكنه غير قادر على رميها لأن عهده بالنصال قد أصبح قديماً، ربما لتدين يتمسك به أو شيب قد غزا لمته ، أو تقوى وعفة لا يريد أن يجرحهما، إنه يعبر عن كل هذه المعاني «بستر الله» . ونحن نلاحظ أن أبا حية يعمد كثيراً إلى ذكر المعاني الإسلامية والإفصاح عن ظاهرة التقوى والتدين فقد سبق أن قـــال :

وخَبَّركِ الواشُونَ أَنْ لَنْ أُحبَّكُـمْ
بَلَى وَسُتُـورِ الله ذَات المحـــارِم

وهو هنا في أبيات كلفه برميم وغرامه بها يقول : (١)

رَمَتْنِي وَسِتْرُ الله بَيْنِـي وَبَيْنَهـا عَشَيَّـةَ أَحْجَار الكِناسِ رَمِيمُ
رَمِيمُ التي قالتْ لجاراتِ بَيْتِهـا ضَمنْتُ لكمْ أَلاَّ يزال يَهيمُ
أَلاَ رُبَّ يوْم لوْ رَمَتْني رَمَيْتُهـا ولكنَّ عَهْدي بالنِّصال قَديمُ

(١) زهر الآداب ٢١٩/١ .

فيـا عَجَبـاً مـنْ قَاتِلِ لِي أَوَدُّهُ أَشَاطَ دَمي شخْصٌ عـليَّ كريمُ
يَرَى الناسُ أَنِّي قدْ سَلَوْتَ وأَنَّني لَمُدْمِنُ إِخْناءِ الضَّلوع سَقيمُ [1]

إن المبرد صاحب الكامل يعجب كل الإعجاب بهذه الأبيات ويفضلها على كثير من الشعر لبعدها عن التكلف وسلامتها من التزيد ولبساطتها وسماحتها [2] .

وفي مقام الغزل الرقيق والصوغ البارع والشكوى الآسرة والشجن الملح والحرمان الممض يصبّ أبو حية كل ما تدفق من وجدانه من فيض، يقول الهيثم أبو حية : [3]

كَفَى حَزَناً أَنِّي أَرَى الماءَ مُعْرَضاً لِعَيْني ولكنْ لا سَبيلَ إلى الوِرْد
وما كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تكونَ مَنيَّتِي بكَفٍّ أَعَزِّ الناسِ كُلِّهِمُ عِنْدِي.

ومن صور الغزل المتناهية الرقة التي عمد فيها أبو حية – على طريقته – إلى رسم الحركة الرشيقة المتتابعة قوله :

رَمَتْـهُ فتـاةٌ مـنْ ربيعـةِ عامـرٍ
نؤومُ الضُّحَى في مأْتَـمٍ أَيِّ مأْتَمِ
فقُلن لها في السِّر نَفْدِيكِ ، لا يَرُحْ
صحيحاً ، فإِنْ لم تقتليـه فَأَلْمِـمِ
فأَلْقَتْ قِنَاعاً دونَهُ الشمسُ واتَّقَتْ
بأَحْسَن مَوْصُولين : كفٌّ ومِعْصَمِ

(١) ستر الله أراد به الاسلام أو التقوى أو الشيب ، الكناس اسم لموضع ، أشاط أحرق .
(٢) الكامل ١٢٩/١ .
(٣) زهر الآداب ١٩٨/١ .

وقالتْ : فلما أَفْرَغَتْ فـي فؤادِهِ
وعيْنَيْهِ منها السِّحرَ قالتْ لهُ نَـم
فأَصبحَ لا يَدْرِي أَفِي طلعةِ الضُّحَى
تَروَّحَ أَمْ داجٍ من اللَّيلِ مُظْلِـمِ

إنها صورة فريدة لعبث نسوة تجمعن في مجلس وتآمرن على الفتى فعمدت واحدة منهن إلى تنفيذ خطتهن وهن يؤلبنها عليه ألا تتركه يروح صحيحاً بل مختل الفكر مشتت العقل، فتعمد الفتاة إلى إنزال قناعها، فإذا الشمس من خلفه، فتوقع به، وإذا هي توغل في الإيقاع به فترفع ذراعها البض إلى وجهها تتقي نظرة الفتى إليها، ثم تتمادى فتفرغ كل سحرها في قلبه وعينيه وكأنها تنومه مغناطيسياً حسب التعبير الحديث ، وأخيراً تركته مخبولا مأسوراً لا يدري أفي ليل هو أم في نهار .

إنها على كل حال صورة ساحرة افتتن بها النقاد والدارسون ورووهابرواياتٍ شتى باختلاف بسيط في مطلع الأبيات، أو لعل الأمر لا يزيد عن اجتهاد الاقتباس عند كل من اهتم بتلك الصورة يستوي في ذلك الشريف المرتضى في أماليه والحصري في زهر الآداب والمرزوقي في شرحه للحماسة .

والبيت قبل الأخير على روعته مأخوذ على كل حال من بيت النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسْقَاطَـهُ
فَتَنَاوَلَتْـهُ واتَّقَتْنَـا باليَـدِ

ولكن صورة أبي حية أرق وأجمل وأمتع .

ويقدم الهيثم صورة شعرية أخرى رائعة يعبر من خلالها عن صبابة مبرحة ونفسية محبة شفافة ، صورة تبدو فيها بواكير الصنعة وإطلالات فن البديع ولكن في غير ما تعسف ولا تعمد ، إنها صورة عين المحب المترقرقة فيهـا

الدموع تحجب ناظريه تارة حين تذرف وتترك له الرؤيا تارة حين تنحسر . صورة لا يمكن أن تصدر عن مصروع أو أهوج أو أحمق أو مجنون كما صورته كتب الأخبار ، أو لعل أبا حية كان عاقلا حين يكتب الشعر ومجنوناً فيما عدا ذلك من أوقات :

نَظَرْتُ كأَنِّي مِنْ وراءِ زُجَاجَةٍ
إلى الدَّارِ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ أَنْظُرُ
بِعَيْنَيْنِ طَوْراً تَفْرِقَانِ مِنَ البُكَا
فأَعْشَى وطَوْراً تَحْسِرَانِ فَأُبْصِرُ

لو وجد هذان البيتان من المعجبين من فضّلهما على سائر الشعر بمختلف أبوابه وفنونه ، ينسب الشريف المرتضى إلى هارون بن علي قوله : لو اعترضني مملك تجب طاعته ويلزم الانقياد لأمره ، فقال أي شعر أجود وأولى بأن يستحسن ؟ ولم يفسح لي أن أميز المدح من الفخر ، والهجاء من التشبيب ، وسائر أصناف الشعر ومذاهب الشعراء لما عدلت عن هذين البيتين [1] .

ومن صور الحب المكتملة كل أسباب النضج الفني قول أبي حية [2] :

مِنَ المُبْكِيَاتِ الجِلْدَ حَتَّى كأَنَّما تَسِحُّ بِعَيْنَيْهِ الدُّمُوعُ شَعِيبُ
لَيَالِيَ أَهْلاَنَا جَمِيعٌ وحَوْلَنَا سَوَائِمُ مِنْها رائِحٌ وغَرِيبُ
وإِذْ يَتَجَنَّبْنَ الذُّنُوبَ ومَا لَنَا إِلَيْهِنَّ إِلاَّ وُدُّهُنَّ ذُنُوبُ

أرأيت أجمل منطقاً أو أرق صوغاً من هذا المنطق وتلك الصياغة وهذا النفس الشعري الطيب ، لعل في ذلك الكفاية من غزله وشكواه وحبه فلننتقل إلى باب آخر من الشكوى .

---

(١) أمالي المرتضى ١/٤٣٩ .
(٢) المصدر السابق ١/٤٤٩ ، ٤٥٠ .

(٤)

بكاء الصبا والشباب :

أبو حية شاعر رقيق النفس مهتاج الفؤاد له عينان ألوفان ينهلان من غصص الهوى وعند سماع نوح الحمام :

تجودُ لكَ العيْنَانِ مِنْ ذِكْرِ ما مضَى
إذَا ضَنَّ بالدَّمْعِ العيُونُ الغَوَارِزُ
أُلُوفَان يَنْهَلاَّنِ مِنْ غُصَصِ الهَـوَى
كما انْهَلَّ شَقٌّ غَيَّبَتْـهُ الجَـوَارِز
يُهَيِّـجُ لِي نَـوْحُ الحَمَامِ صَبَابَةً
ونَوْحُ مُرِنَّاتٍ شَجَتْهـا الجنَائِزُ [1]

هذه النفس المؤلفة على الحب الموهلة في الشكوى لا بد لها من أن تبكي على أجمل مراحل العمر وأمرعها وأخصبها ولا بد لها أن تشكو ذهوبها وأن ترثي ارتحالها ، وهكذا كان حال أبي حية مع ذهاب الشباب وتوليه ومجيء الشيب وتجليه ، إنه يروي قصة حزنه على الشباب كأرق ما تروى القصص الحزينة عامداً فيها إلى التفصيل والشكوى ولكن على طريقته السهلة الشفافة : [2]

زمـانَ الصِّبَـا ليْتَ أَيَامَنَـا رَجَعْنَ لَنَـا الخاليات القِصارَا
ليالِيَ رَأْسِي غُـرَابٌ غُـدافٌ فَطيَّـرهُ الشَّيْـبُ عَنِّي فطارَا
ولا يُبْعِـدُ اللهُ ذاكَ الشَّبَـابُ وإنْ كـانَ لاَ هُـوَ إلاَّ ادّكَارا

---

(١) ابن المعتز ١٤٤ .
(٢) المصدر السابق ١٤٥ .

فأَصْبَحَ مُونِقُـــهُ مُمْحِـــلاً جَدِيبـــاً خَرَابـــاً يَبَاباً قِفَـــارَا

....وهازئـــةٍ إذ رأَتْ كَبْـــرةً تَلَفَّـــعَ رأسي بِهَـــا فاستَنَـــارَا

فإمَّـــا تـــرى لِمـــتى هكـــذَا فَأَكْثَرْتِ ممَّـــا تَرَيْـــنَ النِّفَارَا

فقدْ أَغْتَدِي وَهْيَ هَـــمُّ الحِسَانِ وقد أَسْلُبُ العَطِـــرَاتِ الخِمَارَا

وقدْ كنتُ أَسْحَبُ ذَيْـــلَ الصِّبَـــا وأُرْخِـــي على العَقِبَيْـــن الإزَارَا

وإذا كان أبو حية قد صور شيبه هذا التصوير الدقيق متذكراً أيام شبابه الذي كان هدفاً للحسان حينما كان يسحب ذيل الصبا ، فإنه وقد عاش الشيب فترة طويلة يبدي تذمره من مصاحبته ويظهر سخطه على معاشرته ويتمنى لو كان الذي ترحل عنه هو الشيب وليس الشباب : (١)

ترحَّلَ بالشَّبابِ الشَّيْـــبُ عنَّـــا فليْتَ الشَّيْبَ كانَ بِـــه الرَّحِيلُ

وقَدْ كانَ الشَّبَابُ لنـــا خَلِيـــلاً فَقَـــدْ قَضَّى مآرِبَـــهُ الخليـــلُ

لَعَمْـــرُ أَبي ، الشبابُ لقد تولَّ حَمِيداً مَا يُرَادُ بـــهِ بديـــلُ

إذِ الأَيَـــامُ مُقْبِلـــةٌ علينَـــا وظِـــلٌّ أَرَاكَـــةِ الدُّنيا ظَلِيلُ

إن الشيء الطريف هنا هو أن أبا حية أراد أن يبدي سخطه وبرمه بالمشيب فقدم لنا من حيث لا يحتسب وصفاً جميلا للشباب وظله الظليل .

ويرسم أبو حية للشيب صورة كريهة كل الكراهية لدى هؤلاء الذين كانوا أطلقوا العنان لمغامراتهم إبان الشباب ، فالواحد من هؤلاء لا يكاد يقترب من الصبايا حتى يزددن منه بعداً ويمنعنه وصلا كان يُعطاه أيام الشباب : (٢)

---

(١) أمالي المرتضى ٤٤٤/١ وحماسة ابن الشجري ٢٣٩ .

(٢) حماسة البحتري ١٩٧ .

أَخُو الشَّيْبِ لا يَدْنُو إلى الحُورِ بالهَوَى
لِيَقْرُبُ إلاَّ ازْدَادَ فِي قُرْبٍ بُعْـدَا
يُعَاطِينَهُ كأْسَ السُّلُـوِّ عَن الهَـوَى
ويَمْنَعْنَهُ وَصْـلاً يُعَاطِينَهُ الْمُـرْدَا

على كل حال هي حالة كريهة عند أبي حية ، تلك التي رمت به إلى متاهات الشيب فكان في بلواه يلبس ثوب اليائس ويشكو شكوى البائس . فأصبحنا نحس أنه فقد عاطفته الفياضة تلك التي امتعتنا بشعره الوجداني ، وخمدت جذوة حيويته الدافقة التي كان الشباب يرفدها بأسباب من الإحساس يترجم عنها الشاعر بالقول الشامخ والشعر الرصين ، فلنعد إلى فيض عاطفته مرة ثانية ولكن في مقام الحزن والبكاء على زوجته التي افتقدها فصور كل أخزانه عليها وهمومه بفقدها شعراً ربما لم يقله شاعر آخر في زوجته باستثناء جرير من قبل ومحمد بن عبد الملك الزيات من بعد ، وإن كان رثاء هذا وبكاء ذاك يختلفان إلى حد كبير عن بكاء أبي حية .

(٥)

أبو حيّة يبكي زوجته :

مرّ بنا في مقام الغزل كيف يحمل أبو حية بين جنبيه قلباً سريع الوجيب دائم الخفقان حيال الغواني ، فقال شعره ذلك الفائق الرقة في الغزل ، الذي أمدته نفس شاعرة وملكة خصبة وقدرة على الصوغ العذب المنثال في غير ما تعسف ولا تعثر

هذه النفس الشاعرة الخصبة ، وهذا القلب الخفّاق الحساس قد رزىء صاحبهما بفقد زوجة عزيزة عليه ربطها به روابط عدة ، رابطة الحب ورابطة الزوجية ورابطة القرابة القريبة فقد كانت ابنة عمه ، ورابطة أمومة أولاده ،

فتفيض نفسه هلعاً وتئن جزعاً، فيترجم عن ذلك شعراً إنسانياً حزيناً يودعه كل مواجعه وأحزانه، ويكثر القول في هذه الزوجة الحبيبة الفقيدة بحيث لا يملك قارىء مرثياته فيها إلا أن يشاركه بعض جزعه ويشاطره جانباً من حسرته ، إنه على رواية ابن المعتز ، أشعاره الجياد كلها فيها وفي وصفها في حياتها ومراثيها بعد مماتها ، يقول أبو حية في زوجته [1] :

أَلاَ حَيِّ من أَجْلِ الحبيبِ المَغَانِيَا
لَبِسْنَ البِلَى مِمَّا لَبِسْنَ اللَّيالِيَا
إِذَا مـا تَقَاضَى المـرءَ يـومٌ وليلةٌ
تقاضاهُ شيءٌ لا يَمَـلُّ التَّقاضِيَـا
حَنَنْـكَ الليـالي بعدمـا كنتَ مَرَّةً
سَوِيَّ العَصَا لَوْ كُنَّ يُبْقِينَ بَاقِيَـا
... ولمَّا أَبَتْ إلاَّ التـواءً بِوِدِّهَـا
وتكْدِيرِهَا الشُّربَ الذي كانَ صَافِيَا
شَرِبْتُ بِرَنْقٍ من هَوَاهَا مُكَـدَّرٍ
وكيفَ يَعَافُ الرَّنْقَ مَنْ كان صَادِيَا[2]

إن الصورة التي رسمها أبو حية لحزنه تحمل نوعاً من اليأس الشديد النابع من إحساس بعظم الرزء وثقل المصيبة ففرح يوم يقابله حزن دهر ، وثوب الشباب الغض يتلوه ضعف وشيخوخة وانحناء وارغام على شرب الأكدار، فالصادي لشدة عطشه لا يستطيع إلا أن يشرب الكدر ما دام قد عز عليه الماء العذب الزلال .

---

(١) ابن المعتز ١٤٤ ، ١٤٦ وزهر الآداب ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ .
(٢) رنق الماء كدره ، الصادي العطشان .

إنها أبيات رائعة الصوغ منغمة بالحزن نابعة من أعماق النفس ، ولذلك فإن أبا حية كان يستحسنها ويختارها ترديداً من بين أشعاره الكثيرة الرقيقة ،

لقد عاش أبو حية حتى لقي ابن مناذر الشاعر الماجن على أيام الرشيد فاستنشده شيئاً من شعره ، فقال ابن مناذر على سبيل المعاكسة والتراقع : أو شعر هذا ؟ فأخذ الغيظ من أبي حية كل مأخذ وأجابه : ما في شعري عيب هو شر من أنك تسمعه [1] .

ويبأس أبو حية من كثرة ما سفح من دموع على زوجته فيدفعه اليأس إلى أن يكفها عن التدفق والتحدر فيقول [2] :

اسْتَبْقِ دَمْعَكَ لا يُودِ البُكَـاءُ بِـهِ
واكفُفْ بَوَادِرَ مِنْ عَيْنَيْكَ تَسْتَبِقُ
وما الدُّمُوعُ وإنْ جَـادَتْ بِبَاقِيَةٍ
ولاَ الجُفُونُ عَلَى هَذَا وَلاَ الحدَقُ

(٦)

أبو حية والصحراء :

عاش أبو حية في البصرة وهو لذلك قريب من بيئة الصحراء فتأثر في بعض شعره بلغتها ومناظرها وما يجري فيها من سفر وسري وادلاج شأنه في ذلك شأن كثير من الشعراء الذين وصفوا السري وقالوا في الطيرة والزجر وما إلى ذلك من تلك العادات الموصولة الأسباب بالصحراء وبيئتها وعاداتها ، ومن الطريف أن

---

(١) الأغاني ١٤٧/١٥ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ١٤٦ .

أبا حية لا تتخلى عنه شاعريته وهو يضرب في بحر الصحراء بعد أن أسهم بقدمه المعلى في بحار العاطفة وخضم التشبيب والغناء .

يقدم أبو حية صورة بارعة للسُّرى ويصف بعيره ويجعل منه كائناً يحس إحساس الآدميين في نواحي شتى لعلها تقربه إلى الإنسان فيقول في صورته الدقيقة : [1]

وأَغْيَدَ مِنْ طولِ السُّرَى بَرَّحَتْ بهِ
أَفَانِينُ نَهَّاضٍ عــلى الأَيْنِ مِرْجَــمِ
سَرَيْــتُ بــه حتَّى إذا مَا تَـمَزَّقَتْ
تَوَالِي الدُّجَى عنْ واضحِ اللَّوْنِ مُعْلَم
أَنَخْنَا فلمَّا أَنْ جَرَتْ فِي دِمَاغِــهِ
وَعَيْنَيْهِ كأْسُ النومِ قُلْتُ لهُ : قُمِ
فمــا قــام إلاَّ بَيْنَ أَيْدٍ تُقِيمُــهُ
كما عَطَفَتْ ريحُ الصَّبَا خُوطَ سَاسَمِ
خَطَا الكُــرْهَ مغْلُوبــاً كــأَنَّ لِسانَهُ
لَمَا رَدَّ مِنْ رَجْعٍ لسانُ الْمُبَلْسَمِ
وودَّ بِوُسْطَى الخَمْسِ منــهُ لَوَانَّنَا
رَحَلْنَا وقُلْنَــا فِي المُنَاخِ لهُ: نَمِ[2]

والصورة على بساطتها جميلة وفيها ولا شك شيء من روح عنترة وهو يخاطب حصانه في خضم المعركة في ميميته المشهورة .

---

(١) أمالي المرتضي ٥٤٩/١ .

(٢) المرجم الرجل الشديد ، الساسم نوع من الشجر .

وأبو حية فيه أخلاق أهل الصحراء وعاداتهم وطباعهم ولذلك فهو يتشاءم من الغراب وصباحه ، ولا يكاد يسمعه يشحج حتى ينشد هذين البيتين الرقيقين[1]

غرابٌ ينادِي يومَ لا القلْبُ عَقْلُهُ
صحِيحٌ ولا الشِّعْبُ الذَّي انْصَاعَ مُلْتَقِي
جُزِيتَ غُرابَ البَيْـنِ شَرَّاً لَطَالَمَا
شَجِيتُ بِتَشْحَاجِ الغُرابِ الْمُطَوَّقِ

ولقد كان أبو حية بارعاً كل البراعة في شعر الزجر والطيرة القائم على التفاؤل والتشاؤم ومطاوعة مبنى الكلمات لمعاني السعد والنحس ، وهو ضرب من القول غير مأمون عواقب النجاح ولا يستطيع الخوض فيه إلا شاعر متمكن مدرب له ثقة بنفسه وبشعره من شعراء البداوة خاصة، من أمثال ذي الرمّة واضرابه ، فهذا ذو الرمة مثلا يجنح إلى هذا الضرب من ضروب القول ولكن في حنايا ملحمته البائية المعروفة فيقول :

رأَيتُ غُراباً ساقِطاً فَوْقَ قَضْبَةٍ
مِنَ القَضْبِ لمْ يَنْبُتْ لَهَا وَرَقٌ خُضْرُ
فقلتُ : غرابٌ لاغترابٍ وقَضْبَةٌ
لقَضْبِ النَّوَى ،هذي العِيَافَةُ والزَّجْرُ

فذو الرمة على طريقة الطيرة يربط بين الغراب والغربة ، كما يربط بين القضب وهو الغصن الطويل المنبسط وبين طول النوى ، فلننظر كيف يرد أبو حية هذا الميدان ، وأي الكلمات يستعمل ، وعلى أي طريقة يكيف معناها وأهدافها وإلى أي مدى ينجح في أن يشكل شعراً رقيقاً في نطاق هذا المورد الصعب ، يقول الهيثم أبو حية [2] :

(١) طبقات ابن المعتز ١٤٥ .
(٢) أمالي القالي ٦٩/١ وزهر الآداب ٤٧٧/١ .

بَدا يَوْمَ رُحْنَا عامِدِين لأَرْضِهَا
سَنِيحٌ فقالَ القومُ : مـرَّ سَنِيـحُ

فَهَابَ رجالٌ منهـمُ وتَقَاعَسُـوا
فقُلْتُ لهم : جارِي إليَّ رَبِيـحُ

عُقَابٌ بِإِعْقابٍ من الدارِ بَعْدَمـا
جَرَتْ نِيَّةٌ تُسْلِي المُحِبَّ طَرُوحُ

وقالُـوا حمامـاتٌ فَحُـمَّ لِقاؤُهـا
وطَلْحٌ فَزِيـرتْ والمطِيُّ طليـحُ

وقال صِحَابِي هُدْهدٌ فـوقَ بانـةٍ
هُدًى وبيـانٌ بالنجـاحِ يلـوحُ

وقالوا دمٌ دامتْ مواثيـقُ بَيْنِنَـا
ودامَ لنـا حلوُ الصَّفاءِ صريـحُ

لَعَيْنَاكَ يَـوْمَ البَيْنِ أسرعُ واكفاً
من الفَنَـنِ الممْطُورِ وهو مَـرُوحِ

ونِسْوةِ شَحْشَاحٍ غَيُـورٍ يَخَفْنَـهُ
أَخِي ثِقَـةٍ يَلْهُونَ وهْـوَ مُشِيـحُ

يَقُلْنَ ومـا يَدْرِيـنَ أنِّـي سَمِعْتُـهُ
وهُـنَّ بأَبْـوابِ الخِيَـامِ جُنُـوحُ

أهذَا الذَّي غنَّى بِسَمْـراءَ مَوْهِنـاً
أَتَاحَ لـهُ حُسْنُ الغِنَـاءِ مُتِيـحُ

إِذَا ما تَغَنَّى أَنَّ مِنْ بَعْدِ زَفْرَةً
كما أَنَّ مِنْ حرِّ السِّلاحِ جَرِيحُ
وقائلةٍ يا دَهْمُ وَيْحَكِ إِنَّهُ
على غُنَّةٍ في صَوْتِهِ لمَلِيحُ
وقائلةٍ أَوْلِينَهُ البُخْلَ إِنَّهُ
بما شَاءَ مِنْ زورِ الكلامِ فصيحُ
فَلَوْ أَنَّ قولاً يَكْلِمُ الجِلْدَ ، قَدْ بَدَا
بِجِلْدِيَ مِنْ قَوْلِ الوُشَاةِ جُرُوحُ[1]

لقد بدا أبو حية وهو يحاول التلاعب بالألفاظ في سبيل تفاؤله وتشاؤمه ، فيربط بين سنيح وربيح ، وحمامات وحُمّ اللقاء ، وهدهد وهدىٰ ، وبانة وبيان ، ودم ودوام مواثيق الصفاء الصريح ، إلى غير ذلك من ضروب الكلام في الزجرة والطيرة .

غير أن الأمر الذي يستحق ألا نغفله هو أن أبا حية يخلق في ثنايا القصيدة حكاية فخر لنفسه يغني فيها كعادته غناء الحب والتيه بملاحة صوته على غنة فيه وبفصاحته في وصف الكلام المنمق وإن كان في غير صدق ، وبكثرة الوشاة في حقه ، ويعبر عن كثرة حساده والواشين ضده بهذا البيت الطريف :

فَلَوْ أَنَّ قَوْلاً يكْلِمُ الجِلْدَ قَدْ بَدا
بِجِلْدِيَ مِنْ قَوْلِ الوُشَاةِ جُرُوحُ

ومهما يكن من أمر فأبو حية شاعر عملاق ثابت الأقدام ، متمكن من

---

(١) السنيح هو السانح وهو ما يتفاءل به ، الفنن الغصن ، المروح الذي أصابته الرياح ، شحشاح سيء الخلق ، يكلم الجلد يدميه .

فنه ، بنّاء للقصيد ، مفرط الثقة بشاعريته ، والصورة الشعرية عنده مكتملة الأسباب ، وهو أقرب إلى مدرسة الفحول وبالتالي فإنه أطلّ برأسه على العصر العباسي بينما كانت قدماه ثابتين كل الثبات في أرض العصر الأموي ، ومن ثم فهو رغم كونه مخضرماً إلا أنه ثابت الأصول في مدرسة الشعر الأموي أكثر منه مطلا على مدرسة العصر العباسي ولكنه أطل عليها بجلال فن الغزل الذي طوره وأثراه وتفنن في رسم صور الحب وأبدع في تجسيم أحاسيس الوجدان ، الأمر الذي وضعه في مقدمة الشعراء الغزلين وعلى رأس من وصفوا الحديث .

مروان بن أبي حفصة ١٠٥ ـ ١٨٢ هـ

(١)

حب المال والبخل الشديد :

مروان بن أبي حفصة شاعر كبير أصاب شهرة واسعة ومالا كثيراً عن طريق شعره الذي وقفه على المديح دون غيره من أغراض الشعر إلا في حالات قليلة جداً من رثاء أو وصف ، وإذا وردت له مقطوعة شعرية تبدو من ملامحها أنها قيلت في غرض آخر فإن البحث لا يلبث أن يلحقها بقصيدة مديح أو رثاء فأكثر الأبيات التي رويت له منفردة في غزل أو وصف شيب أو طيف خيال كلها أنشئت في الأصل في ركاب مديحة من مدائحه في هذا أو ذاك من الكبار الذين كان يمدحهم مروان .

ومروان مدّاح أصيل مدح كوكبة كبيرة من كبار الملوك والعظماء الذين صادفهم في حياته الطويلة من خلال دولتي بني أمية وبني العباس أو بني هاشم كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم ، لقد مدح الوليد بن يزيد من بني أمية ومدح المنصور والمهدي والهادي والرشيد من بني العباس ، ومدح البرامكة وزراء بني العباس ، كما مدح معن بن زائدة الشيباني ، ممدوحه الأصيل الذي توفر على قول الشعر فيه فاشتهر كلاهما بالآخر اشتهار زهير بهرم بن سنان واشتهار

المتنبي بسيف الدولة .

وابن أبي حفصة من أسرة لها في الشعر نصيب وإسهام، فجده الكبير أبو حفصة كان شاعراً ، وجدّه الأول يحيى بن أبي حفصة كان هو الآخر شاعراً وله مقطوعات من جيد الشعر قيلت في المدح والفخر والذود عن الحمى ، ويدل شعره حتى في نطاق المديح على نفس عالية غير متهالكة ولا متخاذلة شأن كثير من شعر المدائح ، فمن ذلك قوله في الوليد بن عبد الملك لما بويع بالخلافة بعد موت أبيه : [1]

إنَّ المنايا لا تغادرُ واحداً ... يمشي ببِزَّتِهِ ولا ذَا جُنَّهْ
لو كان خلقٌ للمنايا مُفْلِتاً ... كان الخليفةُ مُفْلِتاً منْهُنَّهْ
بكت المنابرُ يومَ ماتَ وإنما ... بكتِ المنابرُ فَقْدَ فارسُهُنَّهْ
لمَّا علاهُنَّ الوليدُ خليفةً ... قُلْنَ ابنَهُ ونظيرَهُ فَسَكَنَّهْ
لو غيرُهُ قرع المنابرَ بعدَهُ ... لنكرْنَهُ فَطَرحْنَهُ عَنْهُنَّهْ

إن مروان قد ورث الشعر فيما ورث من صفات أهله ، وإذا كان بين هذه الصفات ما هو محمود فإن بينها ما هو مرذول مكروه ، فلقد كان مروان بخيلا بخلا شديداً يضعه في مكان الصدارة مع المشهورين من البخلاء الذين أورد الجاحظ أخبارهم ونوادرهم في كتابه «البخلاء» .

لقد ربح مروان بن أبي حفصة من شعره ما لم يربحه شاعر على الإطلاق من شعراء العربية ، فقد كان يتقاضى من بني العباس ألف درهم على كل بيت من الشعر يقوله فيهم ، وهو أول شاعر يتقاضى عن قصيدة واحدة فضلا عن قصائد عديدة رقم المائة ألف ، هذا فضلا عن الأموال الكثيرة الضخمة التي حصل عليها من مروان بن ابي حفصة في حياته ومن ولده شراحيل بعد

(١) الأغاني ١٠/٧٥ .
(٢) الأغاني ١٠/٧٨ ، ٨٠ ، ٨٨ .

مماته[1] ، وأخبار الأموال والمنح التي حصل عليها مروان من ممدوحيه من ملوك بني هاشم ومعن بن زائدة وابنه شراحيل والبرامكة كثيرة تحفل بها كتب تاريخ الأدب ، الأمر الذي لا يستدعي البخل الموغل في الشدة بحيث نال من مروءة الشاعر وسمته وهيئته وسمعته . لقد كان يصل إلى باب المهدي وعليه فرو كبش وقميص خشن وعمامة كرابيس صنعت من الكرباس وهو القماش الخشن الرديء وخف رخيص وكساء غليظ تصدر منه رائحة تؤذي الأنوف[2] في الوقت الذي يصل فيه الشعراء إلى مجلس الملك الهاشمي وهم أشد ما يكونون عناية بلباسهم وأناقة في هندامهم تفوح منهم رائحة الطيب وتأخذهم العين لنظافتهم ورونقهم وهم أقل منه مالا ومنحاً . وكان بخل مروان يمتد إلى مأكله ومسلكه في الحياة ، قال ذات مرة : ما فرحت بشيء قط فرحي بمائة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهدي فوزنتها فزادت درهماً فاشتريت به لحماً .

ورُوي أن جماعة نزلوا على مروان في موطنه باليمامة فأطعمهم تمراً وأرسل غلامه بفَلْس ووعاء ليشتري له زيتاً ، فلما عاد الغلام بالزيت قال له مروان : خنتني ، فقال الغلام : من فَلْس كيف أخونك ؟ قال : أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت .

وكان مروان إذا اشتاق إلى اللحم بعث بغلامه فاشترى له رأساً فأكله ، فسئل لماذا لا يأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء فقال : الرأس أعرف سعره ولا يستطيع الغلام أن يغبنني فيه ، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ، إن مسّ عيناً أو أذناً أو خداً وقفت عليه ، فآكل منه ألواناً ، آكل عينيه لوناً ، وأذنية لوناً ، وغلصمته — أي الجزء بين الرأس والعنق — لوناً ، وأكفى مؤونة طبخه ، فقد اجتمعت لي فيه مرافق ، وأخبار مروان في البخل كثيرة[3] بحيث لا تجعل منه بخيلا وحسب وإنما تجعل منه فيلسوفاً في البخل تماماً

(١) انظر وفيات الأعيان ٤/٢٧٨ .
(٢) الأغاني ١٠/٧٧ .
(٣) الأغاني ١٠/٧٧ — ٨٠ .

مثل سهل بن هارون الذي أفاض الجاحظ في وصف بخله وإيراد عدد من نوادره التي قد تفوقها نوادر ابن أبي حفصة الأمر الذي جعل الجني الشاعر يهجوه لبخله فيصور خلقه تصويراً يجمع بين الطرافة والصدق في قوله [1] :

ثوى اللؤْمُ في العَجْلانِ يوماً وليلةً
وفي دارِ مَرْوَانٍ ثوى آخِرَ الدَّهْـرِ
غدا اللـؤْمُ يبغي مطْرحاً لرحالِهِ
فنقَّبَ في برِّ البلادِ وفي البحْـرِ
فلما أتى مـروانَ خَيَّـمَ عنـدَهُ
وقال رَضِينَـا بالمقـامِ وبـالحشْرِ
وليْسَ لمروانٍ عـلى العُـرْسِ غَيْرَةٌ
ولكـنَّ مروانـاً يغارُ على القِـدْرِ

لقد استوقفتنا هذه الظاهرة الخلقية الكريهة عند مروان لأن طبيعة الشاعر مؤثرة لا شك في شعره ، وقد يكون بخله وحرصه على المال هما السبب الرئيسي في أنه لم يكن يذيع القصيدة بمجرد الانتهاء من إنشائها وإنما كان على حد قوله يقولها في أربعة أشهر وينتخلها في أربعة أشهر ويعرضها في أربعة أشهر [2] . ثم هو بعد ذلك يجعل دائماً الجود والعطاء عنصراً واضحاً صريحاً من عناصر قصيدته مثال قوله :

له راحتـان الجودُ والحتفُ فيهما
أَبى اللهُ إلاَّ أَنْ تضُـرًّا وتَنْفَعـا

أو قوله :

---

(١) الأغاني ١٠/٩٣ .
(٢) الأغاني ١٠/٨٢ .

هُمُ القومُ إنْ قالو أَصابوا وإنْ دُعُوا
أَجابوا وإنْ أَعطوْا أَطابُوا وأَجْزَلُوا

أو قوله :

لا تعدموا راحتيْ معنٍ فإنهمـــا
بالجودِ أَفْتَنَتَا يحـيى بن منصورِ
لمَّـــا رأَى راحتيْ معْـنٍ تدفقتـــا
بنائـلٍ من عطـاءٍ غير منـــزورِ
أَلْقَى المسوحَ التي قد كان يلبسها
وظلَّ للشعـرِ ذا رصْـــفٍ وتَحْبيرِ

أو قوله :

أَبرَّ فما يرجو جـوادٌ لحاقَـهُ
أَبو الفضْلِ سبَّاقُ اللهاميمِ جعفرُ

أو قوله :

كـــأَنَّ البرمكـيَّ بكـلِّ مـالٍ تجـودُ به يـداه يفيدُ مـالا

أو قوله :

إنَّ مَعْناً يحمي الثغور ويعطـي
ماله في العـلا وأَنـــت كذاكـا
لك من فضل بأْسه يعرف البـأْ
سُ كما مـن نداه فضل نداكـا

إن مروان كان يتمثل المال دائماً وهو يمدح، يذكره تصريحاً وليس تلميحاً ويلح عليه الحاحاً شديداً في قالب من تزلف خلق الممدوح وتوريطه ، وهو إذا بكى أو رثى فلا يرثي ولا يبكي إلا معاني النوال أولا ثم تأتي بقية الصفات الأخرى التي كان يتحلى بها الفقيد في الدرجة الثانية :

أَقَمْنا باليمامةِ بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نريدُ به زَوَالاَ
وقلنا أَيْنَ تَرحلُ بعد معنٍ وقد ذهبَ النوالُ فلا نوالا

(٢)

مطلق المديح :

والجدير بالذكر أن هذه الأبيات قد حالت بينه وبين الملك العباسي المهدي في أول رحلة له إليه بعد موت معن ، فحين دخل مروان عليه قال له المهدي ألست القائل ، وذكر البيتين ، وأردف : لقد ذهب النوال فيما زعمت، فلمَ جئت تطلب نوالنا ، لا شيء لك عندنا ، ثم أمر به فجُرَّ برجله حتى أخرج . ولكن مروان المحب للمال الطامع في العطاء يفكر في الصيغة الشعرية التي يرضى بها الملك العباسي فيما لو عاد إليه حتى يجبره على الاستماع إليه وبالتالي إجزال عطائه وصلته، فيهديه ذكاؤه إلى ناحية الحق السياسي في الحكم يجعلها مدخلا إلى المهدي، وكان المهدي ذا علم ولماحية وذكاء حافظاً للقرآن، ومروان يبني فكرته على الآية الكريمة من سورة الأنفال « والذينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ، وهاجَرُوا وجاهَدُوا مَعَكُمْ، فأولَئِكَ مِنْكُمْ، وأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ في كتاب الله، إنَّ اللهَ بكلِّ شيء عَليم» وقد تفسر الآية على أن العباس عم الرسول وجد المهدي قد هاجر مع الرسول وجاهد في سبيل الدعوة فأصبح أولى بإرث الرسول حسب التخريج الذي شاءه مروان، ومن ثم فإن آل العباس أولى بالخلافة من بني أمية . ويلبس مروان فكرته ثوباً

جميلا أخاذاً من اللفظ الرائق والإيقاع الجميل، ويطرق باب المهدي في العام التالي في مجموعة الشعراء الذين كان الملوك العباسيون يفتحون لهم أبوابهم مرة في كل عام فيستهل قصيدته استهلالا يلفت نظر المهدي قائلا :

طرقَتْكَ زائـرة فحـيِّ خيالَهـا بيضاءَ تَخْلِطُ بالجمال دَلالَها
قادتْ فؤادَكَ فاستقـادَ ومثلُهـا قادَ القلوبَ إلى الصِّبا فأَمالَها

فينصت الخليفة وينصت الناس وينطلق مروان في إنشاده حتى يصل إلى بيت قصيده ولب فكرته وأوج خطته قائلا :

هلْ تَطْمِسونَ من السماءِ نجومَها
بِأَكُفِّكُـمْ أَو تستـرون هِلالَهـا
أَو تَجْحَـدون مقالـةً عـن ربِّكـمْ
جبريلُ بَلَّغها النَّـبيَّ فقالَهـا
شهِدَتْ مـن الأَنفالِ آخرُ آيةٍ [1]
بتُراثِهـمْ فأَردتُـم إبطَالَهـا

وهنا يزحف المهدي من صدر مصلاه حيث كان جالساً حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ، ثم يقول لمروان : كم هي ؟ فيقول : مائة بيت ، فيأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف أعطيها شاعر في أيام العباسيين [2] .

لقد كان مروان على جانب كبير من الذكاء في اقتناص المنح والعطايا ساعدته على ذلك قدرته الشعرية وصناعته المستأنية فعوض ما قد حرمه في العام الفائت .

---

(١) يريد قوله تعالى « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ، فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم » .
(٢) الأغاني ١٠/٨٧ ، ٨٨ .

ولكن هذه الحيلة الطريفة التي لجأ إليها مروان في قصيدته اللامية هذه تصلح لمرة واحدة ، ومروان يريد أن يوطد صلته بملوك بني العباس وبمن حولهم فهدفه واضح وهو المـــال ، ولذلك فقد فكر في موضوع يربطه ببني العباس ربطاً طويلا دائماً ، فهداه ذكاؤه إلى الشعر السياسي وطرق موضوع أحقيتهم بالخلافة من بني فاطمة وتقربه إليهم بهجاء منافسيهم ،وكان العباسيون شديدي الحساسية من هذه الناحية لأن الدعوة الشيعية كانت على أشدها ،ولأن العباسيين أنفسهم كانوا قد استغلوا صلتهم بالرسول وبآل عليّ في القضاء على بني أمية ، فصادفت هذه الخطة التي رسمها معن لنفسه رضى وقبولا وحماسة عند المهدي ومن جاء بعده من الملوك العباسيين .

وهنا يجدر بنا أن نؤكد أن مروان بن أبي حفصة لم يكن مخلصاً في ولائه لبني العباس ،إذا كان لا بد له من ولاء ،وإنما كان أموي الهوى والولاء ، فجده أبو حفصة كان مولى لعثمان ثم وهبه لمروان بن الحكم ، وجده الأقرب يحيى كان عاملا من عمال بني أمية ، كما أنه كان شاعراً من شعراء الوليد بن يزيد ، وقد سأله الرشيد عنه ذات مرة وعما إذا كان دخل إليه فأجابه بالإيجاب قائلا : دخلت مع عمومتي إليه ، وهنا قال له الرشيد : فأخبرني عنه ، فأصاب مروان حرج في القول وجعل يتزحزح في مجلسه ، ولكن الرشيد برحابة صدره طمأنه وقال له : إن أمير المؤمنين لا يكره ما تقول فقل ما شئت ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كان من أجمل الناس وجهاً وأشدهم وأشعرهم وأجودهم ، دخلت عليه مع عمومتي ولي لمة فينانة فجعل يغمز القضيب فيها ويقول : ولدتك سكّر[1] وسكر هذه كانت جارية لمروان بن الحكم الجد الأكبر للوليد ثم وهبها لأبي حفصة فأنجبت له هذا الحشد من الأبناء النابهين والأحفاد المرموقين ، وإن مروان لا ينكر هذا الولاء وإنما يسجله شعراً في قوله[2] :

بنو مَرْوَانَ قومٌ أَعتَقُوني ... وكلُّ الناسِ بعدهُمُ عَبيدُ

---

(١) الأغاني ١٠/٨٠/٨١ .

(٢) طبقات ابن المعتز ص ٤٣ .

وإذن فالولاء الأصيل لمروان بن أبي حفصة إنما هو للأمويين دون العباسيين، ولكنه اصطنع الولاء للعباسيين طلباً للمال وانتجاعاً للنوال ، فالولاء هنا ولاء للمال الذي أحبه مروان وكنزه وأصبح حارساً عليه وحرم نفسه من طيبات الحياة التي ييسرها وجود المال ، ولذلك فإن شعره السياسي لا تبدو فيه سمات الصدق أو آيات الانفعال ، وإنما هي بضاعة يقدمها الشاعر ويأخذ ثمناً لها .

وإذن فمن أين أتى مروان غريزة السعي إلى كسب المال والنجاح فيه مع شدة المحافظة عليه والإمعان في البخل ، لعل السبب في ذلك هو ما تذهب إليه بعض الروايات من أن أبا حفصة كان يهودياً فأسلم على يدي عثمان فأثرى وكثر ماله وتولى الخزن لبني أمية[1] فإذا صحت هذه الرواية فإننا نكون قد عرفنا سبب بخل مروان وسبب حرصه على المال وسبب مقدرته الفائقة في جمعه ، إنها بقايا اليهودية في عرقه ، وأثر الوراثة في أخلاقه ، فالصفات المعنوية والملكات تورث من الجدود كما تورث الصفات الخلْقية تماماً .

نعود إلى القول بأن مروان لم يقل شعراً إلا في المديح والرثاء والتهنئة ولم يتعدَّ هذه الفنون إلا في القليل النادر ، وهو يجيد في هذه ولا يجيد في تلك، وحياة مروان الشعرية تنقسم إلى ثلاث مراحل ، كانت المرحلة الأولى مع بني أمية فقد اتصل بالوليد بن يزيد كما مر بنا قبل قليل في حديثه مع الرشيد ، ولكنه لم يذكر ما إذا كان مدحه هذه المرة . ولكن مروان يذكر في مقام آخر أنه دخل على الوليد بن يزيد مادحاً وعنده حماد الراوية يدله على مواطن الضعف والقوة في المدائح التي تلقى بين يديه والمصادر التي استقى الشعراء منها أفكارهم ، يقول مروان : دخلت أنا وطريح بن اسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في عدة من الشعراء على الوليد بن يزيد وهو في فرش قد غاب فيها ، وإذا رجل كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليد على بيت منه ، وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من شعر فلان ، حتى أتى

---

(١) طبقات ابن المعتز ص ٤٤ وابن خلكان ٤/٢٧٦ .

على أكثر الشعراء ، فقلت : من هذا ؟ قال حماد الراوية ، فلما وقفت بين يدي الوليد لأنشده قلت : ما كلام هذا في مجلس أمير المؤمنين وهو لحّانة ، فتهانف الشيخ – أي سخر ضاحكاً – ثم قال : يا ابن أخي أنا رجل أكلم العامة ، وأتكلم بكلامها ، فهل تروي من أشعار العرب شيئاً ؟ فذهب عني الشعر كله إلا شعر ابن مقبل ، فقلت نعم ، لابن مقبل ، فأنشدته :

سل الدارَ من جَنْبَيْ حِبِـرٍّ فَواهِبٍ
إلى ما رأى هضْبَ القَلِيبِ المُضَيَّحُ[1]

ثم جزت فقال : قف ، ماذا يقول ؟ فلم أدر ما يقول ، فقال : يا ابن أخي ، أنا أعلم الناس بكلام العرب ، يقال : تراءى الموضعان ، إذا تقابلا[2]

لقد ذاعت في روايات النقاد والرواة قضية جهل مروان باللغة، فالأصمعي يقول عنه إنه كان مولداً ولم يكن له علم باللغة [3] ، ثم تناقلها عنه بقية النقاد، ولعل حكم الأصمعي على مروان كان صادراً عن قصته مع حماد تلك التي مر ذكرها ، وقد جرت معه وهو بعد حدث لم يتعد العشرين من عمره ، ذلك أنه ليس كل مولد ضعيف المعرفة باسرار اللغة فهناك كثرة من المولدين أحاطوا بأسرارها ومنهم حماد الراوية ، هذا فضلا عما في شعر مروان من صحة البناء وسلامة التركيب وبعد عن المزالق اللغوية التي تردى فيها كثيرون غيره .

ولكن أين شعر مروان في الوليد أو في غير الوليد من بني مروان الذين مجدهم وعظمهم في قوله :

بنـو مـروان قـومٌ أعتقونـي وكـل الناس بعدهـم عبيـدُ

---

(١) حبر وواهب جبلان لبني سليم ، هضب القليب ماء لبني قنفذ من بني سليم ، المضيح ماء لبني البكاء .
(٢) الأغاني ١٦/١٧ ، ١٨ .
(٣) الأغاني ١٠/٨٣ .

الذي لا شك فيه أن أكثر الشعراء المخضرمين كانوا يحرصون الحرص كله على أن يحجبوا قصائدهم التي قالوها في بني مروان عن بني العباس تفادياً للحرج ودفعاً للغيرة ودرءاً لحفيظة تتحرك في قلب الملك المتولي الآمر وصاحب السلطان ، ومن ثم فقد عمل أكثر الشعراء من مخضرمي الدولتين على حجب شعرهم في بني مروان وأدى عدم ترديده إلى إهماله وتبعاً لذلك إلى نسيانه فضياع أكثره ، وبضياع شعر عدد من شعراء المخضرمين في بني مروان فقد الأدب العربي ثروة نفيسة من أرق وأمتع ما قيل في ملوك أحبوا الشعر وأكرموا الشعراء ، وخصوصاً ذلك الذي قيل في الوليد بن يزيد وأنشد في ساحته .

(٣)

مروان يمدح معن بن زائدة :

وأما المرحلة الثانية من شعر مروان فهي علاقته بمعن بن زائدة الشيباني الفارس الجواد الكريم ذي المكانة في عهدي بني مروان وبني العباس على السواء، والذي حارب بين يدي المنصور يوم الهاشمية حتى كتب له النصر ، فأصبح جديراً بتقدير العباسيين له كما كان محلا لتقدير الأمويين من قبل .

على أن بداية اتصال مروان بمعن بن زائدة كانت بداية غير كريمة تدل على خسة في مروان والسعي إلى جمع المال والحصول على النوال من أي سبيل وعن أي طريق طاب أو خبث، فقد كانت أول قصيدة مدح مروان بها «مَعْناً» ليست من شعره وإنما هي لرجل من بلدته اليمامة سمعه ينشدها بين جماعة من الناس وكان قد أعدها ليمدح بها مروان بن محمد آخر ملوك الأمويين غير أنه قتل قبل أن ينشده إياها وفيها يقول :

مروانُ يا ابن محمدٍ أَنت الـذي زِيدتْ بـه شرفـاً بنو مروانِ

فأعجبت القصيدة ابن أبي حفصة فأمهل صاحبها حتى قام من مجلسه ثم أتاه في منزله وعرض عليه شراءها منه بثلثمائة درهم فوافق الرجل ، فحلفه مروان بالطلاق ثلاثاً وبالأيمان المحرجة ألا ينشدها ولا يعود ينسبها لنفسه ، ثم غير منها أبياتاً وزاد فيها بعض الشيء وجعلها في معن وجعل استهلالها هكذا :

معنُ بنُ زائدةَ الذي زِيدَتْ بــه
شرفاً إلى شرفِ بنو شَيْبــانِ [1]

وبهذه القصيدة نال مروان رفد معن وأصاب غنى وشهرة واسعتين .

على أن مروان ما لبث أن أخلص القول لمعن فأنشد فيه عدداً من عيون قصائد المديح في الشعر العربي كله بحيث أدخلت قصائده فيه الغيرة في قلوب الملوك، فلقد دخل معن على المنصور العباسي ذات مرة، فقال له بلسان لا يخلو من عتب وتقريع مقنع : يا معن أعطيت ابن أبي حفصة مائة ألف درهم عن قوله فيك :

معنُ بنُ زائدةَ الذي زِيدَتْ بــه
شرفاً إلى شرفِ بنــو شيبــانِ

فقال له : كلا يا أمير المؤمنين ، ولكن لقوله :

مــا زِلْــتَ يومَ الهاشميــةِ مُعْلما بالسيْفِ دونَ خليفةِ الرحمن

فاستحيا المنصور من بادرته وتبسم وقال : أحسنت يا معن في فعلك[2] .
ومن الطريف أن هذه القصيدة النونية التي أخذ فيها مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم من معن ، ليست له وإنما قد اشتراها من شاعر مسكين بثلثمائة درهم كما سبق القول وانتحلها لنفسه وأجرى فيها بعض التعديلات :

---

(١) الأغاني ١٠/٨٤ .
(٢) الأغاني ١٠/٩١ .

على أن لمروان في معن روائع لا تنسى سارت بذكرها الركبان لقوتها وجزالتها وحسن سبكها رغم ما فيها من إلحاح على طلب العطاء، فمن ذلك لاميته المشهورة : [1]

تَجَنَّبَ لاَ في القولِ حتَّى كأَنــه حرامٌ عليهِ قولُ لاَ حينَ يُسْأَلُ
تشابَهَ يومــاهُ علينــا فأَشْكَــلا فلا نحنُ ندْرِي أيُّ يومَيْهِ أَفضلُ
أَيومُ نداهُ الفَخْرُ أَمْ يــومُ بُؤْسِه وما مِنْهما إلاَّ أَعَــزُّ مُفَضَّلُ

ويمدح مروان قوم معن في نفس القصيدة فيقول : [2]

بَنُو مَطرٍ يومَ اللِّقــاءِ كأَنهــمْ
أَسُودٌ لها في بَطْنِ خَفَّان أَشْبُــلُ
همُ يمنعون الجــارَ حتــى كَأَنَّما
لجارِهِمُ بيــنَ السِّماكيْــنِ منــزلُ
لهامِيمُ في الإسلامِ سادُوا ولم يكنْ
كــأَوَّلِهــمْ فــي الجاهليــةِ أَوَّلُ
هم القومُ إنْ قالُوا أَصابُوا وإن دُعُوا
أَجَابُوا وإنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وأَجْزلُوا
وما يستطيــعُ الفاعلونُ فِعَالهــمْ
وإنْ أَحسنُوا فِــي النائباتِ وأَجملُوا

---

(١) وفيات الأعيان ٢٧٧ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ٤٣ .

تُـلاثُ بـأَمثـالِ الجبـالِ حِبَاهُمُ
وأَحلامُهمْ منها لدَى الوزنِ أَثقلُ[1]

ولمروان في معن قصيدة عينية جزلة الصوغ فخمة الأسلوب تطرب لسماعها الأذن أكثر من ترحيب العقل والوجدان بها ، ذلك لأن معانيها محدودة بوصف معن بالشجاعة ووسمه بصفات الكرم ، وهو يجري فيها على السنن التقليدي من استهلال بالنسيب ووصف الرحلة إلى الممدوح ثم إسباغ صفات الفضل عليه كيلا بلا حساب ، وتبدأ القصيدة بقوله : [2]

أَرى القلبَ أَمسى بالأَوانسِ مُولَعَا
وإِنْ كان مِنْ عهدِ الصِّبا قد تَمَتَّعَا

وفيها يصف رحلته إلى الممدوح قائلا :

ولما سرى الهمُّ الغريبُ قريْتُهُ ... قِرَى من أَزالَ الشكَّ عنه وأَزْمعَا
عَزَمْتُ فعجَّلْتُ الرحيلَ ولم أَكُنْ ... كذي لُوثةٍ لا يُطْلِع الهمَّ مَطْلعَا
فَأَمَّتْ ركابي أَرضَ معنٍ ولم تزلْ ... إلى أَرضِ معْنٍ حيثما كان نُزِّعَا
نجائِبُ لولا أَنها سُخِّرتْ لنـــا ... أَبتْ عِزَّةً من جهلها أَن تُوَزَّعا
كسونا رحال الميسِ منها غواربًا ... تدارك فيها النَّيُّ صيْفاً ومَرْبَعَا
فما بلغتْ صنعاءَ حتى تواضعتْ ... ذُرَاها وزال الجهلُ عنها وأَقْلَعَا
وما الغيثُ إِذْ عمَّ البلادَ بصوبِهِ ... على الناسِ من معروفِ معنٍ بأَوْسَعا

---

(١) خفان مثل حسان موضع كثير الغياض قرب الكوفة وكان مأسدة، اللهاميم جمع لهميم وهو السابق الجواد .

(٢) أمالي المرتضى ١/٥٧٨ ، ٥٧٩ .

ويمضي مروان في خلع صفات المديح على معن قائلا :

تداركَ معنٌ قبــة الدِّيــنِ بعدما
خشِينَا عــلى أوتادِهــا أن تُنَزَّعَــا
... وما أَحجمَ الأَعداءُ عنكَ بقيةً
عليكَ ولكنْ لم يَرَوْا فِيك مطْمَعَا
رأَوْا مُخْدِراً قد جرَّبُــوه وعاينُــوا
لدى غِيلِهِ منهمْ مَجَرًّا ومَصْرَعَا **
وليس بِثانِيهِ إِذَا شَدَّ أَنْ يَــرَى
لدَى نَحْرِهِ زُرْقَ الأَسِنَّــةِ شُرْعَــا
له راحتان الحتفُ والغيثُ فيهما
أَبَــى اللهُ إِلاَّ أَنْ تَضُرَّا وتَنْفعَــا

وإذا كانت أبيات مروان بادية الجزالة محبوكة النسج كما رأينا فهي متشابهة الألفاظ ليس فيها على ما يرى الشريف المرتضى تصرفاً في المعاني ولا غوصاً عليها ولا تدقيقاً فيها ، فمدائحه مكررة الألفاظ والمعاني ، وهو من أجل ذلك غزير الشعر قليل المعنى .

(٤)

مروان يرثي معن بن زائدة :

وحين يموت معن بن زائدة تتوالى مرثيات ابن أبي حفصة عليه ، وهي

** الميس خشبة الرحل ، الغوارب أعلى السنام ، الني الشحم . ذراها جمع ذروة وهي أعلى كل شيء والمقصود هنا الأسنة . المخدر الأسد في خدره وهو غيله .

جميعاً مع جودة إنشائها وروح ألفاظ مروان الجزلة التي ينسج خيوطها في براعة ، فإننا نكاد نحس ببكاء مروان على عطايا معن وليس على معن نفسه ، فهو في مرثيته الدالية يقول : (١)

يا مَنْ بمطلعِ شمسٍ ثُـمَّ مَغْرِبِهـا
إنَّ العطاءَ عليكـمْ غيرُ مَـرْدُودِ
قُلْ للعُفَاةِ أَريحُوا العيسَ من طلبٍ
ما بعدَ مَعْنٍ حليفِ الجُودِ مِنْ جُو دِ
قلْ للمَنِيّةِ لا تُبْقِي عـلى أَحـدٍ
إذْ مات معنٌ فما ميْتٌ بمفْقُـودِ

لقد جعل مروان أهم شيء في الحياة الاستجداء والعطاء ، وقد تبدو هذه المعاني غير المكررة التي ألح عليها إلحاحاً شديداً في كل ما قاله في معن حياً وميتاً في مرثيته اللامية الطويلة التي تأثر شوقي الشاعر ببعض أبياتها تأثراً شديداً في مرثيته للخلافة وفي رثائه لمصطفى ، كامل إن مروان يصور حزن العالم لمعن في أبيات ثمانية من لامية مشهورة يقول فيها : (٢)

مضى لسبيلـه مَعْـنٌ وأَبْقَـى مكارمَ لـنْ تَبِيدَ ولـنْ تُنَالاَ
كأَنَّ الشمسَ يومَ أُصيبَ معـنٌ مـن الإظـلامِ مُلْبَسَةٌ جِـلاَلاَ
هو الجبلُ الذي كانـتْ نـزارٌ تهدُّ من العدوِّ بـه جِبـالاَ
تعظَّلـتِ الثغـورُ لفَقْـدِ معـنٍ وقدْ يُروِي بها الأَسَلَ النِّهالاَ
وأَظْلمـتِ العـراقُ وأَوْرَثَتْهـا مصيبتُـه المجلِّلَـةُ اختِـلاَلاَ

(١) طبقات ابن المعتز ص ٤٧ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ٥٤ ، ٥٣ .

وظلَّ الشامُ يزحفُ جانبـــاه لركنِ العِزِّ حيـن وَهَـى ومَالاَ
وكـادتْ من تهامةَ كـلُّ أرضٍ ومن نجدٍ تـزولُ غـداةَ زالا

ثم ينطلق مروان بعد ذلك في بكاء الجانب الذي كان يهمه من معن وهو جانب العطاء فيسيّر قصيدته كلها على هذا الدرب قائلا :

أصاب الموتُ يومَ أصاب مَعْنـاً
من الأَحْيـاءِ أكرَمَهُـمْ فِقـالا
وكـان النـاسُ كلُّهـمُ لمعـنٍ
- إلى أنْ زار حُفْرَتَه - عِيـالا
ولمْ يكُ طالبٌ للعرفِ ينـوي
إلى غيـرِ ابـنِ زائـدةَ ارتحـالا
مضَى مَنْ كـان يحملُ كلَّ ثقلٍ
ويسبـقُ فيـضُ نائِلِـهِ السُّـؤالا

ويظل مروان يعدد مناقب الكرم والجود والهبة والعطاء في معن وكأن معناً لم يكن له عمل في الحياة إلا أن يعطي الناس وإلا أن يقف الشعراء ببابه سائلين مستمنحين ويقول :

فلهْفَ أبي عليـكَ إذ العطايـا جُعِلْنَ مُنـىً كـواذبَ واعْتِلالا
ولهْفَ أبـي عليـكَ إذِ الْيتامَى غَدْوا شُعثاً كـأَنَّ بهمْ سُلالا
ولهفَ أبي عليـكَ لكلِّ هيجـا غدتْ تُلْقِي حواضِنُها السِّخالا
ولهف أبي إليـكَ إذِ الْقوافـي لمتَدَحٍ بها ذهبتْ ضـلالا
أَقَمْنَـا باليمامـةِ إذْ يئسنـا مقامـاً لا نريـدُ لـه زِيَـالا

وقلنا أيْــنَ نرحلُ بعــدَ معْــنٍ وقد ذهبَ النوالُ فلا نــوالا

هي إذن معاني مكررة تسير على نسق واحد وضرب من القول غير متنوع ولا متباين ، غير أننا لكي نحسن تقييم الشعر ومعانيه ينبغي ألا نهمل تقييمه بموازين زمانه ومعايير عصره ، ولو قد فعلنا لاسترحنا كثيراً ، فضروب الحياة آنذاك مختلفة تماماً عنها في عصرنا ، وما نعده ممتهناً هذه الأيام من اكتساب بالشعر وتقرب به إلى الحكام ، لم يكن كذلك على أيام مروان ومعن ، ولذلك فإن هذه القصيدة بذاتها تسبب لمروان موقفين متباينين ، موقفاً مع المهدي حين دخل عليه مادحاً ممتاحاً ، فما كاد الملك العباسي يراه ويسمع استهلال مديحته حتى يأمر بطرده على ما مر بنا في صدر هذا الحديث ، وأما الموقف الثاني فهو على النقيض تماماً ويدعو إلى الطرافة ، فقد دخل مروان على جعفر البرمكي يمدحه ، وكان مروان يتخير ممدوحيه من بين الذين يسفحون المال على مادحيهم ، وكان له في هؤلاء فراسة عمّقها في نفسه حب المال ، وما كاد مروان ينشد جعفراً بيتين من قصيدة رائية حتى سارع جعفر قائلا : ويحك ، أنشد مرثيتك في معن

وكــان النــاسُ كلُّهــمُ لمعــنٍ إلى أنْ زار حفرتَــهُ عيـــالا

فأنشدها إياه حتى أتى على آخرها وجعفر يرسل دموعه ، فلما سكن قال : هل أثابك أحد من ولده وأهله على هذه شيئاً ؟ قال : لا ، قال جعفر : فلو كان معن حياً وسمعها منك ، كم كان يثيبك عليها ؟ قال : أربعمائة دينار ، قال جعفر : لكني أظن أنه كان لا يرضى لك بذاك ، وقد أمرنا لك عن معن بضعف ما قلت وزدنا نحن مثل ذلك ، فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف الى رحلك [1] .

---

(١) طبقات ابن المعتز ص ٤٥ .

على أن الأكثر من ذلك طرافة أن مروان لشغفه الشديد بالمال ونهمه إليه ما لبث أن أنشأ أبياتاً في مدح جعفر البرمكي وألحقها بمرثيته في معن فأفسد جلال رثاء ميت بسخف مدح حيّ، وهكذا كان مروان في مدحه لمعن طالب مال وفي رثائه له أيضاً طالب مال .

(٥)

مروان يمدح المهدي :

وإذ قد مات معن بن زائدة ، المنهل الثر والمورد العذب للمال والعطايا ، فإن مروان لا يلبث بعد أن يفرغ جعبته من مراثيه أن يتجه إلى بغداد حيث الخلافة والمال والشعر والسحر وتبدأ المرحلة الثالثة من مراحل شعره ، ويدخل إلى المهدي ويكون من أمره في أول لقاء ما قد أسلفنا من قول ، فيرجع إلى دياره محسوراً ، وفي العام التالي يعود إلى بغداد متسلحاً بقصيدة تحمل نغمة جديدة ، إنها نغمة السياسة وأحقية العباسيين بالخلافة دون غيرهم من المطالبين بها يعزف لها مروان على قيثارته ببراعة وحذق ، وإذا كان مروان قد عمد إلى صب مدائحه في معن بن زائدة في قالب بدوي لكي يتلاءم مع نفسية الممدوح ، فإن ابن أبي حفصة الذكي يصب مديحته لخليفة بغداد في قالب من الألفاظ حضري وفي ثوب من الأقوال مترف رقيق ، ولقد مر الجانب السياسي من القصيدة عند حديثنا عن أول صلة مروان بالمهدي ، وأما الجانب الشعري الفني فيتمثل في استهلال رقيق بالغزل ورحلة إلى الممدوح ثم في توجيه صفات المديح إلى المهدي . يقول مروان مستهلا قصيدته :

طرقَتْكَ زائـرةً فحـيِّ خيالهَـا بيضـاءُ تخْلِـطُ بالحياءِ دَلاَلها

إن المطلع الذي رسمه مروان لقصيدته لا شك مطلع رائق في نطاق المعايير الإيقاعية للشعر ، فهو يطرق موضوعاً كلف به شعراء زمانه وهو وصف الخيال ،

أو بالأحرى زيارة خيال الحبيب ، بل إن المصراع الأول من المطلع ذاته يدعو إلى الالتفات لأنه يشكل قضية بذاته :

طرقَتْكَ زائرةً فحيِّ خيالهـا

ولكن أبا محمد اليزيدي أحد الحاضرين في ندوة المهدي ما يكاد يسمع هذا المصراع من المطلع حتى يقول : لحن والله وأنا أبو محمد ، ويبدو أن مروان كان قد لحن عن غير قصد في لفظة من ألفاظ المصراع ، وكان يؤثر عنه أنه لحانة ، ولكن مروان الحريص على ألا تفوته فرصة العطاء هذه المرة ، وقد أجهد قريحته عاماً كاملا في إعداد هذه القصيدة التي وثق كل الوثوق من إعجاب المهدي بها ، يسارع إلى إجابة اليزيدي قائلا : يا ضعيف الرأي أهذا يقال لي ؟ ثم يردف بالمصراع الثاني مطمئناً إلى أنه سوف ينال إعجاب المهدي وبطانته :

بيضاء تَخْلِطُ بالجَمَالِ دَلاَلَهـا

فيطرب القوم من البيت مكتملا ، ويسرون لبراعة مروان في استهلاله ، ويتغير الموقف إلى الحد الذي يجعل أحد الحاضرين يحاول الإيقاع باليزيدي لمقاطعته مروان فيقول موجهاً الخطاب إلى المهدي : يا أمير المؤمنين أيتكئ في مجلسك ؟ ولكن المهدي المعروف بالسماحة يجيب : اعذروا شيخنا فإن له حرمة[1] .

ومن الطريف أن هذا المطلع الذي لم يعجب اليزيدي قد أعجب شيخاً من شيوخ الأدب هو خلف الأحمر الذي حكم لمروان بسببه أنه أشعر من الأعشى في قوله :

رحلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أَجْمَالَهـا

والحق أن كثيراً من مطالع القصائد كانت تثير بعض أسباب الحرج للشعراء ، ولم يكن السبب الرئيسي في ذلك نابعاً من نصفة أو نزاهة في أكثر

(١) الاغاني ١٠/٨٠

الأحيان ، وإنما كان يصدر عن حقد أو قصد إلى الإحراج ، وكان المتنبي في استهلال مدائحه لسيف الدولة يتعرض لشيء من ذلك ، فحين أنشد أول مديحة له في الأمير الحمداني مستفتحاً إياها بقوله :

بُكاؤكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ
بأنْ تُسْعِدا والدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

حاول الحسين بن خالويه ، وكان مؤدباً لسيف الدولة وأبي فراس ، أن يحرجه في لفظي «أشجاه» و «أشفاه» على النحو المعروف في كتب الأدب . ولكن المتنبي استطاع أن يفحمه لتمكنه من اللغة ، ولأنه صاحب القصيدة ومبدعها والعالم بدقائق نسجها وترتيب خيوطها .

بل إن هذه القصة نفسها — أعني قصة مقاطعة الشاعر حين استهلاله قصيدته ببيت — غريب قد تكررت مع المتنبي نفسه مرة أخرى وهو ينشد سيف الدولة قصيدته النفيسة :

لكلِّ امرىء مِنْ أَمْرِهِ مَا تَعَوَّدَا
وعادةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الضَّرْبُ في العِدَا

وكان المتنبي قد اشترط على سيف الدولة في أول اتصال له به ألا ينشده شعره إلا جالساً ، فلما ابتدأ المتنبي ينشد قصيدته الدالية تلك ، وانتهى من إنشاد المطلع ، سمع صوتاً ينبعث من فم بعض السامعين يقول : لو أنشدها وهو واقف لكان أفضل ، فصاح المتنبي من مجلسه قائلا بشيء من العزة : ألم تسمع صدر البيت يا رجل ؟ مشيراً بذلك أنه معوّد على العزة والعظمة وأنه ليس كسائر شعراء زمانه .

ربما كان هذا الاستطراد مفيداً لأنه يعطي صورة لما كان يحدث للشعراء المبرزين في بلاط الملوك ومنتديات الأمراء الذين يمدحونهم ، بدافع من الحسد والغيرة وهما صفتان من صفات البشر تظهران عادة في مجال المنافسة بين أبناء لمهنة الواحدة ، ولقد كان الشعر على تلك الأزمنة مهنة أكثر منه فناً .

المهم أن مروان بن ابي حفصة ينشد مطلعه الجميل ثم يثني ببيت قد أحكم نسج وشائج رقته في تلاعب محبب باختيار اللفظ المونق والمعنى النديّ في ظلال قافية رضية تريح السمع والخاطر :

قـادتْ فُـؤادَكَ فاسْتَقَـادَ ومِثْلُهـا
قـادَ القلـوبَ إلى الصِّبَـا فَأَمَالَهـا

وفي رواية :

مالتْ بقلبِكَ فاسْتَقَـادَ ومِثْلُهـا
قَـادَ القُلُـوبَ إلى الصِّبَـا فأمالَهـا

وكأنما طرقـتْ بنفحـةِ روضـةٍ سَحَّتْ بهـا دِيَمُ الربيعِ ظلالَها
باتَـتْ تسائلُ في المنـامِ معرِّساً بالبيـدِ أشعثَ لا يَمَلُّ سؤالَها
في فتيةٍ هجَعُـوا غِـراراً بعدمَا سئِمُوا مراعَشَةَ السُّرَى ومَطالَها
فكـأنَّ حشوَ ثيابِهِـمْ هنديـةٌ نَحِلتْ وأَغْفَلتِ العُيون صِقالَها

ثم ينطلق مروان بعد ذلك إلى مدح رقيق لم يلحف فيه كعادته في طلب النوال فهو يريد أن يأسر قلب محمد المهدي بطريق ما أول الأمر ، وإنما يذكر بعض الخلال الطيبة التي يطرب له الممدوح ، ومتى طرب أجزل الصلة وجاد بالعطاء ، يقول مروان :

أَحيـا أَميـرُ المؤمنيـن محمـدٌ
سُنَنَ النَّبِـيِّ حرامَهـا وحلالَهـا
ملكٌ تفـرَّعَ نبعـةً مـن هاشمٍ
مدَّ الإلهُ على الأَنـامِ ظلالَهـا

.... ثَبْتٌ على زَلَلِ الحوادثِ راكبٌ
من صَرْفِهِنَّ لكلِّ حـالٍ حالهـا
كلتا يديك جعلْتَ فضـلَ نوالِها
للمسلمين ، وفـي العـدوِّ وبالَهـا
وقعتْ مواقِعَهـا بعفـوِكَ أنفسٌ
أذهبْـتَ بعدَ مخافـةٍ أوْجَالَهـا
أمَّنْـتَ غيـرَ مُعَاقَـبٍ طُرَّادَهـا
وفككْـتَ مـن أُسَرَائِها أغْلالَهـا
ونَصبْتَ نفسَك خيـرَ نفسٍ دونَها
وجعلْـتَ مالَـكَ واقِيـاً أموالَهـا

ويمضي مروان في مدح المهدي في قصائد أخرى عديدة ولكن على نفس الدرب السياسي ، محاولا أن يجعل من نفسه محامياً للخلافة العباسية مدافعاً عن شرعيتها ، فيقول كلاماً هو إلى النظم أقرب منه إلى الشعر :

يا ابنَ الذي ورِثَ النَّبيَّ محمـداً
دونَ الأَقاربِ مِنْ ذوِي الأَرْحَـامِ
الوحْيُ بـين بنِـي البناتِ وبينَكُم
قَطَعَ الخصامَ فلاتَ حينَ خِصَامِ
ما للنساءِ مـع الرجـالِ فريضـةٌ
نزلـتْ بذلـكَ سورةُ الأَنعـامِ

أنَّى يكونُ وليس ذاك بكائـــنٍ
لبَنِـي البنـاتِ وِراثـةُ الأَعمـامِ

ومن الطريف أن الشعراء يدخلون في جدل حول من هم أحق بميراث النبي ، وهم جميعاً منافقون كاذبون لأن الأنبياء لا يورثون ، وليست النبوة مُلكاً فتورث ، وحتى لو تصورنا المستحيل وكان هنا حكم يحتاج إلى من يليه فالولاية الطبيعية هي عن طريق الشورى واختيار جمهور المسلمين ، المهم أن الطائي جعفر بن عفان لا يكاد يسمع شعر مروان بن أبي حفصة هذا حتى يلعنه ويقول في مجال الرد عليه من نفس البحر والقافية : (١)

لِمَ لا يكونُ وإنَّ ذاكَ لكائـــنٌ
لبنِـي البنـاتِ وراثـةُ الأَعمـامِ
للبنتِ نصـفٌ كامـلٌ من مالِه
والعَـمُّ متـروكٌ بغيـرِ سِهـامِ
مـا للطليـقِ وللتـراثِ وإنمـا
صلَّى الطليـقُ مخافـةَ الصِّمْصِام

إن مروان لا يكاد يخرج في شعره عن نطاق المدح أو الرثاء وقد مرن على هذين الموضوعين من فنون الشعر ، فإذا خرج عن نطاقهما لا نكاد نلمس له إبداعاً أو إطراباً ، إنه قد امتلك حديقة وهبها له المهدي فقال يصفها :

نواضِرَ غُلباً قـد تدانتْ رءُوسُها
من النَّبتِ حتى مـا يطيرُ غُرابُهـا
تَرَى الباسقاتِ العُـمَّ فيها كأَنها
ظَعَائـنُ مضـروبٌ عليهـا قِبابُهـا

(١) الأغاني ١٠/٩٥ .

تَرى بابَهـا سَهْلاً لكـلِّ مُدَفَّـعٍ
إذَا أَيْنَعَتْ نخـل فأُغْلِـق بابهـا
يكونُ لنا مـا نَجْتَنِي من ثمارِهـا
ربيعـاً إذَا الآفـاقُ قَـلَّ سحابُهـا
حظائـرُ لم يُخْلـطْ بأثمانِهـا الرِّبَا
ولم يَكُ من أَخْذِ الديات اكتسابُها
ولكنْ عطاءُ اللهِ مـنْ كلِّ مدحـةٍ
جزيـل من المستخْلِفيـن ثَوَابُهـا

إننا ونحن نقرأ وصفاً لحديقة يملكها شاعر مرموق مثل ابن أبي حفصة نتوقع أن نقرأ شعراً أنيقاً أناقة الزهر مخضلا اخضلال الروض يفوح بالأرج وينشر الشذا وطل الندى ، ونتوقع الصورة الحلوة والخيال الخصْب ولكن لا نلبث أن نقع على شعر ساذج لم تفارقه طبيعة الشاعر المستجدي

ولكنْ عطاءُ اللهِ مِنْ كُلِّ مِدْحَةٍ
جزيل مـن المسْتَخْلِفِيـنَ ثَوَابُهـا

إنه شاعر أصيل ولكن في فن السؤال والاستجداء، يجيد وسائلهما ويتفوق في انتهاج الطريق الموصل إليهما، وبالرغم من الفترة القصيرة التي عاشها مروان في عهد بني أمية والفترة الطويلة التي عاشها في عهد بني العباس ، والتي امتدت إلى عهد المأمون وليس إلى عهد الرشيد كما ذكر حول تاريخ وفاته ، لأنه من المرجح أنه مدح عمرو بن مسعدة وزير المأمون ، نقول إنه بالرغم من ذلك كله ، فإن مروان بن أبي حفصة يعتبر انموذجاً لشعراء المرحلة المتوسطة من المخضرمين بين الدولتين .

وإنابن أبي حفصةعلى الرغممن بعضسماتالتجديد فيشعره والإحكام في صنعته فلا يزال في الطبقة الوسطى من الشعراء الذين لم يؤتوا القدره على خلق البدائع ونسج الصور المعجبة من أمثال ابن مطير أو بشار أو ابن هرمة من معاصريه،إنه كما يقول الشريف المرتضى :متساوي الكلام متشابه الألفاظ، غير متصرف في المعاني ولا غواص عليها ولا مدقق لها ، مدائحه مكررة الألفاظ والمعاني ، وهو غزير الشعر قليل المعنى إلا أنه مع ذلك له تجديد وحذق[1] .

(١) أمالي المرتضى ١/٥١٨ .

الفصل الرابع

المرحلة الثالثة : المناصفة فنياً بين المحافظة الأموية والانطلاقة العباسية

آدم بن عبد العزيز

الحسين بن مُطَيْر

ابن هَرْمَة

بشّار بن بُرْد

آدم بن عبد العزيز

آدم بن عبد العزيز واحد من بقايا الأمراء الأمويين الذين نجوا من مذبحة السفاح، والأرجح أن نجاته كانت بسبب صلته بالخليفة عمر بن عبد العزيز، فهو حفيده واسمه كاملا آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .

وآدم شاعر رقيق عاش عيشة أمراء الشعر الذين لا يتكسبون بشعرهم، وهذا أمر طبيعي ، لأنّ آدم حفيد الملوك الأمويين من ناحية أبيه وأمه ، فأبوه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان وأمه هي عاصم بنت سفيان بن عبد العزيز بن مروان ، غير أنه كان محلا لعطف المهدي وإكرامه ، على أن هذا الإكرام لم يحدث إلا بعد تجربة أليمة مر بها آدم تحت سياط المهدي نفسه ، فقد كان آدم ماجناً في صدر شبابه ، يشرب الخمر وينشد الشعر ، وهو أمر ليس بغريب على بني أمية ، فقد سبقه إلى ذلك الوليد بن يزيد صريع الخمر والغواني ، ويزيد بن عبد الملك صريع الخمر والجواري ومن قبلهما خالد بن يزيد وأبوه يزيد بن معاوية .

لقد قال آدم شعرا رقيقا في الخمر جاوز في تعبيره من خلاله بعض الحدود التي تدخل في روع سامعه أن بقائله شبهة من زندقة ، فبعث إليه المهدي وأمر بضربه بالسياط حتى يقرّ بالزندقة ، ولكنه أبى ذلك وأجاب على تهمة

الملك العباسي إجابة أعجبته قائلا : والله ما أشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشيا تزندق ، فألقى على مسامعه أبياتا خمرية قالها فأجاب : كنت فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قطّ ولا شككت فيه فخلّى سبيله [1] .

وأما الأبيات التي كانت موضع الامتحان فهي قول آدم [2] :

اسْقِنِـي واسْقِ خليـلي ... في مَـدَى الليلِ الطويلِ
قهـوةً صهبـاءَ صِرفـاً ... سُبِيَـتْ منْ نَهرِ بِيـلِ
لونُهـا أَصفـرُ صـافٍ ... وهْـيَ كالمسكِ الفتيـلِ
في لسانِ المـرءِ مِنْهـا ... مثـلُ طعـمِ الزنجبيلِ
رِيحُهـا يَنْفَـحُ منهـا ... ساطعـاً مـن رأسِ مِيـلِ
مَنْ يَنَـلْ منهـا ثلاثـاً ... يَنْسَ منهـاجَ السَّبيـلِ
فمـتى مَـا نَـالَ خَمْسـاً ... تركتْـهُ كالقَتِيـلِ
ليسَ يَـدْرِي حيـنَ ذاكُمْ ... مـا دَبِيـرٌ مـن قبِيلِ
إنَّ سَمْعِي عنْ كـلامِ الـ ... ـلائِمِـي فيهـا الثَّقِيلِ
لشديـدُ الوَقْـرِ إنِّـي ... غيـرُ مِطْـوَاعٍ ذليـلِ
قُلْ لمـنْ يَلْحَـاكَ فِيهـا ... مِـنْ فقيـهٍ أَوْ نَبِيـلِ
انتَ دَعْهـا وارْجُ أُخْرَى ... مِـنْ رَحيقِ السَّلْسَبِيـلِ
نَعْطَشُ اليـومَ ونُسْقَـى ... في غدٍ نعْـتَ الطُّلُـولِ

---

(١) الأغاني ١٥/٢٨٧ ، ٢٨٨ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

فالشاعر هنا يعمد إلى البحور القصيرة وإلى إعلان غرامه بالخمر في وقت لم يكن عامة الناس قد شجعوا فيه وجرأوا على طرق هذا الباب من الشعر علانية ، اللهم بعد أن فتح «الخليفة» الوليد بن يزيد لهم الباب فبدأ الشعراء يسيرون في الدرب الذي كان محوطا بالحدّ والجلد ، فلما عبّده لهم «الخليفة» وسار في مقدمتهم انضوى عدد كبير من الشعراء تحت لوائه .

ونحن نرجح بطبيعة الحال أن تكون هذه الأبيات والتي على شاكلتها من شعر آدم قد قيلت على عهد ملك قومه ، ذلك أنه في الأيام الأولى لدولة بني العباسي لم يكن قد سمح للشعراء أن يقولوا في الخمر إعلانا وما لبثوا أن تجرأوا شيئا فشيئا في نطاق موجة الزندقة والتحلل والعيش في رحاب «الخلفاء» والوزراء فكان هؤلاء درعا لهم من الحد ووقاية لهم من العقاب .

هذا والقرينة تؤكد أن هذه الأبيات أموية العصر ، لأن المنصور وهو يتلمس موطنا للخطيئة عند الشاعر الأموي فوجيء بإجابة تفيد أن ذلك كان شيئا في الماضي «كنت فتى من فتيان قريش...الخ» ثم كانت هذه الحادثة بداية رابطة مودة وصداقة بين المهدي وآدم .

وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه الأبيات تشير إلى قمة التطور في الشعر الأموي من حيث الموضوع الذي هو الخمر ، ومن حيث الأسلوب الذي يتمثل في السهولة والبعد عن التماس أسباب الجزالة اللفظية والعمد إلى القول في البحور القصيرة .

وكان لآدم مشاركة في الظرف والدعابة ولعل ذلك كان سببا من أسباب تقريبه إلى المهدي ومجالسته إياه ، وإن هذه الحادثة تصور ظرف آدم وخفة روحه ؛ فقد كان للمهدي صديق من أهل الموصل يقال له سليمان بن المختار ، وكان لسليمان هذا لحية عظيمة مفرطة الطول ، فأراد يوما أن يركب فوقعت لحيته تحت أقدامه في الركاب فذهبت وتقطعت ، فقال آدم مازحا : [1]

(١) الأغاني ١٥/٢٩٠ .

قـد اسْتَوْجَـبَ في الحكمِ سليمـانُ بنُ مختـارِ
بِمـا طـوَّلَ مـن لحْيَـتِهِ جَـزًّا بمنْشَـارِ
أَو السَّيْـفَ أَو الحلْـقَ أَو التَّحْرِيـقَ بالنَّـارِ
فقـدْ صَـارَ بِهَـا أَشْهَـرَ مِـنْ رايـةِ بَيْطَـارِ

وذاعت الأبيات بين الناس واشتهر أمرها حتى رويت في حضرة المهدي ، فضحك لطرافتها ، ولكن أحد الحاضرين من ذوي المكانة ، هو أسيد بن أسيد وكان وافر اللحية أبدى امتعاضا وضجرا وقال : ينبغي لأمير المؤمنين أن يكفّ هذا الماجن عن الناس ، فبلغ ذلك آدم فقال مداعبا أسيد :

لحيـةٌ تَمَّـتْ وطالـتْ لأَسِيـدِ بـن أَسِيـدِ
كشِراعٍ مـن عَبـاءٍ قَطعَـتْ حَبْـلَ الوريـدِ
يَعْجَـبُ الناظـرُ مِنْهـا مِـن قريـبٍ أَوْ بعيـدِ
هِـيَ إِنْ زادتْ قليـلاً قَطَعَـتْ حبـلَ الوريـدِ

وليس من شك أن هذه الأبيات تمثل أساسا لشعراء الهجاء المجسم الذي تزعم مدرسته ابن الرومي بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان ، على أن الشيء الأهم من ذلك هو تجديد آدم فيما طرق من موضوعات شعرية لم يطرقها أحد قبله وهو الوقوف على الآثار الدارسة وليس على الأطلال والدمن كما كان يفعل الشعراء قبله وكما فعل بعضهم بعده .

إن آدم يقف على بقايا إيوان كسرى وينشد أبياتا تدل – على قلة عددها– على معاني خطيرة متزاحمة في نفسه وعلى حسرات مكتومة في قلبه على ملك قومه الضائع ومجدهم السالف ، ويألم آدم حينما يجد الإيوان العظيم وقد أصبحت بقاياه مربطا للبغال بعد أن كانت مرتعا للحسان ، ويتمثل كسرى وقد رأى

إيوانه وما حل به فيتحسر نيابة عنه ولا يلبث أن يغرق همومه في كأس خمر تسكره فتجعل منه كسرى جديدا . يقول آدم :

أقـولُ وراعـني إيـوانُ كِسْرَى ... برأسِ مَعَانَ أو أذْرُوسَفَـان
وأبصـرتُ البغـالَ مربَّطـاتٍ ... بـه مِـنْ بعـدِ أزْمِنـةٍ حِسانِ
يعـزُّ عـلى أبـي ساسانَ كسرى ... بموقِفِكُـنَّ في هـذا المكـانِ
شربتُ على تَذَكُّرِ عيْشِ كسرى ... شرابـاً لونُـهُ كـالزعْفَـرانِ
ورحتُ كأنني كسرى إذا مـا ... عَلاَهُ التـاجُ يـومَ المِهْرَجانِ

إن تلميذنا وصديقنا الدكتور عبد الرحمن عُطْبه يشاركنا وجهة نظرنا إزاء هذه البادرة الجديدة في الشعر العربي ويطيل الوقوف أمام هذه الأبيات دارسا منقبا محللا قائلا « وهذه الوقفة – على أطلال كسرى – فيما نعلم أول وقفة فنية يقفها شاعر عربي بين أطلال حضارة دراسة – وقد سبق فيها وقفة البحتري على الإيوان نفسه بعشرات من السنين ، كما سبقه إلى تقرير عدد من المعاني التي استوعبتها سينيته ، فهو يقف مبهوتا أمام عظمة الإيوان متألما لما حل به ، معظما أصحابه مواسيا ذكراهم مكبرا ما نالهم ، وينتهي به الأمر إلى الشرب على ذكراهم ، ويغتلي به الأمر بعد شرابه فلا يقف عند حد التصور أنه نديم كسرى كما فعل البحتري بل يجمح به الخيال إلى تصور نفسه وكأنه كسرى ذاته متوجا في يوم عيده . ومع الفارق الكبير في الحجم والأسلوب وفنيه العرض بين قطعة آدم وقصيدة البحتري ، فإن آدم يعتبر السابق إلى تناول هذا الغرض ، هذا مع التنبيه إلى أن من المرجح أن يكون البحتري قد اطلع على أبيات آدم هذه واستوحاها قصيدته السينية »[1]

وليس ثمت شك في أن آدم حين وقف على أطلال إيوان كسرى قد شدته خواطره وذهبت به إلى ماض غير بعيد حين كان الملك طوع يدي قومه وبين

(١) سمات التطور لدى شعراء الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين ص ٧٤ (مخطوطة) .

أصابع جده الأقرب عمر بن عبد العزيز ، بل إنه لم يكن مُلْكا وحسب وإنما كان خلافة بكل حسنات الخلافة، بل هي خلافة راشدة،فإن عمر يعتبر خامس الخلفاء الراشدين . لقد تمثل آدم معنى الملك في خاطره ، ولكنه إنسان عاقل يعلم أن الزمان دول ، والأيام غير ، وليس أدل على ذلك من وقفته هذه على الإيوان الداثر والملك البائد ومن ثم فهو يستجلب لنفسه عزاء في مقام كريم من التماسك والإباء حين يقول : (١)

وإنْ قالتْ رجالٌ قد تَوَلَّى ... زمانُكُم وذَا زمنٌ جديدُ
فما ذهبَ الزمانُ لنا بمجدٍ ... ولا حسبٍ إذا ذُكِرَ الجدودُ
وما كنا لِنَخْلُدَ إذْ مَلَكْنا ... وأيُّ الناسِ دام له الخلودُ

إن هذه الأبيات بما فيها من روح التأسي العميق ترتبط ارتباطا موثقا بأبياته في إيوان كسرى،ومهما تباعد أسلوب التعبير بينهما فقد تناغمت الفكرتان في فكرة وتآلفت الخاطرتان في خاطره .

ولكن لكي نضع الأمور في نصابها الصحيح ونعايرها بمعيارها السليم ينبغي ألا نغفل فضل شاعرين سابقين في هذا المضمار ، مضمار بكاء الدول ورثائها وإن كانا قد سلكا طريقا غير طريق آدم ، لقد رثي آدم ملك الأكاسرة بوقفة على إيوان كسرى ، ومن خلال هذه الوقفة التي هي بمثابة « التقية » رثي مجد قومه ، أما الشاعران السابقان اللذان أعنيهما فهما أبو العباس الأعمى وأبو عدي العبلي الأموي .

لقد رثي أبو العباس بني أمية وملكهم قائم ولكن بسبيل التعفن والزوال وقال أبياته السينية :

ليت شعري أفاح رائحةُ المسْـ ... ـكِ وما إنْ إخالُ بالخيْفِ إنْسِي
حيـن غابتْ بنو أُميَّةَ عنهُ ... والبهاليلُ مِنْ بَنِي عبدِ شَمْس

(١) البيان والتبيين ٣/٢٠١ .

إلى آخر المقطوعة التي لا نشك قيد أنملة في أنها كانت بروحها ووزنها وقافيتها ورويّها واحدا من أسباب الوحي المباشر للبحتري في سينية الكبرى .

وأما العبلي وهو واحد من أبناء الأمويين فقد رثى مجد قومه بقصيدتين من عيون الشعر إحداهما سينية مختلفة البحر عن أبيات أبي العباس الأعمى والأخرى همزية . وقد مر ذكر القصيدتين عبر الحديث عن العبلي فيما سلف من صفحات وهما — من وجهة نظرنا — تعتبران الباكورة الحقيقية لرثاء الدول في الشعر العربي ، ولقد أحس المنصور العباسي بخطر الهمزية حين سمعها من العبلي فأسرع بطرده من مجلسه على ما كان بينهما من مودة وألفة .

ثمّت درب آخر من دروب الشعر سار في جادته آدم وعبّد فيه طريقه وطريق غيره من بعده وهو شعر التصوف ومناجاة الذات الإلهية مناجاة الحب والعشق والهيام، إنه من الثابت أن آدم قد تصوف في آخر حياته، فإن أبا الفرج يروي على لسان أحد معاصري آدم أنه « كان طيب النفس متصوفا ومات على توبة ومذهب جميل» وأنه قد «نسك بعدما عمّر ومات على طريقة محمودة» [1] وأما النموذج الرقيق الذي قدمه الأصفهاني لآدم فهو :

أُحُبُّكَ حُبَّيْنِ لي واحدٌ ... وآخرُ أنَّك أهلٌ لذاكَ
فأمّا الذي هو حبُّ الطباعِ ... فشيءٌ خُصِصْتَ به عن سواكَ
وأما الذي هو حبُّ الجمالِ ... فلستُ أرى ذاكَ حتى أراكَ
ولستُ أمنُّ بهذا عليكَ ... لكَ المَنُّ في ذَا وهَذا وذاكَ

لقد أخطأ محقق «الأغاني» حين ظن أن الأبيات من الغزل العادي فضبط ضمير المخاطب بالكسرة حتى يتحقق المعنى الذي وقر في تصوره من أن

(١) الأغاني ١٥/٢٩١ ، ٢٨٦ .

الأبيات قيلت في الغزل المادي، ولو أنه تدبر الخبرين اللذين أوردهما أبو الفرج حول تصوف آدم ونسكه لفطن إلى أن الأبيات غزل صوفي وليست غزلا ماديا ولكان ضبطه لضمير المخاطب فتحة لا كسرة ، والأبيات هكذا من أرق ما قيل في الشعر الصوفي في مضمون العشق الإلهي حتى إن الأبيات المشهورة المنسوبة إلى رابعة العدوية لا تكاد تختلف مع أبيات آدم إلا في ألفاظ قليلة، فهي تقول :

أُحبُّكَ حُبَّيْنِ حبَّ الهوى ... وحبًّا لأَنكَ أهلٌ لذاكا
فأَمَّا الذي هو حبُّ الهوى ... فَشُغْلِي بذكرِكَ عمَّنْ سِوَاكا
وأَمَّا الذي أَنتَ أَهلٌ له ... فكشْفُكَ لي الحجْبَ حتى أَراكا
فلا الحمدُ في ذَا ولا ذاكَ لِي ... ولكنْ لكَ الحمدُ في ذَا وذَاكا

فإذا عرفنا أن آدم قد مات سنة ١٦٠هـ بعد أن عمر طويلا ، وأن رابعة ماتت حوالي ١٨٥هـ فإن رابعة تكون قد اقتسبت أبيات آدم معنى وثوبا وإن كانت قدماً أعمق غرسا في الصوفية، وروحها أكثر صفاء في العشق الإلهي .

إن آدم بن عبد العزيز على قلة حجم شعره الذي وصل إلينا يعتبر واحدا من المعابر الهامة التي انتقل الشعر إليها من الأموية إلى العباسية وفي شعره يبدو التدرج واضحا والتجديد بيّنا سواء أكان ذلك في طبيعة الموضوع أو في نطاق الأسلوب .

الحسين بن مُطَيْر ... – ١٦٩

وشاعرنا هذا من أهل الجزيرة العربية من قرية يقال لها زبالة في طريق الحجاج بين الكوفة ومكة ، وقد تسوقنا بيئته هذه إلى استنتاج سريع يدفع بنا إلى الاعتقاد أن بشعر الشاعر بداوة وصحراوية ، وأنه لا بد متزيٍّ بزيّ الأعراب تغلب طبيعة كلامهم على طبيعة كلامه ويسود سلوك أهل البداوة تصرفاته ، والحق أنه فيما يروي الرواة كان ابن مطير يذهب مذاهب الأعراب في كلامه وقيل في زيه أيضا ، وأما شعره فهو مرحلة بادية التطور فوق المعبر الذي يربط بين العهدين الأموي والعباسي . إن البداوة والصحراء تشدانه إليهما في كثير من طرق تعبيره وشطحات خياله ، ولكن الشاعر كان ذكيا طموحا ثقف نفسه وراد شعره على معان ابتكرها وموضوعات استحدثها وأساليب جديدة ابتدعها وخيالات بارعة صاغ من خلالها شعرا رائعا كما سوف يستبين لنا من نماذج شعره التي سوف نقدمها بعد قليل .

لقد تماوج شعره بين المديح والرثاء ، وبين الغزل والوصف ، ثم أسهم بعد ذلك في الحكمة بنصيب ، وهو في كل ذلك يجمع بين النهج التقليدي القديم في إنشاء القصيدة والأسلوب المستحدث الجديد ، أو بعبارة أدق الأسلوب الذي استحدثه في نطاق النزعة إلى التجديد ومن خلال النبوغ الذي دفع به إلى

أن يأتي بصور جديدة ومعان حديثة وقعت موقع الرضى عند كثير من النقاد والمتأدبين على أيامه . كان أبو عبيدة يقول في وصف شعر الحسين: إنه ليقع من شعره الشيء بعد الشيء فيكثر تعجبي من كثرة بدائعه [1] ، وابن المعتز نفسه يقول : هذا شعر كأنه الديباج ، بل نظم الدر في حسن وصف وإحكام رصين [2] ، وابن المعتز كما نعرف أحد كبار النقاد الأدباء الذواقين ، ويذكر ياقوت وهو يترجم له أنه يعد من الفحول [3] وهو بعد ذلك كله من الشعراء القليلين الذين أجادوا القول في الرجز والقصيد من أمثال أبي نخيلة السعدي وابن ميادة .

والحسين بن مطير بن مكمّل الأسدي – وهذا هو اسمه كاملا – بالرغم من أنه عاش في زمن الدولتين الأموية والعباسية إلا أن أخباره مع الأمويين قليلة شأن اكثر الشعراء المخضرمين ، ربما لأنهم – كما سبق القول عند الحديث على مروان بن أبي حفصة ، كانوا يحرصون على حجب ماضيهم مع ملوك قد دالت دولتهم وزال سلطانهم ، إلا في حالات قليلة عند بعض الشعراء الذين عرفوا بالوفاء الكامل لبني أمية مثل أبي العباس الأعمى ومن كان على شاكلته أو من ذاع جانب من شعرهم بين الناس بحيث يصعب حجبه أو التخلص منه ، وفيما عدا ذلك فإن الأخبار تذكر لنا أن هذا الشاعر مدح هذا وذاك من بني أمية وهذا وذاك من بني العباس ، ونجد الشعر الذي قيل في بني العباس بين أيدينا وفيراً وأما ذلك الذي قيل في بني أمية فهو نادر أو قليل أو غير مسجل ، والسبب في رأينا هو أن هؤلاء الشعراء أنفسهم من مخضرمي الدولتين حرصوا على ألا يذيع شعرهم الذي قالوه في دولة سابقة خصيمة حتى لا يحرك دخلة أو يثير حفيظة في نفس صاحب العهد الجديد ، خاصة وأن الكثرة الوافرة من ملوك العباسيين كانوا أدباء مثقفين بل كانت

(١) طبقات ابن المعتز ١١٤ .
(٢) المصدر السابق ١١٦ .
(٣) معجم الأدباء ١٦٧/١٠ .

لبعضهم مشاركة في قول الشعر ، وكانوا بلا استثناء يحفظون قدرا كبيرا منه ، وكان آباؤهم وهم يعدّونهم لولاية العهد يعهدون بهم إلى طائفة من الأساتذة يعلمونهم الأدب وعلوم الدين والتاريخ والسياسة وأيام العرب ، وحسبنا مثالا أن رجلا كالمفضل الضبي كان أستاذاً للمهدي وأنه جمع كتابه المفضليات من النماذج الشعرية التي كان يؤدبه من خلالها ويلقيها بين يديه

فمن المؤكد أن الحسين بن مطير قد دخل على الوليد بن يزيد ومدحه ، كما مدحه غيره من أصحاب الشهرة من الشعراء المخضرمين مثل ابن ميادة ومروان بن ابي حفصة ، غير أن بعض قصائد ابن ميادة قد وصلتنا لشهرتها وجودتها ولأن ابن ميادة قد اتصل بالوليد وقد استوى على الشعر عوده ، وأما الحسين ومروان بن أبي حفصة فقد اتصلا بالوليد صغيرين ولم يشب لهما بعد قرن في ساحة الشعر ، ومن ثم فقد حرصا على ألا يذيع لهما هما وغيرهم من شعرهم في بني أمية إلا ما لم يكن سبيل إلى إخفائه ، لقد كان الملوك يغارون من شعر قيل في بعض رجالهم بل كانوا يغارون من بعض قصائد الرثاء ، فقد لقي الحسين بن مطير يوما المهدي العباسي فأنشده مادحا :

أَضْحَتْ يمينُكَ مِنْ جُودٍ مصوِّرةً
لا بــلْ يمينُكَ مِنْهــا صُوِّرَ الجــودُ

فقال المهدي : كذبت يا فاسق ، وهل تركت من شعرك موضعا لأحدٍ بعد قولك في معن بن زائدة :

أَلِمَّا بِمَعْنٍ ثُــمَّ قــولا لِقَبْــرِهِ
سَقَتْكَ الغوادِي مَرْبَعاً ثُمَّ مَرْبَعَا [1]

وأنشد القصيدة كلها بيتاً بيتا في مواجهة الشاعر حتى أتمها .

---

(١) الأغاني ١٦/٢٣ .

إن الملك العباسي قد صدمته الغيرة من قصيدة قالها الشاعر في رثاء أحد عماله، وقد مر موقف مماثل له من مروان بن أبي حفصة مع نفس الممدوح وهو معن بن زائدة، فمن باب أولى سوف تكون القصيدة أكثر إثارة للغيرة إذا كانت مديحا ، وهي بالتالي سوف تكون مثيرة للغضب والحفيظة والكراهية لو أنها قيلت في عدو أو خصم ، وإذن فليس ببعيد علينا أن نتصور أن هؤلاء المخضرمين كانوا يعملون على إخفاء شعرهم ذي اللون السياسي الأموي ، وفي أضعف الإيمان كانوا يعملون على الحيلولة بينه وبين أن يذاع .

لقد مر بنا قبل قليل أن الحسين بن مطير ومروان بن أبي حفصة دخلا على الوليد بن يزيد ، ولندع مروان نفسه يقص القصة فهو صاحبها [1] : «دخلت أنا وطُريح بن إسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في عدة من الشعراء على الوليد بن يزيد ، وهو في فرش قد غاب فيها ، وإذا رجل كلما أنشد شاعر شعرا ، وقف الوليد على بيت منه وقال هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعراء ، فقلت من هذا؟ قالوا : هذا حماد الراوية ، فلما وقفت بين يدي الوليد لأنشده ، قلت : ما كلام هذا في مجلس أمير المؤمنين وهو لحانة» وتجري محاورة طريفة بين الشاعر الشاب والراوية المحنك لا يلبث بعد قليل من بدايتها أن ينتصر الشيخ حماد على الشاب مروان على ما مرّ بنا عند الحديث عن مروان .

والأمر الطريف هنا أن القضية ليست مجرد مدح ابن مطير وابن أبي حفصة للوليد ، بل إن الأمر قد تعدى ذلك في عرف مؤرخي الأدب ، فبينما هم يصفون الحسين بن مطير بأنه شاعر مخضرم إذ بهم يصفون ابن أبي حفصة بأنه شاعر عباسي مع العلم أن ممدوحي هذا هم ممدوحو ذاك ، فلقد مدح كل منهما معن بن زائدة والمهدي ،إلا أنّ ابن أبي حفصة قد أوتي فسحة من العمر أطول من ابن مطير [2] فقد مدح الرشيد وسائر العباسيين ، وكان

(١) الأغاني ١٦/١٧ .

(٢) الحسين بن مطير توفي سنة ١٦٩ هـ ومروان بن أبي حفصة توفي سنة ١٨٢ هـ .

يمنح ألف درهم على عن كل بيت شعر يقوله فيهم رغم الفارق الكبير من حيث الإجادة بين شعر ابن مطير وشعره .

قلنا إن الحسين بن مطير شاعر كبير متقدم في الرجز والقصيد ، وهي ملكة قلما توفرت إلا للقليل من الشعراء ، وإذا كان لنا أن نقدم نماذج لهذا الشاعر حتى نضعه في مكانه الصحيح بين الشعراء المخضرمين من ناحية وبين شعراء العربية عامة من ناحية أخرى فقد يكون من الأفضل أن نقدمه من خلال قصيدته في رثاء معن بن زائدة التي تعتبر من أشهر واقوى قصائد الرثاء في الشعر العربي [1] حتى إن ممدوحي الشاعر كانوا يغارون من هذه القصيدة على ما مر بنا قبل قليل :

أَلِمَّا على مَعْنٍ وقُولا لِقبْرِهِ
سَقَتْكَ الغوادِي مَرْبَعاً ثم مَرْبَعَا

فيا قَبْرَ مَعْنٍ أنتَ أولُ حُفْرةٍ
من الأَرْضِ خُطَّتْ للسَّماحةِ مَضْجَعَا

ويا قبر معن كيف واريْتَ جودَهُ
وقد كان منهُ البرُّ والبحرُ مُتْرَعَا

بلى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ ميتٌ
ولو كان حيّاً ضِقْتَ حتى تَصَدَّعَا

فتىً عِيشَ في معروفِه بعد مَوْتِهِ
كما كان بعدَ السَّيْلِ مجراهُ مَرْتَعَا

---

(١) ديوان الحماسة ، الحماسية ٣١٩ والبيان والتبيين ٢٣٧/٣ ، معجم الأدباء ١٦٨/١٠ ، الأغاني ٢٤/١٦ .

ولما مضى معنٌ مضى الجودُ فانقضى

وأصبح عِرْنِيـــنُ المكـــارِمِ أَجْدَعَا *

ولعل الشاعر قد استطاع أن يأسر عاطفة السامع ويشدها إليها من زاويتين أساسيتين ،الزاوية الأولى أنه جعل رثاءه من خلال خطابه القبر الذي توسده معن ، وأني له أن يسع خلقه وفضله وجوده ،والزاوية الثانية هي العاطفة الوافرة التي ضمنها الشاعر معانيه وألبسها كاماته في إطار من القول الآسر والقافية الموسيقية الحزينة فأصبحنا ونحن نقرأ القصيدة كأننا نستمع إلى قطعة رائعة من الموسيقى الحزينة .

ليس من شك في أن شهرة ابن مطير قد جاءته عن طريق هذه المرثية فإنه قلما خلت صفحات كتاب قديم منها ، ولقد فطن الحسين إلى ذلك من كثرة ما سمعه من إطراء بسببها فكان من الذكاء بحيث لم يحاول أن يكتب مرثية غيرها أو هكذا على الأقل قد خيل إلينا لأننا لم نعثر له في كل ما قرأناه له من شعر على مرثية أخرى ، وعلى كل حال فإن هذه المرثية خليقة بأن تثبت قدميه على المنصة التي يعتليها كبار الشعراء المجيدين ومن ثم فقد عده ياقوت بين فحول المحدثين [1] .

فإذا ما تناولنا الحسين بن مطير من زاوية المديح ، وهي الموضوع الأول الذي يطرقه كل شاعر في أول عهده بالشعر حتى يحصل على رفد يستعين به على شئون الحياة وحتى يضع اسمه في سجل شعراء زمانه لأن أهم وسائل الشهرة في الماضي كانت مدح الخلفاء والملوك وعمالهم وقادتهم ، فإذا ما نجحت قصيدة مديح رفعت من قدر قائلها ودفعت به إلى مصاف الشعراء المشهورين .

نقول إن ابن مطير قد ذهب ينتجع النوال والشهرة عند بعض معن بن

(*) الغوادي السحب التي تغدو ، مربعا بفتح الميم يعني ربيع أي ربيعا بعد ربيع وتقرأ أيضا بضم الميم وكسر الباء وهو الغيث العظيم ينبت بعده الربيع ، العرنين ما ارتفع من الأنف والأرض ، أجدع مقطوع.

(١) معجم الأدباء ١٠/١٦٧ .

زائدة ولكنه يمر بتجربة طريفة لأنه لم يلق قبولا عند أول لقاء ، فاستعد للقاء ثان سريع يصل من خلاله إلى مبتغاه على ما سوف نفصل بعد قليل

لم تصل إلى أيدينا مدائح الحسين في الوليد بن يزيد ، كما لم تصل إلينا مدائح له في غير الوليد من الأمويين ، ولكن لعل أولى مدائحه كانت في معن ذلك الذي عرضنا لمرثيته فيه قبل قليل ، كان معن فارسا كريما من أعيان بني شيبان ومن اجود العرب على أيام الأمويين والعباسيين ، ولما قامت دولة العباسيين وزالت دولة الأمويين استتر بعض الوقت وجدّ العباسيون في طلبه ، فلما كان يوم الهاشمية وثارت جماعة من خراسان على المنصور ظهر معن وحارب بين يديه حتى كتب له النصر فقربه المنصور إليه وولاه اليمن ثم سجستان . يسمع الحسين بن مطير بمعن فيخرج من ديار قومه شرقي جزيرة العرب ويتجه إلى اليمن ويدخل على معن كما دخل مروان بن أبي حفصة ولكن فرقاً كبيراً بين دخول هذا ودخول ذاك ، فمروان مدح معناً بقصيدة منحولة مشتراة وأما الحسين فمدحه بقصيدة أصيلة مستوحاة ، يواجه الحسين معناً وينشده :

أتيتكَ إذْ لم يَبْقَ غيرُكَ جابرٌ ولا واهِبٌ يُعْطِي اللُّهَا والرغائِبَا

فيقول له معن وكان فصيحا ذا رأي في الشعر : يا أخا بني أسد ، ليس هذا بمدح ، إنما المدح قول نهار بن توسعة [1] أخي بني يتيم الله بن ثعلبة في مسمع بن مالك :

قَلَّدَتْهُ عُرَى الأُمورِ نزارٌ قبل أَنْ تُهْلِكَ السُّراةَ البحورُ

فانصرف الحسين ثم عاد في الغداة ومعه أرجوزة مدح رقيقة سلك فيها نهج أبي نخيلة السعدي فاستهلها بالتشبيب قائلا :

حديثُ ريَّا حبَّذَا إدْلالُهَا
تسألُ عنْ حالِي ومَا سُؤَالُهَا
عن امرىءٍ قد شَفَّهُ خَيَالُهَا
وهْيَ شفاءُ النَّفْسِ لو تَنَالُهَا

(١) هو نهار بن توسعة من بكر وائل ، وكان أشعر بكر بخراسان أيام الأمويين .

ثم انتقل إلى المديح قائلا :

سَلَّ سيوفاً مُحْدَثاً صِقَالُهَا
صابٌ عـلى أعدائِهِ وبَالُهَا
وعندَ مَعْنٍ ذِي النَّدَى أَمْثَالُهَا

ولما كان معن يميز بين الجيد والرديء من الشعر فقد اكتشف في الشاعر الذي أمامه موهبة سخيَّة ، ذلك أنه قلما يجمع المرء بين القصيد والرجز في ثوب من الإجادة ، وأما الحسين فقد فعل وذلل خشونة الرجز وجعل منه بحرا مطواعا لسفينة المديح تسير على صفحته في غير ما صخب ولا خشونة ، ومن ثم فقد استحق الشاعر جائزة معن .

ويأنس الحسين في نفسه القدرة على مدح الملوك، ولكن بعد أن يكون معن قد قضى نحبه فيولي وجهه مشرّقا إلى بغداد ، ويكون من شأنه ما ذكرنا في صدر هذا الحديث ، ولكن لا يلبث المهدي وكان بدوره أديباً تلقى الأدب على يد المفضل الضبي استاذه وسميره أن يرى في الحسين بن مطير أداة بارعة من أدوات مدح بني هاشم فيستمع إليه ويطرب لسماع شعره ويجزل له العطاء، فتارة يعطيه عن القصيدة الواحدة سبعين ألف درهم ، وتارة أخرى يعطيه عن كل بيت ألف درهم وهكذا ، ولم يكن هذا الفيض من العطـاء عن كرم في المهدي بقدر ما كان عن جودة وإتقان من ابن مطير ، فلنستمع إليه ينشد المهدي هذه المديحة : (١)

إليـكَ أميـرَ المؤمنيـن تَعَسَّفَتْ
بنا البِيدَ هوجـاءُ النَّجـاءِ خَبُـوبُ
ولو لم يكنْ قُدَّامَهـا مـا تقاذَفَتْ
جبـالٌ بها مُغْبَـرَّةٌ وسُهُـوبُ

(١) الأغاني ١٦/٢٢ ، ٢٣ .

فتىً هو من غيـــر التَّخَلُّقِ ماجـدٌ
ومِنْ غيرِ تـأَديـــب الرجالِ أَديبُ
علا خَلْقُهُ خَلْقَ الرجالِ وخُلْقُـــهُ
إذا ضاق أَخـــلاقُ الرجالِ رحيبُ
إذا شاهد القـــوادَ سار أَمامَهُـــمْ
جريءٌ على مـــا يتَّقُـــونَ وَثُـــوبُ
وإنْ غـــاب عنهمْ شاهدتهـــم مهابةٌ
بهـــا يُقْهَـــرُ الأَعـــداءُ حيـــن يَغِيبُ
يَعَفُّ ويستحيِي إذا كـــان خاليـــاً
كما عَفَّ واستحيَـــا بحيـــثُ رقيبُ

ونحن إذا أخضعنا هذه الأبيات لمعايير النقد التقليدية وجدنا الشاعر استهل قصيدته بالرحلة إلى الممدوح ثم وصفه بالمجد والأدب وجمال الطلعة ورحابة الأخلاق والشجاعة والإقدام والهيبة والعفة ، وأما إذا أخضعناها لمعايير الذوق الفني وجدنا شعرا سلسا رقيقا تنساب فيه الموسيقى بوفرة ولا نحس فيه تصنعا يصدم السمع ولا تعسفا يقلق الخاطر ، كما أن المعاني التي طرقها وإن لم تكن جديدة الخلق فهي جديدة الصوغ بارعة التجميع مستريحة الترتيب ، فليس كل الشعراء يأتون بالجديد من المعاني ، وليس كل من يأتي بمعنى جديد يحسن صوغه وتقديمه ، ولعل معنى مألوفاً صيغ صياغة رقيقة سمحة خير ألف مرة من معنى جديد صيغ صياغة مريضة سمجة . لذلك فإن المهدي وقد طرب إلى مدحه طربه إلى عذوبة الشعر الذي سمعه فإنه أمر للشاعر بسبعين ألف درهم وحصان جواد .

وللحسين بن مطير في المهدي قصيدة من عيون الشعر توفرت لها كل

سمات الفحولة وتجمعت فيها كل أسباب النجاح، اعتمد فيها المبالغة في مخاطبة العواطف مع احتشاد للمعاني وإتقان في النّسج مع التطرف في المقابلة بين المعاني بحيث جعل من أبياته بناء شامخا استحقت به أن تنـــال شهرة ربما لم تقل عن شهرة أبياته في معن مع أن هذه مديحة والأخرى مرثية ، يقول الحسين في مدح المهدي : (١)

له يومُ بُؤْسٍ فيه للنـــاسِ أَبْؤُسٌ
ويومُ نعـيمٍ فيـــه للنـــاسِ أَنْعُـــمُ
فَيُمْطِرُ يومَ الجودِ منْ كفِّهِ النَّدَى
ويقْطُرُ يومَ البَأْسِ من كفِّهِ الدَّمُ
ولو أَنَّ يومَ البأْسِ خَلَّـــى عقابَهُ
على الناسِ لم يُصْبِحْ على الأَرضِ مُجْرِمُ
ولو أَنَّ يومَ الجودِ خَـــلَّى يمينَهُ
على الناسِ لم يُصْبِحْ على الأَرْضِ مُعْدِمُ

وإذن فبرغم ما يبدو عند الحسين بن مطير في مجال المديح من تقليدية ظاهرة إلا أنه من ناحية أخرى شديد العارضة فحل الصياغة خصب الشاعرية متمكن من القصيد رائع الموسيقى بارع تجميع المعاني ، في مدائحه دسم وشبع وريّ وطرب .

وإذا انتقل بنا الحسين إلى غزلياته عرض لنا منها ألوانا من القصائـــد ومجموعات من المقاطع التي نلمس من جملتها عفة تتمشى في أردانه ، وروحا أخلاقية تحول بينه وبين أن يتهتك أو يتهافت ، ومن ثم فإنه يبدو مطبوعا

(١) ديوان الحماسة (أبي تمام) ص ١٥٩٧ حماسية ٦٩٣ وزهر الآداب ٢/٩٨٠ ، ٩٨١ .

بطابع غزل أهل البداوة الذين لا يستسيغون ما يتقبله أهل الحضر من عبارات تخرج أحيانا عن مألوف الأسماع وتند عند متعارف الأذواق ، فالحسين رغم تردده على دمشق أيام الأمويين واختلافه إلى بغداد أيام العباسيين ، ظل ذلك البدوي المستمسك بعادات قومه وزيّ أهله وأسلوبهم في الحياة والكلام .

إن الحسين والأمر كذلك يذكرنا كل التذكرة بغزل أبي حية النميري بصوره العديدة التي إن تطورت بعض الشيء ففي نطاق بداوته وتقاليدها ، وهو أيضا قريب في غزله من غزل ابن ميادة الذي لا شك عاصره بعض الوقت ، وإن كان ابن ميادة أكبر منه سنا وأبكر ميلادا ؛ على أن لابن مطير أحيانا شطحات غزلية عمد فيها إلى التقعر في الألفاظ والتوعر في القوافي ، وهو من ناحية أخرى له صور فيها جدة وطرافة تخرج به عن النطاق التقليدي من الشعر الجيد إلى مدرسة التجديد في نطاق الشعر الجيد أيضا . وشاعرنا بعد ذلك كله فياض العاطفة حين يعبر عن نفسه ، عميق التأثير في غزلياته .

يقول ابن مطير من غزلية طريفة عمد فيها إلى بساطة التعبير ويسر الترجمة عن كوامن حبه وخوافي مشاعره نحو صاحبته «سهمة» من بني عمرو :[1]

خليليَّ مـن عمْرو قِفـا فتعرَّفَـا
لِسَهْمَـةَ داراً بيـن لِينَـةَ والحَبْلِ
وفيهـنَّ مقـلاقُ الوشاحيْن طَفْلَةٌ
مُبَتَّلَةُ الأَطرافِ ذاتُ شَوىً خَدْلِ
حَصَانٌ لها لوْنَانِ جـونٌ وواضحٌ
وخَلْقَانِ شيءٌ من لطيـفٍ ومن عَسْلِ
وسُنَّتُهـا بيضـاءُ واضحـةُ السَّنَـا
وذُرْوَتُهـا مُسْوَدَّةُ الفـرعِ والأَصْل

(١) طبقات ابن المعتز ص ١١٧ ، ١١٨ .

وبعد أن يخلع الحسين على صاحبته كل هذه المجموعة من الأوصاف الجميلة من مادية ومعنوية يبدي تعجبه لموقفه هذا من تلك التي قتلته عشقا وصبابة ، ولشاعره نحو أهلها الذين هم إلى قلبه وعينه أحب من أهله :

فيا عَجَباً مِنِّي ومنْ حـبٍّ قاتِلِي
كأَنِّي أُجَازِيـهِ المودَّةَ عـن قَتْلِي
ومن غِنَيَاتِ الحبِّ أَنْ كان أَهلُها
أَحبُّ إلى قلبي وعيْنِيَ مِنْ أَهْلِي *

ولابن مطير طاقة فريدة على تصوير وجدانه المهتاج وصبابته الحارة ، وهو يربط بين تصوير عشقه وبين وصف المحبوبة التي يجيد رسم صورتها ويخلع عليها نفحات من الجمال بحيث يبدو الانسجام بين وصفه الحبيبة ووجده بها ، ومن أرق ما أنشأ في هذا السبيل قوله : (١)

لقد كنتُ جَلْداً قبلَ أَنْ تُوقِدَ النَّوى
على كبدِي ناراً بطيئـاً خُمُودُها
ولو تُرِكتْ نارُ الهـوى لتضرَّمَتْ
ولكن شوقـاً كلَّ يـومِ يَزِيدُهـا
وقد كنتُ أَرجو أَن تمـوتَ صبابتي
إذا قَدُمَـتْ أَيامُهـا وعهودُهـا

(*) الشوى الأطراف ، الخدل الممتلئة . العسل بتسكين السين الاهتزاز أو الخلط بالعسل . سنتها وجهها أو دائرة وجهها ، ذروتها رأسها ، الفرع والأصل الضفائر ولمة الشعر . غنيات واحدتها غنية وهي اليسار والغنى .

(١) زهر الآداب ٩٨٠ وانظر أيضا طبقات ابن المعتز ١١٧ والأمالي للقالي ٤٣٤/١ ومعجم الأدباء ١٧٦/١٠ .

فقد جَعَلْت في حبـةِ القلبِ والحشا
عِهادَ الهوى تُولي بشوقٍ يُعيدُهـا
بمرتَجَّـةِ الأَرداف هيـفٌ خصورُها
عِذابٌ ثناياها عجـافٌ قيودُهـا
وصُفْـرٌ تراقيهـا وحمـرٌ أَكفُّها
وسودٌ نواصيهـا وبيضٌ خدودُها [1]
مخصَّرَةُ الأَوساطِ زانَـتْ عقودَهـا
بأَحسنَ ممـا زَيَّنَتْهـا عقودُهـا
يُمنِّينَنَـا حـتى تـرفَّ قلوبُنـا
رفيـفَ الخُزَامَى باتَ طـلٌّ يجودُها
وفيهنَّ مِقْـلاقُ الوشاحِ كأَنهـا
مهـاةٌ بِتِرْبَـانٍ طويـلٌ عمودُهـا
وكنتُ أَذودِ العينَ أَنْ تـرِدَ البُكا
فقدْ وردَتْ ما كنتُ عنه أَذُودُهـا
خليليَّ ما بالعيشِ عَيْـبٌ لو انَّنَـا
وجدْنَا لأَيـامِ الصِّبَا مَـنْ يُعيدُها
ولي نظرةٌ بعْدَ الصدودِ مِنَ الجوى
كنظرةِ ثكـلَى قد أُصيـبَ وليدُها
هل اللهُ عافٍ عـن ذنوبٍ تَسَلَّفَتْ
أَمِ اللهُ إِنْ لمْ يَعْفُ عنها مُعِيدُها

(١) العهاد جمع عهدة وهو المطر الأول والولي المطر الثاني . وصف التراقي بالصفرة من الطيب أو من الحلي ، كما وصف الأكف بالحمرة من الخضاب .

ليس من شك في أن مدرسة جرير وأبي حية النميري في الغزل تطلان هنا بوضوح، وتبدو في حواشي هذا القول روح الجزالة الموشاة بالرقة والصدق التي اتسم بها شعر الشاعرين العظيمين السابقين ومن ثم فإن أبيات الغزل تلك التي عرضناها تضع الحسين بن مطير في مكان رفيع في ميدان القول في الغزل :

على أن الأمر لم يقف بالحسين في غزله عند حد الإجادة وانتزاع الإعجاب، ولكنه بدأ يضرب في أرض جديدة ويستنبت معاني طريفة ويستحدث صيغاً فريدة تغلب عليها روح المدنية ، فبدأ والأمر كذلك يخطو وئيداً على درب التجديد :

وصفر تراقيها وحمر أكفها وسود نواصيها ..... الأبيات

والحسين بن مطير يحرص دائما في غزله على أن يجعل لمعاني العفة مكان الصدارة ، وربما كان أحرص الشعراء العاشقين جميعا على إظهار هذه المعاني ، وهو يفعل ذلك دون أن ينال من رقة القول أو حرارة الشوق أو حرقة اللوعة أو الاهتمام بالعازلين ، يقول الحسين من قصيدة حب طويلة : [1]

أُحِبُّـك يـا سَلْمى عـلى غيرِ ريبةٍ
ولا بـأْسَ في حُبٍّ تَعِفُّ سرائـرُهْ
ويا عازلي لـولا نفـاسةُ حبِّهـا
عليكَ لمـا باليْتُ أنـكَ خابِـرُهْ
بِنَفْسِيَ مـن لا بُـدَّ أنـيَ هاجرُهْ
ومَنْ أنا في الميسورِ والعسْرِ ذاكرُهْ
ومن قدْ لحاه الناسُ حتى اتقاهُمُ
ببغْضِيَ إلاَّ مـا تُكِـنُّ ضمائـرُهْ

(١) أمالي القالي ١/٤٣٢ .

أُحبُّكِ حبّاً .لـن أُعنِّـفَ بعـده
محِبّاً ولكنِّي إذا لِيـم عَـاذِرُهْ
لقد مات قبلي أَولُ الحبِّ فانقضى
ولو مُتُّ أَضحى الحبُّ قد مات آخرُهْ

على أننا في خضم هذه الرقة في أسلوب الحب وبراعة التعبير عن كوامنه لا يلبث ابن مطير أن يشطح بنا في بعض قصيده فتبدو منه بدوات تجعل البون شاسعا بين ما قصد إليه من حب وما سعى إليه من وسائل التعبير ، إن الحب معنى رقيق وإحساس رفيق وهذا المعنى وذاك الإحساس يحتاجان لا شك إلى أن يصاغا صياغة سهلة سمحة عذبة ، وإذا سلك المحب الشاعر في التعبير عن ذات نفسه طريقا غير هذا الطريق فقد خرج عن المحجّة السايمة المستقيمة. إن الحسين بن مطير قد عمد أحيانا إلى هذا السبيل الوعر حين عبر عن حبه فقال : (١)

كأَنَّنَا ياسُلَيْمَى لمْ نُلِـمَّ بكـمْ وتحتنـا عَلَسِيَّـاتٌ ملاجِيجُ
ولمْ نكلمْكِ في الحسَّادِ قدْ حضروا
وفي الكلامِ عن الحاجاتِ تَحْلِيجُ
ولم نَقُلْ يوم سارتْ عِيسُكُمْ عَنَقاً
والدَّوْسَرِيُّ بجذْبِ السَّاج مَجْرُوجُ
سَقَى سَقَى اللهُ جيرانـاً لنا ظَعَنُوا
لما دنا من رياض الحَزْنِ تَهْيِيـجُ
لمْ أَخْشَ بينَهُمُ حتى غدَوْا حِزَقـاً
واسْتَوسَقَتْ بهـمُ البُـزْلُ العَنَاجِيجُ

(١) طبقات ابن المعتز ص ١١٤ ، ١١٥ .

ويمضي الحسين على هذا الأسلوب الصعب ويسير في هذا النهج الوعر حتى يقول :

هلْ يُدْنِيَنَّكَ مــن سلمى وجيرتهــا
قلائــصٌ أَرْحَبِيَّــاتٌ حَرَاجِيــجُ
هُدْلُ المشافِرِ ، أَيْدِيهــا مُوَثَّقَــةٌ
زُجٌّ ، وأَرْجُلُهــا زُلٌّ هَزَالِيجُ[1]

والحق أن التعبير عن الحب وهو من أسمى المشاعر الإنسانية بمثل هذا الأسلوب الذي لم نشهد له مثيلا من قبل يعتبر ضربا من العبث ، ولعل الشاعر كان قد عمد الى ذلك عمدا حتى يثبت أن له قدرة على الإغراب إذا أراد ، وربما كان سلوكه هذا الأسلوب من باب التحدي أو التنويع ، غير أن ذلك كله لا ينهض سببا معقولا او تبريراً مقنعاً يحمله على ركوب هذا المركب الخشن في ميدان رقيق كميدان الحب .

وإذا كان الحسين بن مطير واحدا من رواد التجديد في شعر المحدثين بما طرق من معاني جديدة على ما سوف نبين بعد قليل فليس من شك أيضا في أن إنشاءه مثل هذه القصيدة في هذا المعنى بالذات وعلى هذا الأسلوب الحوشي يجعل للنقاد الذين باعدوا بين روح شعره وروح شعر المحدثين عذرا بيّنا ، غير أنه لحسن الحظ لم يكرر هذا الأسلوب في قصيدة أخرى ، بل ظل على طريقته من سلاسة الأسلوب وانتقاء المعاني وحسن عرضها .

وإذا كان لنا أن نشير إلى بعض المعاني المستحدثة التي تضع ابن مطير في طبقة المؤسسين الأوائل لاتجاهات التجديد فعلينا بهذه الأبيات الغزلية الرقيقة :[2]

(١) علسيات نسبة لبني علس ، ملاجيج ذات أصوات وجلبة ، تحليج تصفية وراحة. العنق ضرب من السير ، الساج شجر عظيم خشبه صلب ، مجروج قلق ، الحزق الجماعات ، استوسقت استجابت لطردها ، العناجيج الابل النجيبة . الحراجيج النياق السمينة . زج جمع أزج وهو الطويل الساقين ، والزل جمع أزل وزلاء وهو الخفيف الوركين ، الهزاليج السريعة .
(٢) نور القبس ص ١٥٥ .

أَيْنَ أَهـلُ القِبَـابِ بالدَّهْنَـاءِ أَيـنَ جيرانُنَـا عـلى الأَحْسَاءِ
جاوَرُونـا والأَرضُ مُلْبَسَةٌ نَـوْ رَ الأَقاحِـي تُجـادُ بالأَنْواءِ
كـلَّ يـومٍ بأَقحوانٍ جَدِيـدٍ تَضْحَكُ الأَرضُ منْ بكاءِ السَّماءِ

وهذه الأبيات محدثة من وجوه شتى، فهي ضرب جديد رقيق من وصف الطبيعة لم يعمد اليه الشعراء قبله، ثم هي تعتمد على الكثير من الاستعارات الرائقة من الناحية البيانية، وهي إلى ذلك قد تمخضت عن صنعة بديعية باكرة في المطابقة اللطيفة «تضحك الأرض من بكاء السماء»

لقد كان ابن مطير أسبق من المحدثين جميعا في هذا الضرب من القول ولكنه كان مغمورا عند كثير من النقاد الذين عجبوا من قول دعبل :

لا تعْجَبِي يا سَلْمُ مـنْ رجُـلٍ ضحِكَ المشيبُ برأْسِهِ فَبَكَى

والمعنى مأخوذ كما هو واضح من أبيات الحسين بن مطير سالفة الذكر، وهي بدون شك أوفر صنعة وأرق صياغة، ولم يكن دعبل الشاعر الوحيد الذي أخذ معنى الحسين بن مطير، بل إن مسلم بن الوليد الذي يلقبه بعض النقاد بإمام المحدثين من الشعراء قد أخذ هذا المعنى من قوله :

مُسْتَعْبِـرٌ يَبْكِي عـلى دِمْنَـةٍ ورأْسُهُ يضحـكُ فيه المشِيبُ

وأخذ ابن المعتز نفس المعنى في قوله :

أَلَحَّـتْ عليه كـلُّ طَخْيَاءَ دِيمةٍ إذَا ما بَكَتْ أَجفانُها ضحكَ الزَّهْرُ

وللحسين أكثر من صورة طريفة مستحدثة تبدو الصناعة البديعية الباكرة واضحة فيها كل الوضوح ، مثال ذلك قوله :

بيضـــاءُ تسْحبُ منْ قيامٍ فَرْعَها
وتَغِيبُ فيـــهِ وهو جَعْدٌ أَسْحَمُ
فكأنهـــا منـــهُ نهـــارٌ مُشْـــرِقٌ
وكأَنَّـــهُ ليـــلٌ عليهـــا مُظْلِـــمُ

فالمقابلة بين النهار المشرق والليل المظلم في نطاق المعاني الرقيقة التي تضمنها البيتان ظاهرة جديدة في صناعة الشعر حتى عصر الحسين بن مطير على أقل تقدير .

وإذن فلئن أغرب ابن مطير في باب الغزل بقصيدته الجيمية الحوشية التي مرَّ نصُّها ، فلقد عوضنا عن توعره ذاك ما قـــد أرضى أذواقنا في قصائده الغزلية العفة الأخلاقية ، وفي صور الصناعة الجديدة المبكرة التي مرت في الأبيات السابقة والتي سوف نعرض لصور أخرى منها بعد قليل .

وكان للحسين بن مطير مشاركة طيبة في قول الحكمة تجري على قلمه مطواعة لينة زلولا ، إنه يأتي بها ترجمة لتعامله مع الحياة وخبرته بها وتجريبه إياها وحلبه أشطرها ، يقول الحسين : (١)

ولي كبدٌ مَقْروحَةٌ مَـــنْ يَبِيعُنِـــي
بهـــا كَبِـــداً ليْسَـــتْ بذاتِ قُرُوحِ
أَبَاهَـــا عـــليَّ الناسُ لا يَشْتَرُونَها
وَمَـــنْ يشْتَـــرِي ذَا عِلَّـــةٍ بصحيحِ

(١) معجم الأدباء ١٠/١٧٨ ، أمالي المرتضى ١/٤٣٦ ، وقد نسب بعض الرواة هذين البيتين لابن الدمينة لاشتراكهما مع أبيات له في البحر والقافية والروي والشكوى .

وابن مطير يقدم حكمته الأصيلة في ثوب أنيق من الإيقاع وإطار رائق من الألفاظ بحيث لا تدخل من أذن وتخرج من الأخرى وإنما تدخل لكي تستقر في العقل وتنغمس في الوجدان وتبقى معهما طويلا كحصيلة دراسة عميقة واقعية لصروف الزمان ومعاملات الإخوان، يقول الحسين بن مطير الحكيم.: [1]

تقلَّبْتُ في الإخوانِ حتى عرفْتُهمْ
ولا يعرفُ الإخوانَ إلاَّ خَبِيرُهَا
فلا أَحْرِمُ الخلانَ حتى يُصَارِمُوا
وحتى يسيروا سِيرةً لا أَسِيرُهَا
فإنكَ بعد الشرِّ ما أَنت واجدٌ
خليلاً مُديماً شيمةً لا يُدِيرُهَا
وإنكَ في غيرِ الأَخلاَّءِ عالمٌ
بأَنَّ الذي يَخْفَى عليك ضميرُهَا
فلا تكُ مغروراً بِمِسْحةِ صاحبٍ
منَ الوُدِّ لا تدْرِي عَلاَمَ مَصِيرُهَا
وما الجودُ عن فقرِ الرجالِ ولا الغِنى
ولكنه خِيمُ الرجالِ وخِيرُهَا
وقد تَغْدِرُ الدنيا فيضحَى غنِيُّها
فقيراً ويَغْنَى بعدَ بُؤْسٍ فقيرُهَا
وكائنْ ترَى مِنْ حالِ دنيا تغيَّرتْ
وحالٍ صفَا بَعْد اكْدرارِ غديرُهَا

---

(١) أمالي المرتضى ٤٣٣/١ .

وَمِنْ طامعٍ في حاجـةٍ لـنْ ينالَها
ومِنْ يائسٍ منهـا أتـاهُ بشيرُهَـا
ومَنْ يتَّبعْ ما يُعْجِبُ النفسَ لا يزلْ
مُطيعاً لها في فِعلِ شيءٍ يَضيرُهَـا
فنفْسَكَ أكرمْ عـن أمـورٍ كثيرةٍ
فما لَكَ نفسٌ بعدها تَسْتَعِيرُهـا

قلنا إن أبيات الحكمة التي يقولها الحسين تدخل إلى الأذن وتستقر في العقل والوجدان فينشغل العاقل بها كثيرا ، ولقد كانت بعض هذه الأبيات سببا في تسهيد ملك كبير تجمعت له كل أسباب السعادة المادية والمعنوية والاستقرار السياسي والهناء النفسي ، إنه المهدي العباسي الذي قال للمفضل الضبي ذات يوم : [1] أسهرتني البارحة أبيات الحسين بن مطير الأسدي ، قال : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : قوله :

وقدْ تَغْدِرُ الدنْيَا فَيَضْحَى غنيُّها فقيراً ويَغْنَى بعدَ بؤسٍ فقيرُهَا
فلا تَقْربِ الأَمْرَ الحرامَ فإنـه حلاوتُهُ تَفْنَى ويبقى مريرُهَا
وكمْ قدْ رأينا مِنْ تغيُّـرِ عيشةٍ وأخرى صفَا بعد اكدرارٍ غديرُهَا

فأجابه المفضل الضبي إجابة عاقلة غير منافقة ، إجابة العلماء : مثل هذا فليسهرك يا أمير المؤمنين .

والحكمة ليست موضوعا جديدا من موضوعات الشعر العربي ، فطالما طربنا لحكمة زهير ، وطالما طربنا أيضا للمعاني الإنسانية التي كانت تتضمنها أبيات القطامي ، وصالح بن جناح اللخمي الدمشقي ، ولكنها ما لبثت أن

---

(١) الأغاني ١٦/٢٠، ٢١، أورد الأصفهاني رواية الأبيات مختلفة بعض الشيء عن رواية المرتضى

غابت لكي تعود مرة أخرى عذبة سلسة على لسان الحسين ابن مطير ، وإذن فهي فن متجدد بعد فترة من الركود ومبتعث بعد حقبة من التواري والاختفاء .

وإذا عرض ابن مطير للوصف ، وهو واحد من أدق الموضوعات التي تعتبر محكا لمقدرة الشعراء ، لم نجده ثابت القدم راسخ البناء وحسب ، بل وجدناه مبدعا مجددا مستحدثا من المعاني والصور والصيغ ما لم يسبق إليه .

لقد مرت أبياته الهمزية التي أضحك الأرض فيها من بكاء السماء، ومرّ أيضاً بيتاه في وصف الفتاة الحسناء التي بدا وجهها بين شعرها كالنهار المشرق، وشعرها بالقياس إلى وجهها كالليل الأسحم ،والآن نقدم صورة شعرية للحسين جديدة كل الجدة ، مبتدعة كل الابتداع ، إنه تصوير جديد للمطر لم يسبق إليه رغم ما قدمه شعراء سابقون له من صور في ذلك لعل أجودهن كانت صورة ابن ميادة حينما رأى مطراً شديدا مدمرا فقال هذا العيث لا الغيث ، فلما سئل ما الغيث قال البيتين الرقيقين اللذين أوردناهما في آخر فصل الحديث عن ابن ميادة . أما وصف الحسين بن مطير للمطر فإنه ضمنه قصيدة طويلة بعض الشيء جمع فيها ألوانا من صور البيان والبديع من تشبيهات واستعارات وطباق ومقابلة وتشطير ، والطريف في الأمر أن الشاعر برغم محاولته الطريفة هذه لم يفسد معانيه ولم يجعل الألفاظ سيدة لها ، يقول ابن مطير في المطر : [1]

وكأنَّ بارقَهُ حريقٌ يلتقي ... رِيحٌ عليه وعَرْفَجٌ وأَلاَءُ
وكأَن رَيِّقَهُ ولمَّا يَحْتفِلْ ... وَدْقُ السَّماءِ عَجَاجَةٌ كَدْرَاءُ
مُسْتَضْحِكٌ بلوامعٍ ، مستعْبِرٌ ... بمدامعٍ لمْ تَمْرِها الأَقْذاءُ
فلهُ بلا حزنٍ ولا بمَسَرَّةٍ ... ضحكٌ يؤلفُ بينَهُ وبُكاءُ
حيرانُ متَّبِعٌ صباهُ تَقُودُهُ ... وجَنُوبُه كَنَفٌ له وَوِعاءُ

(١) الشعر والشعراء ٩١ ، ٩٢ ومعجم الأدباء ١٠/٧١ – ٧٣ .

ودَنَـتْ لـه نكبـاؤُه حـتى إذا مِنْ طولِ ما لعبتْ به النكْباءُ
ذابَ السحابُ فهـو بحرٌ كُلُّـهُ وعـلى البحورِ من السَّحابِ سماءُ
ثَقُلَتْ كُلاهُ فنهَّـرَتْ أصلابَـهُ وتَبَعَّجتْ مـن مائِـه الأَحشاءُ
غَدِقٌ ينتِّـجُ بالأَباطِـح فُرَّقـاً تلدُ السيولَ وما لها أَسْـلاءُ
غُـرٌّ محجَّلـةٌ دوالـجُ ضُمنـتْ حَمْـلَ اللقـاحِ وكُلُّها عَذْراءُ
سُحْمٌ فهنَّ إذَا كظَمْـنَ فواحـمٌ سودٌ وهنَّ إذا ضحِكْنَ وضَاءُ
لو كان من لُجَجِ السواحلِ ماؤُهُ لم يَبْقَ مِنْ لُجَجِ السواحِلِ ماءُ *

إن الحسين بن مطير نزع إلى الصورة الجديدة والصنعة المبتكرة والغرض المتجدد في رحاب الطبع الأصيل ، ومن ثم فإنه واحد من الذين رسموا للقفزة الشعرية التي قفزها الشعر في مستهل العهد العباسي خطاها، وأسهم فيها إسهاما فعالا وإن بدا في ثوب من التواضع وإطار من البعد عن الصخب والضجيج الذي اصطنعه شعراء آخرون .

(*) العرفج ضرب من النبات سهلي سريع الانقياد، الألاء شجر حسن المنظر مر الطعم ، ريق المطر أفضله أو أول شؤبوبه ، الودق المطر . لم تمرها لم تسيلها من قولهم مريت الناقة إذا مسحت ضرعها لتدر . الكنف بفتحتين أو بكسر وسكون وعاء يكون فيه أداة الراعي ومتاعه أو الوعاء الذي يكنف ما جعل فيه أي يحفظه . النكباء الريح الشديدة . تبعجت انشقت . الغدق المطر الكثير . فرّق جمع فارق وهي السحابة المنفردة. الأسلاء جمع سلي وهو الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه . الدوالع المثقلات بالماء . سحم جمع أسحم يعني سود .

ابن هرمة ٧٠ – ١٥٠ (*)

(١)

وابن هرمة بدوره واحد من أبرع شعراء المخضرمين بين «الأموية» «والعباسية» ولعله أوفر حظا من حيث معرفة اسمه دون أدبه من زملائه الشعراء المخضرمين ، وهو من أبناء المدينة ، بل من القرشيين أرومـــةً أو انتسابا ، واسمه ابراهيم ابن علي بن سلمة بن هرمة وكنيته أبو إسحاق .

وأخبار ابن هرمة – بفتح الهاء وسكون الراء – مقرونة في أكثرها بما يثير ويلفت النظر ، وهو بدوره صورة صادقة للفترة الزمنية التي عاشها من الناحيتين الاجتماعية والسياسية .

ويعتبر الأصمعي ابن هرمة خاتم الشعراء فيقول : ختم الشعر بابن هرمة فإنه مدح ملوك بني مروان وبقي إلى آخر أيام المنصور[١] ، ولا شك في أن الأصمعي يقصد بعبارته أن ابن هرمة خاتم الشعراء المخضرمين المجيدين لأن هناك عددا وفيرا من الشعراء الذين مدحوا ملوك الدولتين على ما هو واضح في دراستنا هذه ، ويذكر البغدادي أن الأصمعي قال : ساقـــة الشعراء ابن ميـــادة وابن هرمـــة ورؤبة وحـــكم الخضري[٢]

(١) طبقات ابن المعتز ص ٢٠ .
(٢) الخزانة ١/٤٢٥ .

ريذكر ابن قتيبة أن ساقة الشعراء: ابن ميادة وابن هرمة ورؤبة وحكم الخضري ومكين العذري [1] وينسب الاصبهاني إلى الأصمعي قوله : ختم الشعر بابن هرمة والحكم الخضري وابن ميادة وطفيل الكناني ومكين العذري . [2] فابن هرمة ، كما نرى ، مشترك الذكر في كل رواية رواها الأصمعي حول كبار شعراء المخضرمين ، أو كبار الشعراء المتأخرين إذا ما ارتضينا تعريف الأصمعي لساقة الشعراء بمتأخريهم .

وارتباط ابن هرمة بالدولتين فنياً ارتباط ثابت مؤكد، فلقد مدح الوليد بن يزيد كما مدح أبا جعفر المنصور وإن كانت جملة من مدائحه لأبي جعفر مسطورة مثبوتة ، وأما مدائحه للوليد فلم يبق منها إلا شتات مبعثر في بطون الكتب ، بيت هنا وبيتان هناك ، وهذا أمر طبيعي فأكثر الشعراء المخضرمين على ما مرّ من ذكر ، قد حرصوا على ألا يذكروا شعرهم في بني أمية خشية بطش بني العباس أو في أحسن الحالات خوفا من حجب صلاتهم وجوائزهم ، ولقد مرّ بنا كيف طرد المنصورُ العبليَّ من مجلسه ، وكيف احتال ابو نخيلة الراجز حتى أرضى السفاح .

قلنا إن ابن هرمة يمثل في شعره وسلوكه الصورة الواضحة المعالم لبيئته زمنيا واجتماعيا ، الأمر الذي يستدعي تطوّر التناول الشعري معنى وأسلوبا .

لقد عاصر ابن هرمة المراحل الأخيرة من حياة جرير والفرزدق، وتأثر بهجائهما كما تأثر بفحولتهما في الصوغ والقول والالتزام بالأصول الشعرية لا يحيد عنها، ومن ثم فإنه آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم على قول البغدادي[3]. فضلا عن أنه معاصر لابن ميادة والحكم وأبي العباس الأعمى وبشار ، ومن الناحية الأخرى فقد كان يحمل شهادة من جرير لا شك أنها أثرت في حياته الأدبية جعلته لا يتخلف ولا يسف ، ذلك أن جريرا كان قدم المدينة فأتاه ابن هرمة

(١) الشعر والشعراء ٧٥٣ .
(٢) الأغاني ٣٧٣/٤ .
(٣) الخزانة ٤٢٥/١ .

وابن أذينة فانشداه شعرا لهما ، فقال جرير : القرشي أشعرهما – يعني ابن هرمة – والعربي أفصحهما يعني ابن أذينة [1]

وإذا أخذنا ابن هرمة من ناحية الهجاء فهو هجاء بارع إن صح أن نضفي صفة البراعة على الهجاء ، وهو في رأينا ليس امتدادا لمدرسة جرير والفرزدق والأخطل في ذلك وحسب ، بل إن له نسبا فنيا في هذا المضمار يلحقه بالحطيئة أظرف الهجائيين وأمرّهم .

وإذا كان الحطيئة قد هجا نفسه وأمه وأباه وقومه ، فقد فعل ذلك ابن هرمة ، وهل هناك هجاء للمرء في قومه أشد من قول ابن هرمة : أنا ألأم العرب ، دعي أدعياء ، هرمة دعيّ في الخُلُج ، والخُلُجُ أدعياء قريش[2] . والخلج فيما يذكر النسابون هم قوم قيس بن الحارث ، أطلق عليهم الخلج لسكناهم بالمدينة على خلج واحدها خليج .

وكان ابن هرمة لا يهتم أن يقترن اسمه بقريش التي ودّ كل عربي فضلا عن الأعاجم أن ينتسبوا إليها ، بل ربما كان يحلو له غير ذلك ، وآية ذلك قصته الفكهة الطريفة مع رجل من «أسلم» ، وكان لابن هرمة روح فكهة ونفس مازحة. جاء رجل من «أسلم» يزور عبدالله بن الحسن وعنده ابن هرمة : وكان ابن هرمة كثير التردد عليه والمدح له ولقومه ، فقال ابن هرمة لعبدالله بن الحسن : أصلحك الله ، سل الأسلميّ أن يأذن لي أن أخبرك خبري وخبره ، فقال له عبدالله بن الحسن : ائذن له ، فأذن له الأسلمي ، فقال ابن هرمة : إني خرجت – أصلحك الله – أبغي ذودا لي – أي قطيعاً من الإبل – فأوحشت – أي جعت ونفد زادي – وضفت هذا الأسلمي ، فذبح لي شاة وخبز لي خبزا وأكرمني ، ثم غدوت من عنده فأقمت ما شاء الله ، ثم خرجت أيضا في بغاء ذودٍ لي ، فأوحشت فضفته ، فقراني بلبن وتمر ، ثم غدوت

---

(١) الأغاني ٤/٣٩٣ .
(٢) الأغاني ٤/٣٦٨ .

من عنده فأقمت ما شاء الله ، ثم خرجت في بغاء ذود لي ، فأوحشت ، فقلت لو ضفت الأسلمي فاللبن والتمر خير من الطوى ، فضفته ، فجاءني بلبن حامض . وهنا قال الأسلمي لعبدالله بن الحسن : قد أجبتُه ــ أصلحك الله ــ إلى ما سأل ، فسله أن يأذن لي أن أخبرك ، لمَ فعلت ؟ فقال له : ائذن له ، فأذن له ، فقال الأسلمي : ضافني فسألته من هو ؟ فقال : رجل من قريش فذبحت له الشاة التي ذكر ، ووالله لو كان غيرها عندي لذبحته له حين ذكر أنه من قريش ، ثم غدا من عندي وغدا عليّ الحيّ فقالوا : من كان ضيفك البارحة ؟ قلت : رجل من قريش ، فقالوا لا والله ما هو من قريش ، ولكنه دعيّ فيها. ثم ضافني الثانية على أنه دعيّ في قريش فجئته بلبن وتمر ، وقلت : دعيّ قريش خير من غيره ، ثم غدا من عندي وغدا عليّ الحيّ فقالوا : من كان ضيفك البارحة ؟ قلت : الرجل الذي زعمتم أنه دعيّ في قريش ، فقالوا : لا والله ما هو دعيّ في قريش ، ولكنه أدعى أدعياء قريش . ثم جاء في الثالثة فقريته لبنا حامضا ، ووالله لو كان عندي شرّ منه لقريته إياه [1]

والقصة مع طرافتها وخفة روحها تجعل من ابن هرمة شخصية لا تبالي كثيرا بكرامة قومها،ولعل بينه وبينهم خصومة وثأرا ، فقد سبق ذكر هجائه إياهم حين قال : أنا ألأم العرب، دعيّ أدعياء ، ولابن هرمة عم اسمه هرمة الأعور ، كان أول من نال من قومه بالهجاء والسباب ، فقد أرادوا نفيه منهم ، فقال : أمسيت ألأم العرب ، دعيّ أدعياء ثم أنشأ يهجوهم : [2]

رأيتُ بني فِهْرٍ سِبَاطاً أكُفُّهُمْ فما بَالُ ـ أَنْبُونِي ـ أَكُفُّكُمُ قُفْداً *

---

(١) الأغاني ٣٦٨/٤ ، ٣٦٩ .

(٢) المصدر السابق ٣٦٧/٤ .

(*) سباط ج سبط من السبوطة وهي الاعتدال والطول ويكنى بسبوطة اليدين عن الكرم ، فهر هو جد القبيلة التي يزعم الا نتساب اليها ، أنبوني أي أنبئوني ، قفد من القفد بفتح القاف والفاء وهو ميل في الكف يريد أنهم بخلاء ، والبيت هجاء صارخ ويحمل معنى التشكيك في نسبتهم إلى فهر .

وكان ابن هرمة موجعا في هجائه ، ولذلك فكثيرا ما يقرن اسمه **بالهجاء** ، ولكن إيجاع هجائه لم يكن من ناحية اللفظ الجارح أو العبارة المكشوفة **كتلك** التي رأيناها عند فرسان النقائض أو عند بشار ، وإنما كان يقتنص المناسبات لهجاء من يريد ، ويصب معانيه في قوالب موجعة وإن لم تكن دامية ، فهذا عبد العزيز ابن المطلب يخلف ظن ابن هرمة في كرم توسمه فيه وألفة من قومه . فيسرها في نفسه حتى تجيء المناسبة ، ويتقدم عبد العزيز ليخطب فتاة من ولد عمر فيردونه ، فيتقدم إلى خطبة امرأة من بني عامر بن لؤي فيزوجوه فيقول ابن هرمة في ذلك :

خَطَبْتَ إلى كَعْبٍ فَرَدُّوكَ صَاغِراً
فَحَوَّلْتَ مِنْ كَعْبٍ إلى جِذْمِ عَامِرِ
وفي عَامِرٍ عِزٌّ قديمٌ وإنما
أَجَازَكَ فيهمْ هَزْلُ أَهْلِ المقابرِ [1]

ويحاول عبد العزيز هذا ان يكتسب مجداً وسمعة بين الناس ، ولقد كان رجلا فاضلا إلا أنه لم يستجب إلى إلحاح شاعر هجّاء مثل ابن هرمة فيقول فيه :

أَبِالْبُخْلِ تَطْلُبُ ما قدَّمَتْ عَرَانِينُ جَادَتْ بأَموالِهَا
فهيْهاتَ خَالَفْتَ فِعْلَ الكِرَامِ خِلافَ الجِمالِ بأَبْوَالِهَا

وهجاء ابن هرمة من نوع جديد ؛ فهو يهجو أحيانا في شكل مدح أو هو يهجو أشخاصا ويتظاهر بمدح أخ لهم ، فقد كان عبدالله وحسن وإبراهيم ابناء الحسن بن الحسن وعدوه شيئا ثم أخلفوه ، فاصطحب ابن ربيح راويته واتجها إلى قصور الحسن بن زيد فسأله عن حاجته فقال : أبيات قلتها ، قال

---

(١) الأغاني ٤/٣٩٤ .

هات ، قال : [1]

أَمَّا بنُو هاشِمٍ حولى فقدْ قَرَعُـوا
نَبْلَ الضِّباب التي جَمَّعْتُ في قَرَنِ
فما بِيَثْربَ منهمْ مَنْ أُعَاتبُـهُ إلاَّ عوائِدَ أَرْجُوهُنَّ مِنْ حَسَنِ
الله أَعطـاكَ فضْـلاً مِنْ عَطيَّتِهِ
على هَنٍ وَهَنٍ فيمـا مَضَى وَهَنِ *

وانصرف ابن هرمة من لدن الحسن بن زيد بعد أن أعطاه بغيته ، وبينما هو في طريق عودته لقيه محمد بن عبدالله بن حسن وقد بلغه الشعر ، فغضب لأبيه وأعمامه ، وقال لابن هرمة أي كذا (لفظة سباب) أنت القائل :

على هنٍ وَهَنٍ فيمـا مضى وَهَـن

فقال : لا والله ، ولكنني الذي أقول لك :

لا والذي أَنْتَ مِنْه نِعْمَـةٌ سَلَفَتْ
نَرْجو عَوَاقِبَهـا في آخِـرِ الزَّمَـن
لقد أُتِيـتُ بـأَمْرٍ ما عَمَـدْتُ لـهُ
ولا تَعَمَّـدَهُ قـوْلي ولاَ سَنَنِـي
فكيـفَ أَمْشِي مَـعَ الأَقوامِ مُعْتَدِلاً
وقد رَمَيْتُ بَرِيءَ العُودِ بالأُبَـنِ

---

(١) المصدر ٣٧٦/٤ ، ٣٧٧ .

(*) الضباب هنا بمعنى الأحقاد ، وهي جمع ضب ، هن كلمة يكنى بها عن اسم الانسان ولقد كررها الشاعر ثلاث مرات لأنه أراد ثلاثة أشخاص معينين هم عبد الله وحسن وابراهيم بنو حسن .

ما غيَّرَتْ وجْهَـهُ أمٌّ مُهَجَّنَـــةٌ

إذا القَتَامُ تغَشَّى أَوْجُهَ الهُجُنِ (*)

فكان ابن هرمة في اعتذاره هذا أشد هجاء وأنفذ إيلاما لأن أم الحسن أم ولد .

وإذن فلقد كان ابن هرمة صورة للهجاء المتطور في عصر ما بين الدولتين ، تغيرت الألفاظ ولكن هدف الإيلام والإيجاع والنيل من مروءة المهجوّ واحد .

(٢)

وابن هرمة فارس أيضا في ميدان الخمر ، وفروسيته هنا ليست فروسية شعر ، ولكنها فروسية شرب ، إن شعره في الخمر قليل ، ولكن معاقرته لها كثيرة ، ومن ثم فقد تعددت أخباره فيها وجرت له معها أحداث طريفة ، وقد يكون ابن هرمة واحدا من الشعراء القليلين الذين نفذ عليهم حدّ الشراب على زمانه ، لقد جلده خُثَيْم بن عراك صاحب شرطة المدينة فهجاه قائلا : (١)

عَقَقْـتَ أَبَـاكَ ذَا نَشَبٍ وَيُسْرٍ

فلمَّـا أَفْنَـتِ الدُّنْيَـا أَبَـاكَـا

عَلِقْـتَ عَدَاوَتِي ، هَـذِي لَعَمْرِي

ثِيَابُ السِّرِّ تُلْبِسُها « عِرَاكَـا »

وابن هرمة محب للخمر ، بل هو محب للسكر إلى الدرجة التي تجعله يترنح في الطرقات حتى يطارده الصغار مرددين : سكران سكران ، إنه يرجو ذلك من الله وكأنها أمنية عزيزة : (٢)

(*) الأبن جمع أبنة وهي العقدة تكون في العود فتفسده ، الهجين من أبوه خير من أمه أو من أبو عربي وأمه غير عربية .

(١) الشعر والشعراء ٧٥٣ .

(٢) الأغاني ٣٩٧/٤ .

أَسْأَلُ اللهَ سَكْـرَةً قبـلَ مَوْتِـي
وَصِيَاحُ الصِّبْيَانِ : يـا سَكْرَانُ

وابن هرمة إذا أعوزه ثمن الخمر رهن ثيابه ليشتريها ، بل إنه يرهنهـا ليشتريها لصديق يشاركه المنادمة ، ثم لا يعدم أن يطلق نكتة طريفة كأنها واحدة من نكات القرن العشرين في مجال تعليقه على بيع ثيابه . يروي صاحب الأغاني أن ابن هرمة أتى أبا عمرو بن أبي راشد فأكرمه وسقاه أياها ثلاثة ، فدعا ابن هرمة – في أحد المرات – بالنبيذ فقال له غلام أبي عمرو : قد نفد نبيذنا ، فنزع ابن هرمة رداءه عن ظهره فقال للغلام : اذهب به إلى ابن حونك فارهنه عنده وأتنا بنبيذ ، ففعل ، وجاء ابن أبي راشد فجعل يشرب معه من هذا النبيذ ، ولاحظ أن ابن هرمة بغير رداء ، فقال له : أين رداؤك يا أبا اسحاق ؟ فقال : نصف في القدح ونصف في بطنك [1] .

إن ابن هرمة ، وهذا حبه للشراب ، يجد نفسه بين أمرين أحلاهما مرّ ؛ إما أن يقلع عنه وهذا شيء صعب تحقيقه ، وإما أن يجلد تمشيا مع الحـد الشرعي ، ولكنه يفكر في حيلة تعفيه من الحد بحيث يظل عاكفا على شرابه ، ولم يكن أمامه في ذلك من سلاح إلا شعره يقدمه مدحا للملك العباسي ، فيشد الرحال إلى أبي جعفر المنصور ويصب في مسامعه هذا الشعر الجزل الفحل : [2]

لهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافَـيْ سَرِيـرِهِ
إِذَا كَرَّهَا فيهـا عِقَـابٌ ونَائِـلُ
لهـمْ طِينـةٌ بيضاءُ منْ آلِ هَاشمٍ
إِذَا اسْوَدَّ مِنْ لُؤْمِ التُرابِ القَبَائِلُ

(١) الأغاني ٤/٣٧٣ .
(٢) العقد الفريد ٦/٣٥١ ذكر ابن عبد ربه خطأ أن هذه الأبيات قيلت في المهدي والصحيح أنها قيلت في أبيه المنصور .

إذَا ما أتَى شيئاً قَضَى كالذي أتَى
وإنْ قالَ إنِّي فاعلٌ فهو فاعلُ

وما يكاد المنصور يسمع هذا الشعر الرائق حتى يقول لابن هرمة : سل حاجتك ، ويجد الشاعر المغرم بالخمر الفرصة سانحة فيطلب من أبي جعفر أن يكتب إلى عامل المدينة ألا يحدّه إذا جيء به سكرانا ، فيقول له أبو جعفر : ويحك ، هذا حدّ من حدود الله تعالى لا يجوز أن أعطله ، فيقول ابن هرمة : احتل يا أمير المؤمنين، فيكتب المنصور إلى عامل المدينة : «من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين» فكان رجال الشرطة يمرون بابن هرمة مطروحا من السكر في سكك المدينة فيقولون : من يشتري مائة بثمانين ؟ (١)

ويتولى إمرة المدينة الحسن بن زيد في فترة حكم محمد النفس الزكية فيدخل عليه ابراهيم بن هرمة فيقول له الحسن : يا إبراهيم ، لست كمن باع لك دينه رجاء مدحتك أو خوف ذمك ، فقد رزقني الله تعالى بولادة نبيه صلى الله عليه وسلم المادح وجنبني المقابح ، وإن من حقه عليّ ألا أغضي عن تقصير في حق وجب ، وأنا أقسم لئن أتيتُ بك سكران لأضربنك حدًّا للخمر وحدًّا للسكر ، ولأزيدن موضع حرمتك مني ، فليكن تركك لها لله عزّ وجل تُعَنْ عليه ، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم ، فينهض ابن هرمة وهو يقول : (٢)

نهانِي ابنُ الرسولِ عنِ المُدَامِ ... وأَدَّبَنِي بآدابِ الكِرَامِ
وقال لِيَ اصْطَبِرْ عنها ودَعْها ... لخوْفِ اللهِ لا خَوْفِ الأَنامِ
وكيفَ تَصَبُّري عنها وحُبِّي ... لها حبٌّ تمكَّنَ من عِظامي
أَرَى طيفَ الخَيالِ عليَّ خُبْثاً ... وطِيبَ العيشِ في خُبْثِ الحَرامِ

(١) زهر الآداب ٨٨ والأغاني ٣٧٥/٤ والعقد ٣٥٢/٦ .
(٢) زهر الآداب ص ٨٨ والعقد ٣٤١/٦ ، ٣٤٢ .

وإذن فابن هرمة عرف بالخمر شرّابا أكثر من قوله فيها وصافا ، ولعل نكتة شرطة المدينة : من يشتري مائة بثمانين كانت واحدة من الأسباب التي جعلت لابن هرمة شهرة بين العاكفين على الشراب .

(٣)

وإذا انتقلنا إلى ميدان السياسة وجدنا ابن هرمة واحدا من المؤمنين بحب آل البيت ، ويمكن أن نسميه متشيعا أكثر من تسميته شيعيا ، فالشيعي يلتزم بعقائد الشيعة المتبينة في كتبهم ، أما التشيع فإنه هو ذلك الذي يحب آل البيت ويتعلق بأسبابهم ، وابن هرمة في نفس الوقت يكره بني أمية ويحمل عليهم ويؤلب الناس ضدهم ، ثم هو بعد ذلك لايتردد في مدح العباسيين ربما تقية أو هربا من أذاهم ، ولكنه في حالاته تلك جميعا غارق في السياسة منخرطا في سلكها .

إنه يحب آل البيت فيقول في محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف بالنفس الزكية :[1]

ومَهْمَا أَلَمْ على حُبِّهِ فإنِّي أُحِبُّ بَنِي فَاطِمهْ
بَنِي بِنْتِ مَنْ جَاءَ بالمُحْكَما تِ والدِّين والسُّنَّةِ القَائِمهْ

إن ابن هرمة قد أبان عن اتجاهه السياسي في هذين البيتين ، وأبيات أخرى قالها في مدح بني الحسن ، ولكن حين خرج محمد النفس الزكية على المنصور لم يستطع ابن هرمة أن يجاريه خوفا من أذى المنصور ، بل إنه حين سئل عن قائل البيتين أنكر أن يكونا له ، وأردف عبارة غير لائقة وصف بها قائلهما ، فقال له ابنه وقد سمع إنكاره : يا أبت ألست تقولهما في وقت كذا وكذا ؟ فقال : يا بني ، أيهما خير أن أعضّ ..... أم يأخذني ابن قحطبة؟[2]

(١) طبقات ابن المعتز ص ٢٠ .
(٢) عبارة ابن هرمة مذكورة في طبقات ابن المعتز ص ٢١ .

ويمكن أن تكون قصة ابن هرمة مع الحسن بن زيد دليلا آخر على حبه لآل البيت وتعلقه بهم ، لقد شدد الحسن على ابن هرمة وهدده تهديدا مباشرا اذا ما تعاطى الخمر ، وأبان له إبانة صريحة أن لن تأخذه به رحمة في تنفيذ حد الخمر وحد السكر عليه ، فلم يقابل ابن هرمة هذا التهديد بأي نوع من الضيق أو على الأقل السكوت ، وإنما خرج من لدنه ينشد أبياتا رقيقة تدل فيما تدل عليه على حبه الصادق لآل البيت :

نَهانِي ابنُ الرسولِ عنِ المُدَامِ وأَدَّبَنِي بآدابِ الكِرامِ

وإذا كان ابن هرمة طالبيَّ الهوى متشيع الميل ، فإن ذلك ينتهي به منطقيا إلى كراهية بني أمية والحملة عليهم والتشهير بهم ، والحض على استئصال شأفتهم ، لقد فعل ابن هرمة مع الأمويين في مجلس داوود بن عليّ ما فعله سديف الشاعر بهم في حضرة السفاح ، إن ابن هرمة يرى أعيان الأمويين وبينهم عبدالله بن عنبسة في مجلس لداوود بن علي يقال له الرُّوَيْشَة على بعد ليلة من المدينة فينشد مؤلبا على بني مروان وبني أمية على حدّ سواء :[1]

فَلاَ عَفَا اللهُ عن مَرْوَانَ مَظْلمةً
ولا أُمَيَّةَ بئْسَ المجْلِسُ النَّادِي
كانُوا كعَادٍ فأَمْسَى اللهُ أَهْلَكَهُمْ
بِمثْلِ ما أَهْلَكَ الغَاوِينَ مِنْ عاد
فلنْ يُكذِّبَنِي مِنْ هاشِمٍ أَحَدٌ
فيما أَقولُ ولوْ أَكثَرْتُ تَعْدَادِي

وما هي إلا أن يقدم الركب إلى المدينة حتى يقتل ابن عنبسة .

(١) الأغاني ٤/٣٤٧ ، ٣٤٨ .

وإذا كان ابن هرمة يكره بني أمية تلك الكراهية التي تجعله يستبيح دماءهم ويحضّ على قتلهم ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يتصل بالوليد بن يزيد ، ويقول فيه مديحا حتى حين علم بقتله ، وأغلب ظننا أنه لم يتصل بالوليد كممثل لبني أمية الظالمين لآل بيت الرسول ، ولكن صلته به كانت صلة شاعر بشاعر وسكير بسكير ، فضلا عما يقال من أنه كانت للوليد رغم انحرافه نواح من الأريحية والكرم وعدم الإلحاف في اضطهاد آل البيت ، ولذلك فإن ابن هرمة ما يكاد يسمع بقتل الوليد حتى يردد أبياتا لعلها كانت قيلت في حياة الوليد وقبل مصرعه : (١)

... وكانتْ أمورُ الناسِ مُنْبَتَّةَ القُوَى
فَشَدَّ الوَلِيدُ حينَ قام نِظَامَهَا
خَلِيفَةُ حقٍّ لا خلِيفَةُ باطِلٍ
رَمَى عَنْ قَناةِ الدِّينِ حتّى أَقَامَها

وليس في رأينا ثمت شك في أن هذه الأبيات قيلت للوليد استرفادا أو إعجابا بكرمه وسخائه ، أما أن يكون الوليد قد دافع عن قناة الدين حتى أقامها حسبما ذكر ابن هرمة ، فلعل ذلك آخر شيء يمكن أن نصدقه — ونحن نعرف تاريخ الوليد — وآخر شيء يمكن أن يصدقه أو يصدق فيه ابن هرمة نفسه .

والأمر الذي يدل على أن كراهية ابن هرمة لبني أمية وبني مروان كانت كراهية سياسية وليست كراهية شخصية ، شعره الرقيق العذب في مدح عبد الواحد بن سليمان ابن عبد الملك ، إنه يقول فيه أبياتا من أبرع ما قيل في المديح والاسترفاد : (٢)

إذَا قِيلَ مَنْ خَيْرُ مَنْ يُجْتَدَى لِمُعْتَرٍّ فِهْرٍ ومُحْتاجِها

(١) الأغاني ٣٩٦/٤ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ٢٠ .

وَمَنْ يُعْجِلُ الخيلَ يَوْمَ الوَغَى بِإِلْجَامِهَا قَبْلَ إِسْرَاجِهَا
أَشَارَتْ نِسَاءُ بَنِي مَالِكٍ إِلَيكَ بِهَا قبلَ أَزْوَاجِهَا

او قوله فيه : [1]

فاسْلَمْ سَلِمْتَ مِنَ المكارِهِ والرَّدَى
وعِثَارِهَا وَوُقِيتَ نَفْسَ الحُسَّدِ

فابن هرمة حتى الآن فاطمي الهوى والحب كاره للأموية والمروانية ، ولكنه في نفس الوقت مساير للعباسيين خوفا منهم وطمعا في عطائهم واستهدافا لتكريمهم إياه ، وهل هناك تكريم لشاعر أكثر من تعطيل حدود الله قبله ، وقد رأينا كيف كتب المنصور إلى عامله بالمدينة طالبا إليه التحايل على إعفاء ابن هرمة من حد الخمر بحيث أصبحت القضية نكتة تاريخية فقهية .

ولذلك فليس غريبا أن يمدح ابن هرمة أبا جعفر المنصور مدحا ذا نغمة جديدة لم تألفها الأذن من قبل ، تبدو فيها واضحة البذور الأولى لفن المدائح العباسية المنطلقة إلى آفاق جديدة خصيبة من المعاني والصياغة ، يمدح ابن هرمة المنصور فينشر هذا الفن الجميل في نطاق قصيدة : [2]

كريمٌ له وَجْهانِ : وَجْهٌ لَدَى الرِّضَى
طَلِيقٌ وَوَجْهٌ في الكريهَةِ بَاسِلُ
وليس بِمُعْطِي الحقِّ مِنْ غَيْرِ قُدْرَةٍ
ويَعْفُو إِذَا مَا أَمْكَنَتْهُ المَقَاتِلُ
لهُ لَحَظَاتٌ مِنْ حِفَافَيْ سَرِيرِهِ
إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ ونَائِلُ

(١) أمالي المرتضى ٣٢٦/١ .
(٢) زهر الآداب ص ٥٥ .

فَأُمُّ الذيّ أَمَّنْـتَ آمِنَـةُ الرَّدَى
وأُمُّ الذّي حاولْتَ بالثُّكْلِ ثَاكِـلُ

وقد حاولنا العثور على بقية هذه القصيدة الفريدة في معانيها ونهجها ، لروعتها وجدّتها ، وتابعنا البحث في مختلف المظان فعثرنا على بعض أبيات منها أوردها الشريف المرتضى في أماليه ، على أنها لروعتها تقضي حاجة العافي إذا أنشدها في حضرة كريم ، والأبيات هي : (١)

أَتَيْنَاكَ نُزْجِي حاجَةً وَوَسِيلَـــةً ... إليكَ وقدْ تَحْظَى لَدَيْكَ الوَسَائِلُ
ونَذْكُـرُ وُدًّا شَدَّهُ اللهُ بَيْنَنَـــا ... على الدَّهْرِ لمْ تَدْبُبْ إليهِ الغَوَائِلُ
فأُقْسِمُ ما أَكْبَى زِنَادَكَ قَـادِحٌ ... ولا أَكْذَبَتْ فيكَ الرَّجَاءَ القَوَابِلُ
ولا رَجَعَتْ ذَا حاجَةٍ عنكَ علَّـةٌ ... ولا عاقَ خيْراً عاجِلاً مِنْكَ آجِلُ
ولاَ لاَمَ فيكَ الباذِلُ الوجْهَ نَفْسَهُ ... ولاَ احْتَكَمَتْ في الجُودِ مِنْكَ المباخِلُ

وكانت شخصية المنصور من القوة والهيبة والعطاء والنفاذ بحيث فرضت احترامها على الناس من عدو وصديق ، فقد قال له أحد الوافدين عليه المترددين على ديوانه : يا أمير المؤمنين ، قد حضر خدمك الإعظام والهيبة عن ابتدائك بطلباتهم ، وما عاقبة هذين لهم عندك ؟ فقال : عطاء يزيدهم حياء ، وإكرام يكسوهم هيبة الأبد ، فلا غرو أن يمدحه المادحون بأبيات من الشعر يجوّدون فيها ، فمدحه ابن هرمة بأبياته السابقة ، ثم يلحظ أن هذا الملك يعمد إلى المشورة في بعض الأحيان وهو أمر لم يكن مألوفا عند الملوك الأمويين ، ويحجبها في أحيان أخرى معتمدا على عقله ، فيقول هذين البيتين الرائعين في هذا المعنى :

(١) المصدر السابق ٨٢٤ وقد رواها ابن عبد ربه بترتيب آخر ولممدوح آخر وقد نبهنا إلى ذلك قبل صفحتين .
(٢) الأمالي ٤٦٢/١ .

إذَا ما أرادَ الأَمْرَ نــاجَى ضميــرَهُ
فنــاجَى ضَمِيــراً غَيْرَ مُخْتَلِفِ العَقْلِ
ولَمْ يُشْرِك الأَدْنَيْــنَ في جُلِّ أَمْــرِهِ
إذَا اخْتَلَفَتْ بــالأَضْعَفَيْــن قُوَى الحَبْلِ

وشعر ابن هرمة في المديح كثير ، وهو في حقيقته مداح أكثر منه هجاء . فهو في مدائحه يختار المعاني الجياد التي يمكن أن تشكل صورة للمدح كريمة ، كما أنه يختار المواقف التي يمكن أن تمد شاعريته بما يجعلها تخرج شعرا مصقولا من حيث الشكل والمعنى ،

ومن الرجال الذين قال فيهم ابن هرمة مدائح كثيرة السريّ بن عبدالله عامل اليمامة بحيث يمكن أن نعتبر ابن هرمة مداحا له مرتبطا به إلى حد كبير لكثرة ما قال فيه من قصائد جياد . إنه يمدحه بأحب ما يمدح به من وكلت إليه مقاليد الناس وأمورهم ، وهي صفات العدل وبث الأمن ودرء الظلم مع الجود والنفع وإزجاء الخير للناس جميعا ، إن ابن هرمة يقول شيئا من ذلك في السريّ : [1]

فقُلْ للسَّرِيِّ الواصِل البَرِّ ذِي النَّدَى
مَدِيحــاً إذَا مــا بُثَّ صُدِّقَ قَائِلُهْ
جَوَادٌ على العِلاَّتِ يَهْتَــزُّ لِلنَّدَى
كما اهْتَزَّ عَضْبٌ أَخْلَصَتْــهُ صَيَاقِلُهْ
نَفَى الظُّلْمَ عن أهلِ اليمامَةِ عَدْلُه
فعاشُوا ورَاحَ الظُّلْمُ عَنْهُمْ وبَاطِلُهُ

(١) الأغاني ٤/٣٧٥ .

ونامُوا بأَمْنٍ بَعْدَ خوفٍ وشِدَّةٍ
بِسِيرَةِ عَدْلٍ ما تُخَافُ غَوائِلهْ
وقدْ عَلِمَ المعروفُ أَنَّكَ خِدْنُهُ
ويَعْلَمُ هذا الجوعُ أَنَّكَ قاتِلُهْ
بِكَ اللهُ أَحْيَا أَرضَ حِجْرٍ وغَيْرَهَا
من الأَرْضِ حتى عاشَ بالبَقْلِ آكِلُهْ
وأَنتَ تُرَجَّى للذي أَنتَ أَهْلُهُ
وتَنْفَعُ ذَا القُرْبَى إليكَ وسَائِلُهْ

ولكي تكون صورة المديح واضحة كاملة في مذهب ابن هرمة ، فلا بد لنا أن نذكر أنه كان يستهل بعض مدائحه بالوقوف على الأطلال ، وهو الشكل التقليدي لقصيدة المديح الذي لم يتغير إلا في القليل على أيدي بعض الشعراء المحدثين على عهد بني العباس ،وابن هرمة شاعر مخضرم ، وليس محدثا فلا نتوقع أن نرى افتتاحه قصائده في غير هذا الثوب ،ولكن شاعرنا لا تتخلى عنه مهارته وحسن سبكه وربط معانيه حتى وهو يقف على الأطلال ، ومستهل قصيدته تلك التي نحن بصدد تقديمها هو : (١)

أَفِي طَلَلٍ قَفْرٍ تَحَمَّلَ آهِلُهْ
وَقَفْتَ ومَاءُ العَيْنِ يَنْهَلُّ هَامِلُهْ
تُسَائِلُ عن سَلْمَى سَفَاهاً وقد نَأَتْ
بِسَلْمَى نَوىً شَحْطٌ فكيفَ تُسَائِلُهْ ؟
وترجو ولمْ يَنْطِقْ وليْسَ بِنَاطِقٍ
جَوَاباً مُحِيلٌ قَدْ تَحَمَّلَ آهِلُهْ

(١) الأغاني ٤/٣٨٤ .

ونُؤْيٌ كَخَطِّ النُّــونِ مــا إنْ تَبِينُهُ
عَفَتْــهُ ذُيُولٌ مــن شَمالٍ تُذَايِلُهْ(*)

ومدائح ابن هرمة في السريّ بن عبدالله كلها جيدة بارعة [1] ، ويمكن أن نحس فيها صدق العاطفة ، لأن السريّ كان شخصية عظيمة محترمة ، وكان يحب فن ابن هرمة ، ولقد أحس ابن هرمة بذلك فبادله حبه باحترام كبير ، وشعر صادق الود متين ، ونال منه من العطاء ما رضي به وقرت به عينه رغم أن السريّ لم يكن من كبار الأغنياء .

(٤)

وإذن فالصورة أمامنا لابن هرمة قد تكون الآن أكثر وضوحاً ، فهو هجاء ، سياسي ، مداح ، محب للخمر ذو أسلوب متميز في الصوغ والأداء، وبمعنى أدق هو رجل صناع ، ولكن قبل أن نستعرض الشكل الفني الذي ذهب إليه في صناعته ينبغي أن ننظر إليه وهو يغني لنفسه ، أو بمعنى أوضح وهو يقول الشعر لنفسه لا لغيره ، إن الشاعر في حالته هذه يكون مستجيبا لطبعه وطبيعته ، وليس مستجيبا لطبع الآخرين هادفا إلى استجلاب نفعهم المادي والمعنوي ،أو موجها إليهم من المعاني ما يدخل الضيق على قلوبهم من هجاء أو عتاب ، ولا يدخل في الغناء ما قاله ابن هرمة في الخمر فإن القول فيها ليس استجابة لأعماق النفس وجوهر الطبع ولكنه استجابة لعادة قبيحة إذا صارت إلى الإدمان أصبحت مرضا .

يقول ابن هرمة مفتخرا بنفسه مدافعا عن بعض تبذله سالكا نهج الحكمة : [2]

(*) المحيل الذي أتت عليه أحوال فغيرته ، ذيل الريح ما تتركه في الرمال على هيئة الرسن وما جرته على الأرض من التراب والقتام ، تذايله تجر عليه أذيالها .

(١) راجع قصائده في الأغاني ٤/٣٨٣ – ٣٨٧ .

(٢) الشعر والشعراء ٧٥٤ .

عجِبَتْ أُثَيْلَةُ أَنْ رأَتْنِيَ مُخْلِقاً
ثَكِلَتْكِ أُمُّكِ أَيُّ ذاكِ يَرُوعُ
قدْ يُدْرِكُ الشَّرفَ الفتى ورِدَاؤُهُ
خَلَقٌ وجَيْبُ قمِيصِهِ مَرْقُوعُ (١)
إمَّا تَرَيْنِي شاحِباً مُتَبَذِّلاً
كالسَّيْفِ يُخْلِقُ جفنُهُ فيضِيعُ
فلَرُبَّ ليلةِ لَذَّةٍ قد بِتُّها
وحَرَامُها بِحَلاَلِها مَدْفُوعُ

إن ابن هرمة هنا يلبس شعره ثوب الوقار وينحو نحو الفحولة وينهج نهج الصنعة الفخمة في اختيار واحد من البحور الطويلة ويظل يرسم على نفس المنوال طالما كان غناؤه لنفسه كما في قوله :

إني وتَرْكي نَدَى الأَكْرَمِينَ وقَدْحي بِكفِّيَ زَنْداً شَحَاحَا
كتارِكَةٍ بَيْضَهَا بالعَرَاءِ ومُلْحِفَةٍ بَيْضَ أُخْرى جَنَاهَا

وهنا نلحظ نقلة أخرى في شعر ابن هرمة ، إنه لم يكتف المحافظة على صورة الجزالة ، ولكنه يقدم لنا تشبيها مصنوعا متقنا ، نعم إنه تشبيه آخذ هيكله من البيئة البدوية ولكن الصنعة العميقة واضحة فيه متميزة كل التميز.

وتبدو قسمات التشبيه واضحة رائعة حسنة النسج بيّنة حدود المعالم في قول ابن هرمة : (٢)

أَشَمُّ مِنْ الذينَ بهِمْ قُرَيْشٌ
تُدَاوِي بَيْنَهَا غَبَنَ القَبِيلِ

(١) كان المنصور العباسي يكثر من التمثيل بهذا البيت (راجع تاريخ بغداد ج ١٢) .
(٢) البيان والتبيين ٢٦١/٣ .

كـــانَّ تـــلأْلُـــؤَ المعْرُوفِ فِيـــهِ
شُعَاعُ الشَّمْسِ في السَّيْفِ الصَّقِيلِ

إن التشبيه هنا فضلا عن روعته الظاهرة يحمل بين ثناياه آية جديدة وانطلاقة بديعة هي تشبيه الشيء المعنوي بالشيء المادي وهي سابقة بيانية لها خطرها وهكذا نجد أنفسنا أمام صناعة مبكرة تعلن عن نفسها في جرأة ، رغم خروجها من بيئة المدينة المتواضعة المحافظة على سماتها المتحفظة في علاقتها ببقية الامصار .

وتتحرك الصور أكثر رشاقة على لوحة ابن هرمة حين يفخر بكرمه ويصور كلابه وقد دلت ضيفه عليه فرحة مرحة تضربه بأطراف أذنابها حسن استقبال وكريم ترحيب :

وإذَا أَتَـــانَـــا طَـــارقٌ مُتَنَـــوِّرٌ نَبَحَـــتْ فدَلَّتْـــهُ عليَّ كِلاَبِي
وفَرِحْـــنَ إِذْ أَبْصَرْتَـــهُ فَلَقِينَـــهُ يَضْرِبْنَـــهُ بِشَرَاشِرِ الأَذْنابِ [1]

ومرة أخرى يرسم صورة لكلبه فرحا بضيفه يكاد يكلمه ويرحب به رغم أعجميته : [2]

يَكادُ إِذَا ما أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلاً
يُكَلِّمُـــهُ مِـــنْ حُبِّهِ وَهْـــوَ أَعْجَـــمُ

ويرويه الجاحظ رواية أخرى يفهم منها أن الكلب ليس كلبه وإنما هو كلب ممدوح . ولكن صورة الكلب واحدة في الحالين من ظهور الابتهاج عليه تحية لمقدم الضيف . [3]

---

(١) أمالي المرتضى ١١٣/٢ .
(٢) البيان والتبيين ٢٠٥/٣ .
(٣) الشعر والشعراء ٧٥٤ .

تَراهُ إذَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ كَلْبُـهُ
يكلِّمُـهُ مِـنْ حُبِّـهِ وهْـوَ أَعْجَـمُ

ولكن هل كان هذا الفن البياني والبديعي حسب التعريف الحديث وهذه الصناعة المنمقة تصدر عن ابن هرمة عفو الخاطر دون قصد وبغير عمد ، إن المتمعن فيها يقول لا ، وإن المستقرىء لأشعار ابن هرمة في مختلف مصادرها يعرف أن الرجل عمد إلى التجديد والصنعة ، وقد لفتت براعته الصولي فاهتم به وألف عنه كتابا وجمع له شعره ، ولكن الكتاب ضاع لسوء الحظ ولم يصل إلينا منه شيء ، كما أن الديوان فقد شأن كثير من دواوين شعرائنا التي اغتالتها يد الضياع .

كان المسوّر بن عبد الملك المخزومي يعيب شعر ابن هرمة ، وكان للمسور مكانة في عالم الشعر والنسب ، وربما كان عيبه لهذا الشعر ما لاحظه من صور غريبة جديدة لم يألفها النقاد بعد ، ولم يألفها الشعر نفسه من قبل ، فينبري له ابن هرمة هاجيا مسخفا مشيرا إلى أن هذا الضرب الجديد من الشعر مَصُوغ مخطط له معتنى به ، ولكن صياغة لسان وليس صوغ كفيّن : (١)

إنيِّ امروءٌ لا أَصُوغُ الحَلْيَ تَعْمَلُهُ
كَفَّايَ لكنْ لِسَانِـي صَائِـغُ الكَلِم
إنَّ الأَديمَ الذي أَمْسَيْـتَ تقْرِظُـهُ
جَهْلاً لذُو نَغَلٍ بـادٍ وذو حَلَـمِ
ولا يَئِطُّ بـأَيْدِي الخَالِقِيـنَ ولا
أَيْدِي الخَوالِق إلاَّ جَيِّدُ الأَدَمِ (*)

(١) الأغاني ٤/٣٧٩ ، ٣٨٠ .
(*) الأديم الجلد ، يقرظه يدبغه لإصلاحه ، النغل بفتح النون والغين الفساد ، الحلم بفتح الحاء واللام فساد في الجلد ينشأ فيه الدود فيفسده ، يئط يصوت ، والخالق الذي يخلق الأديم أي يقيسه قبل أن يقطعه ، الأدم اسم جمع للأديم وهو الجلد المدبوغ .

وابن هرمة منتبه لفنه ، ساهر عليه ، مخلص له ، عامد إليه ، وهو يعبر عن ذلك في قوله : [1]

وعَمِيمَـةٍ قَـدْ سُقْـتُ فيها عائِراً
غُفْلاً ومِنْهـا عَائِـرٌ مَوْسُـومُ
طَبَّقْتُ مِفْصَلهـا بِغَيْـرِ حَدِيدَةٍ
فَرَأَى العَدُوُّ غِنَايَ حيْثُ أَقُومُ (*)

والحق أن الجاحظ قد تنبه إلى خطر ابن هرمة حين قال في شأنه وشأن بشار : لم يكن من المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة [2]. وإن كنا نرى فرْقا كبيرا بين كل من ابن هرمة وبشار من حيث وصف الجاحظ لكل منهما بالمولّد .

على أن أمر الصنعة لم يقف بابن هرمة عند هذه المعالم التي ذكرنا ، ولكنه يتعجل الفن ويسبق إلى الصناعة اللفظية سبقا لم نعهده في شاعر قبله ، فقد أنشأ قصيدة طويلة من اربعين بيتا ألفاظها جميعا من الحروف المهملة بحيث لم يرد فيها حرف واحد معجم ، أورد الأصبهاني منها اثني عشر بيتا ، ولم تقتصر صنعة ابن هرمة الباكرة فيها على صوغها بالحروف المهملة وإنما عمد فيها إلى خلق صور زاهية من الجناس والطباق ، يقول ابن هرمة في بعضها : [3]

أَرَسْمُ سَوْدَةَ مَحْلٌ دارِسُ الطَّلَـلِ
مُعَطَّـلٌ رَدَّهُ الأَحْـوَالُ كالْحُلَـل

---

(١) البيان والتبيين ١/١١١ .

(*) العميمة أراد بها الخطبة الطويلة أو القصيدة الطويلة ، العائر السهم لا يدري من رماه ، والمقصود بالبيت الثاني أنه أصاب مفاصل المعاني بكلامه فبهر بذلك الأعداء .

(٢) البيان والتبيين ١/٥١ .

(٣) الأغاني ٤/٣٧٨ ، ٣٧٩ .

لمّا رأى أهلُهـا سَدُّوا مَطالعَهـا
رامَ الصُدُودَ وعـادَ الـوُدُّ كالمُهَلِ
وعـادَ وُدُّكَ داءٌ لا دَوَاءَ لـهُ
ولوْ دَعَاكَ طَوالَ الدَّهْـرِ للرِّحَلِ
ما وَصْلُ سَوْدةَ إلاَّ وصْلُ صارمةٍ
أَحَلَّها الدَّهْرُ داراً مَأْكَـلَ الوَعِـلِ
وعـادَ أَمْوَاهُهـا سُدْماً وطَـارَ لها
سَهْمٌ دعَـا أَهْلَها لِلصُّرْمِ والعِلَـلِ
صدُّوا وصَدَّ وساءَ المـرءَ صدُّهُـمُ
وحامَ للوِرْدِ رَدْهـاً حَوْمَـةَ العَلَلِ
وحَلَّئُـوهُ رِدَاهـاً مـاؤُهَـا عَسَلٌ
ما مَاءُ رَدْهٍ لعَمْرُ اللهِ كـالْعَسَلِ
دعا الحَمَامُ حَمَامـاً سَدَّ مَسْمَعَـهُ
لمـا دعاهُ رآهُ طامِحَ الأَمَـلِ
طُمُـوحَ سارِحَـةٍ حَـوْمٍ مُلَمَّعَـةٍ
ومُمْرعِ السِّرِّ سَهْلٌ ماكِدُ السَّهَلِ(*)

إن ابراهيم بن هرمة وهذه سمات شعره متأرجحة بين القديم والجديد من

(*) المهل بضم الميم الحديد والنحاس المنصهر ، الرحل بالراء المشددة المكسورة الارتحال . الوعل تيس الجبل ومعقله صعب الوصول اليه . سدما أي متغيرة آسنة لطول مكثها . الرده مستنقع الماء ، العلل بفتحة للعين واللام الشرب الثاني . حلئوه منعوه عن الماء . السارحة الماشية ، الحوم القطيع الضخم ، [illegible]يع الذي في جسده بقع تخالف سائر لونه ، الممرع المخصب ، السر أريد به بطن الوادي ، [illegible]كم موضع فيه ، الماكد الدائم الذي لا ينقطع .

حيث الموضوعات والصياغة، ومن حيث الإبداع الفني، ومن حيث تمثيل شخصية الشاعر نفسه لبيئة عصره فنيا واجتماعيا وسياسيا ، كل ذلك يجعل منه معْبراً هاما عريضا سهلا لانتقال الشعر من المرحلة الأموية بسماتها الأكثر محافظة إلى المرحلة العباسية بسماتها الأكثر تطورا وتغيرا ، بل لكي يكون الأمر في نصابه ، نستطيع القول إن ابن هرمة يمثل الانفجار القوي ذي الصوت المدوّي العالي نحو التجديد ولكن في ثوب من وقار الجزالة وإشراق الديباجة ورقة الاسلوب . وبعبارة أخرى نحن نعتبر ابن هرمة قمة الصنعة في مجتمع المحافظين وذروة التطور في بيئة عمود الشعر ، ومنه التقط معاصره بشار الراية فكان أول المطورين في سماء الشعر غير الملتزم بالمحافظة على الرونق التقليدي لوجه القصيدة العربية حين دفعته جرأته في بعض قصائده إلى محاولة الإتيان بالصورة الجديدة والأسلوب المبتدع .

بشار بن برد ٩٥ ـ ١٦٧ هـ

(١)

حملة من المبالغة والتهويل :

لعله من المفيد أن نستهل هذا الفصل بكبح جماح هذه الفورة من القول التي تذهب مذهبا متطرفا بنسبة كل جديد من المعاني وكل طريف من الشعر وكل مستحدث من القول إلى بشار بن برد ، لقد سلطت عليه أضواء شديدة اللمعان أخاذة البريق لافتة للأنظار حتى ظن بعض المتأدبين أن ذروة الشعر لم يتسنمها أحد قبله وأن كل من جاءوا بعده إنما هم عيال عليه وحده دون غيره من الشعراء المعاصرين له والسابقين عليه،وإذا حاول هؤلاء النقاد الذين احتفلوا ببشار ذلك الاحتفال كله أن يجروا مقارنة بينه وبين غيره من الشعراء ، اختاروا من هو دونه مقدرة على التلاعب بالألفاظ وتوليد المعاني وإن لم يكن دونه همة في القول وملكة في الشعر ، ويحضرنا في هذا المجال تلك المقارنة التي كان يلح النقاد الأقدمون على إجرائها بينه وبين مروان بن أبي حفصة الذي قدمنا شخصيته ودراسة لشعره في فصل سابق من هذا الكتاب، وبيّنا أن كل شعره

وقدراته كانت تجري في حلبة السباق الذي ينتهي به دائما إلى هدف الكسب المادي دون سواه من انعطاف فني أو انطلاق تجديدي ، آخذا نفسه بالجري في حلبة المدرسة الشديدة المحافظة التي يعجب شعرها الممدوحين من أعيان العرب الذين تغلب البداوة على طبيعتهم من أمثال معن بن زائدة أو الملوك والرؤساء الذين يحبون أن تكون مدائحهم مصوغة في القالب الكلاسيكي من وقوف على الأطلال وتشبيب ورحلة شاقة اليهم على ظعائن براها السري .

هو إذن ميدان للمقارنة غير عادل ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى عمد كثير من النقاد إلى التهويل في قيمة بشار على مستويات مختلفة ، فهو من حيث النسب ينتمي إلى ملوك الفرس ،ويخترعون له نسبا مكونا من أكثر من عشرين جداً تنتهي سلسلتهم إلى الاكاسرة ، وهو أمر على جانب كبير من السذاجة ، ذلك أن بشارا نفسه ولد على الرّق ، ثم أعتق في بني عقيل وهو طفل ، وما عرفنا أن للأرقاء شجرة نسب كتلك التي جرت العادة أن تكون لأبناء القبائل الخالصة العروبة ، في الوقت الذي نجد بشارا نفسه متخبطا في أي الأرومات يختار ،فهو تارة عربي أكثر من العرب يقدم ألوانا من الفخر بهم— ونعني بني عقيل بالذات— لايستطيع المرء أن يخفي إعجابه برونقها وقوتها وجمالها . وهو حينا آخر يفخر بأعجميته ، وهي ليست أعجمية سوادية ، ولكنها أعجمية أرستقراطية ، إنه يقول بكل عزة أمام ملك بني العباس أنه من قريش العجم أي أنه من أشرف قبائل العجم وأرقاها منزلة وأرفعها شأنا ، مع أن الثابت من نسبه أنه ابن رقيق كان يضرب الطوب .

وتترى المبالغات في شأن ما قدم بشار من شعر فينسبون إليه أنه قال إنه أنشأ ثلاث عشرة ألف قصيدة [1] ، ولذلك فإنه يفخر بأن له ثلاثة عشر ألف بيت من عيون الشعر ،ويعلل ذلك بأنه لو كان في كل قصيدة من هذه الآلاف من القصائد بيت واحد جميل لكان له هذه الآلاف الثلاثة عشر من الأبيات الأعيان .

(١) الأغاني ١٤٤/٣ وتاريخ بغداد ١١٦/٧ .

والحديث يطول حول ما يمكن أن نسميه بلغة العصر «حملة الدعاية الواسعة» التي رتبت لبشار من لدن نقاد معاصرين له وآخرين جاءوا بعده بقليل ، ثم سار على نهجهم بحسن نية نقاد متأخرون في أزمنة متفاوتة على مر السنين ، على أن هذه الحملة من الدعاية التي رتبت لبشار إنما دبرت في نطاق الشعوبية التي نشطت في زمانه وبعده بقليل نشاطا بلغ أخيرا مرحلة التخريب والتدمير ، لا على المستوى الأدبي وحسب ، ولكن على المستوى الديني والخلقي والاجتماعي وأخيرا على المستوى السياسي الذي أدال دولة العباسيين التي قامت بالكثير من الإنجازات الهائلة في دنيا الأدب والفكر والسياسة والحرب ، ثم ما لبثت تحت كيد الشعوبية والعصبيات القاتلة أن ضعفت ثم تعفنت ثم أخيرا لقيت مصرعها بعد أن دب فيها الفساد الذي بذر بذرته الشعوبيون والمتعصبون ضد العرب .

ولقد كانت حملة الدعاية التي رتبت لبشار من الذكاء بمكان ، ذلك أن النقاد والمؤرخين الذين احتفلوا به الاحتفال كله انتخبوا من أشعاره الكثيرة — التي مهما قيل في كثرتها فإنها لم تبلغ الكمية التي ذكروها — كل طريف معجب ، وكل جميل مطرب ، وكل مبتكر أخاذ ، وهم في نفس الوقت حينما جاءوا بنماذج رديئة من شعره ، جاءوا بها مع دفاع مرتب عن سبب رداءتها وجعلوا الدفاع صادرا من بشار نفسه على ما سوف نفصل القول بعد قليل.

على أن كثيرا من المقطوعات البراقة والقصائد ذات الجرس الجديد التي خلبت عقول كثير من النقاد ونالت إعجابهم ، قد وجدت من الأدباء والدارسين المحدثين من يقلل من قيمتها في ضوء التحليل المنطقي والمعايير السليمة ، وخاصة تلك التشبيهات التي كان يكثر منها بشار ، والتي كانت تجد استجابة طيبة لأول وهلة عندما تطرق أسماع الناس [1] . هذه التشبيهات كان يعتورها الخلط ويسودها التناقض ، وكل حسناتها أنها صيغت في قالب من القول جميل ، وفي ثوب من الألفاظ خلاب أنيق .

(١) تاريخ الشعر العربي ص ٣٥٧ .

ولكن ما لنا ولغيرنا في مجال دراسة بشار أن نسلم بأن ما يقدم من شعره هو فقـــط الحسن الجيد أو الغث الرديء ، إن الذي يريد أن يقدم حكما صادقا على القيمة الفنية لشعر شاعر ، عليه أن يقرأ شعره كله ، وأن يستعرضه في ضوء المعايير النقدية الفنية ، وأن يعتمـــد على مقارنة يجريها بينه وبين الشعراء من معاصرية وسابقيه . إن بين أيدينا ديوانا يضم العديد من قصائد بشار ، وإن من يستعرض هذا الديوان سوف يجد أن قصائد عديدة من تلك التي ضمتها دفتاه لا ترقى إلى مستوى الشعر الجيد الذي يليق بشاعر ذي سمعة مدوية كبشار ، فضلا عن أنها أدنى قيمة من شعر بعض معاصريهالذين لم يرزقوا حظا كحظه ودعاية كدعايته ، ويمكن أن نذكر من هؤلاء على وجه التحديد ابن هرمة وابن ميادة والحسين بن مطير الذين لا نكاد نقع لهم إلاعلى كل جيد من القول بارع من الشعر حسبما مر بنا قبل قليل في فصول هذا القسم من الكتاب .

على أن بشارا كان بالإضافة إلى ضرره حاد الطبع متطرف المزاج ، وإذا كان الضرر وحدة المزاج مما يعكر على الإنسان صفو حياته ، فإن ذلك في مجال الشعر والخلق الفني قد يدفع إلى الإبداع كما يدفع أحيانا إلى السقوط ، فبشار وهذا مزاجه متطرف في حبه ، متطرف في الجري وراء اللذة ، متطرف في مدحه ، متطرف في هجائه ، متطرف في أشياء كثيرة ، بحيث كان هذا التطرف سببا في الكثير من روائعه التي سلط عليها أنصاره والمتحمسون له أضواء لألاءة من التركيز ، فكانت مواضعها بين شعره الكثير مواضع النجوم الزاهرة في رحاب السماء العريضة في الليل البهيم ، لا تخطئها العين ولا ينكرها البصر .

هذا وبشار قد عاش الجانب الأطول من حياته في عصر بني أمية ، ومن ثم فهو أموي الثقافة ، محافظ مدرسة الشعر ، متأثر بكل شعراء المدرسة الأموية كلٌّ في مجالاته من غزل ومدح وفخر ورثاء وهجاء ، غير أن تأثره بهم لا يعني أنه سرق معانيهم ، ولكن يعني أنه سار في دربهم ، ثم هيأت له

بعض ظروفه الشخصية من كفّ بصر ، ومخالطة لأهل الكلام ، وشعوبية واستهتار بالقيم ، أن يجرؤ على معايير الشعر وقيمه ، فجاءت هذه الطرائف التي صادفت هوى ورضى في صدوز الناس ، وتقبلا وحسن تلقّ من العامة وبخاصة النساء ، فميزته عن غيره من جمهرة الشعراء المعاصرين له والذين لم يجرؤا على التهجم على القيم جرأته ، فكان أن جنى ثمرة جسارته التي نظمها في بيت شعر : (١)

مَنْ راقب الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجتِه
وفازَ بالطَّيِّباتِ الفاتكُ اللَّهِجُ

ثم أخذ هذا المعنى نفسه وحسّنه تلميذه ومعاصره سلم الخاسر فقال :

مَنْ راقب الناسَ مات همًّا وفاز باللَّذَّةِ الجَسُورُ

لقد كان بشار فاتكا حسب تعبيره وجسورا حسب تعبير سلم الخاسر ، ولكنه لم يكن فاتكا في الحرب ولا جسورا على الجيوش ، فذلك شيء هو بعيد عنه كل البعد ، ولكنه كان فاتكا على أعراض الناس جسورا على القول الجارح البذيء الخادش للحياء ، حياء من يستحيون ، وليس العامة ، وهو لذلك قد فتح بابا للشعر الشرير الذي يجلد رهق الشباب بسوط لا يرحم ، ويشكك في عفة النساء ويزعزع مقاومة الحرائر بأسلوب من الشعر الشيطاني الجريء الذي دفع بالملك العباسي المهدي أن يمنعه من هذا اللون من القول، بل من الغزل كله . إن قصائد بشار من هذا النوع الفاضح كانت تتسرب إلى البيوت خلسة حتى تقرأها النساء ، وكان شعره يعتبر خطرا على الحرائر تماما كما كان شعر عمر بن أبي ربيعة على زمانه، ولكن عمر لم يتدنّ إلى ما تدنّى إليه بشار ، بل يمكن القول إن بعض شعر بشار في هذا المجال كان ذا أثر من الإفساد مماثل للأثر الذي تتركه كتب الجنس الرخيصة وبعض روايات دور «السينما» في زمننا المعاصر .

---

(١) معاهد التنصيص ٥٠٦ .

وإذا كان المثل العربي الذي يجري على ألسنة العامة والخاصة «خالف تعرف» من النفاذ بمكان ، فقد اقتفى بشار أثر ذلك المثل – إن وجد على زمانه– وخالف الشعراء في مسلكهم فعرف بين الناس أكثر مما عرفوا ، واشتهر بين العامة أكثر مما اشتهروا، على غير فضل أوفر أو امتياز أفضل .

هذه قضايا أولية لم نجد بـــدًّا من تسجيلها ونحن نعرض لدراسة بشار ، لم نهدف فيها إلى النيل من قدره – فهو شاعر كبير – بقدر ما استهدفنا أن نضعه في مكانه الصحيح بين شعراء زمانه ، غير غالين غلوّ من وضعوه في سماء لا يرقى إليه فيها شاعر آخر ، ولا غاضّين من شأنه على نهج من وجدوا لذلك سببا واتخذوه سبيلا ، ولكن لكي نقدمه في دراسة موضوعية قد مهدت لها فكرة محايدة بقـــدر الاستطاعة حتى لا تختل الموازين أو تفسد المعايير تحت بريق الجيد الأخاذ من شعره والرديء المتهالك من مقطوعاته .

(٢)

نشأة بشار :

واسم شاعرنا بشار بن برد بن يرجوخ ويكنى بأبي معاذ ويلقب بالمرعث ، وكان يرجوخ هذا من سبي المهلب بن أبي صفرة في طخارستان وقد أورد صاحب الأغاني ستة وعشرين جدا لبشار يحملون جميعا أسماء فارسية نشك في صحة تسلسلها ووجودها للسبب الذي ذكرناه في صدر هذا الفصل ، وهو صعوبة حفظ هذا العدد الضخم لأجداد شريف حر فضلا عن عبد من السبي ، ولقد ولد بشار أعمى ، وهو يذكر ذلك في شعره ويربط بين العمى والذكاء في قوله : [1]

---

(١) تاريخ بغداد ١١٤/٧ .

عمِيتُ جنيناً والذكاءُ من العمى
فجئْتُ عجيبَ الظَّنِّ للعلمِ مَوْئِلاَ

ولما كانت المواهب تولد مع المرء ولا تكتسب، فإن بشاراً ولد شاعرا وقال الشعر وهو ابن عشر ، وحين صار ابن ثلاث عشرة صارت الناس تخشى لسانه ، ومعنى ذلك أنه أصبح في تلك السن الباكرة وقد استوى عود شاعريته ، ولكن الشاعرية إذا لم تسعفها ثقافة لغوية واستقامة في النطق وأصالة في التعبير تصبح عديمة القيمة أو مشوهة كالثوب الجديد النفيس المرقوع ، أما بشار فكان بحكم نشأته في بني عقيل فصيحا بعيدا عن التردي في الخطأ ، قيل له : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشُكّ فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه . قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعت فأُبْدِيت إلى أن أدركت، فمن أين يأتيني الخطأ ؟[1] .

لم يكن بشار مجرد إنسان يقول الشعر لنفسه يتغنى به أول أمره شأن كل شاعر ناشىء حتى يذيع أمره بطريق طبيعي سويّ، ولكنه ما كاد يأنس في نفسه القدرة الشاعرة حتى بدأ يهرول إلى القمة غير عابىء بالسفح ، ويلتفت حوله باحثا عن وجوه الشعراء وأرفعهم منزلة ، فيقع نظره على جرير الذي كان صاحب القدح المعلى في مربد البصرة يصارع الشعراء ويصارعونه فيغلبهم فيلوذون منه بالفرار ، وبشار بصري يعيش على مرمى حجر من ساحة جرير ، وإذن فليتجه إليه ينازله ويهاجيه ، ولكن جريرا العملاق يستصغر شأن الصبي الشاعر الصغير الذي يقذفه من أسفل قدميه بحبات الحصى فلا يرد عليه ، ويكبر بشار ويتذكر محاولته مع جرير ويتحسر على استصغار جرير لشأنه ويقول : هجوت جريرا فاستصغرني وأعرض عني ولو أجابني لكنت أشعر

(١) الأغاني ٣/١٤٩ ، ١٥٠ – أبديت بالبناء للمجهول أي أخرجت إلى حياة البدو .

أهل زماني [1] .

وبشار من ناحية هيئته وشكله فيما يروي الأصمعي : ضخم عظيم الخلق والوجه مجدورا طويلا ، جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظرا ، وكان إذا أراد أن ينشد صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وعن شماله .

وقد استغل بعض خصوم بشار هذه الصفات الخلْقية القبيحة فيه والتي لم يكن له ذنب في فيها فقالوا فيه هجاء مرًّا مقذعا يمكن التمثيل لبعضه ، ويجمل أن تعفّ عن ذكر البعض الآخر ، ولكن كلمة حق يجب أن تقال ، فما كان هؤلاء الذين يتعرضون له بالهجاء يعمدون إلى ذلك لمجرد السخرية من رجل أعمى ، ولكن لأن بشارا كان يحمل في فمه لسانا حادا بذيئا أحد من السيف يسلطه على الناس فيثلبهم كراماتهم ويجرح أعراضهم ، ولم يسلم منه حتى كرام الناس مثل العالم الجليل واصل بن عطاء، فابتلي بمن هم أشد منه هجاء مثل أبي الشمقمق وحماد عجرد ، فاستغلوا نقطة الضعف فيه وهي عماه مع قبحه ، فبدأوا يهجونه ويستنزفون بعض ماله الذي كان يحصله من الناس حتى لا يهجوهم . يقول له أبو الشمقمق : يا أبا معاذ ، مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون :

هَلِّلِينَهْ هَلِّلِينَهْ طَعْنَ قَتَّاءٍ لِتِينَهْ
إنَّ بشارَ بْنَ بُرْدٍ تَيْسٌ اعمى في سَفِينَهْ

فيخرج له بشار مائتي درهم ويقول له : خذ هذه ولا تكن راوية الصبيان يا أبا الشمقمق ، ولم يكن البيتان إلا تأليفا من أبي الشمقمق نفسه .

أو قول أبي هشام الباهلي فيه :

---

(١) الأغاني ٣/١٤٤ .

فعبْدِي فقَا عَيْنَيْكَ فـي الرحم ...

فجئتَ ولم تعلمْ لعيْنَيْـكَ فاقيـا

أأُمُّكَ يـا بشارُ كانـتْ عفيفةً

عـليَّ إذنْ مشيِي إلى البيتِ حَافيا [1]

وهناك أبيات لحماد عجرد في هجائه بلغت من الفحش مبلغا يؤذي الأذن سماعها وتقذي العين قراءتها ، وأوجع بيت لحماد في بشار هو :

يـا أقبـح مـن قـردٍ إذا مـا عَمِـيَ القـردُ

(٣)

عقدة العمى وانطلاقة الشعر :

إن كفّ البصر في حد ذاته يخلق مشكلة لصاحبه ترمي به في حومة من ركام العقد النفسية والحسية لا يستطيع أن يتغلب عليها إلا كل مؤمن شجاع ، وهي عند الذين ولدوا مكفوفين أشد منها عند هؤلاء الذين ضروا وهم كبار ، فهؤلاء الأخيرون تكون للحياة في أذهانهم وعقولهم صورٌ باقية يتحسسونها ويلتمسون منها الوحي الصادق الدقيق في أكثر الأحيان ، وقد عرف التاريخ عددا من الشعراء العظماء المكفوفين ، فمن شعراء العرب المكفوفين السائب بن فروخ المعروف بأبي العباس الأعمى وقد مرّ حديثه ، ومنهم بشار بن برد هذا ومنهم ربيعة بن ثابت المعروف بربيعة الرقّي ، ومنهم أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري ، ومنهم الأعمى التطيلي الشاعر الوشاح الأندلسي ، ومنهم من كف في آخر حياته مثل حسان بن ثابت ، ومعن بن أوس ، وصالح بن

(١) الأغاني ٣/١٤١ .

عبد القدّوس ، وكل هؤلاء من عباقرة شعراء العربية ، ومن الشعراء المكفوفين العالميين من غير العرب ، الشاعر الانجليزي ملتن ، والشاعر اليوناني الذائع الشهرة هوميروس الذي إن صح أنه وجد يكون معجزة الشعراء المكفوفين في تاريخ العالم.

لقد كان لآفة العمى أثر في حياة هؤلاء جميعا من حيث علاقتهم بمجتمعاتهم ومن حيث سلوكهم في الحياة ومن حيث نهج تفكيرهم وأسلوب فنهم وسرعة بديهتهم ، فإذا أخضعنا شخصية بشار لهذه المعايير وجدناه يتحرك على كفتها بأقدار تختلف خفة وثقلا ، ولينا وعنفا ، وطرافة ووقارا ، وجدا وفكاهة ، وهو يحاول أن يجوِّد شعره ويضفي عليه ألوانا وزخارف مستمدا إياها مما يتصوره في واقع الحياة ، فيصيب ويجيد ويحلق حينا ، ويخفق وينحرف ويتبذل حينا آخر . تسأله امرأة ذات يوم : لم يهابك الناس مع قبح وجهك ؟ فيجيبها على البديهة : ليس من حسنه يهاب الأسد . إلا أن هذه المرأة كانت حسنة الحظ إذا ما قورن ردّ بشار عليها برده على أخرى عايرته بعماه عندما ارتجى وصالها فكان رده عليها من أفحش القول وأقبح الشعر [1] .

ـ على أن بشارا رغم حدة مزاجه وشعوره الدائم بالنقص نتيجة لعماه كان يعمد إلى الانعطاف بآفته إلى ميدان الفكاهة والسخرية بمن يعامله معاملة المبصرين ، ولا شك أن انسانا يعامل مكفوفا معاملة المبصرين لفي غفلة ، وجدير بالسخرية حريٌّ بالازدراء ولو كان رفيع القدر مرموق المكانة . فمن هذه الطرائف أن بشارا دخل على المهدي العباسي وعنده خاله يزيد بن منصور الحميري فأنشده قصيدة ، فلما أتم إنشاده قال له يزيد : ما صناعتك يا شيخ ؟ فرد عليه بشار بجواب ملؤه السخرية قائلا : أثقب اللؤلؤ . فقال له المهدي : أتهزأ بخالي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، فما يكون جوابي لمن يرى شيخا أعمى ينشد شعرا فيسأله عن صناعته ؟! [3] .

---

(١) الأغاني ٣/١٧٤ .

(٢) المصدر ٣/٢٠٢ .

(٣) زهر الآداب ١/٤٢٦ .

وقال هلال الرأي – وهو هلال بن عطية – لبشار – وكان صديقا له – يمازحه : إن الله لم يذهب بصر أحد إلا عوّضه ، فما عوضك ؟ قال : الطويل العريض ، قال : وما هذا ؟ قال : ألا أراك ولا أمثالك من الثقلاء . ثم يستطرد بشار ويمعن في السخرية بصديقه فيقول له : يا هلال ، أتطيعني في نصيحة أخصك بها ؟ قال : نعم ، قال : إنك كنت تسرق الحمير زمانا ثم تبت وصرت رافضيا فعد إلى سرقة الحمير فهي خير لك [1] .

وجاء رجل إلى بشار يسأله عن منزل رجل بعينه فوصفه له ، وجعل يفهمه وهو لا يفهم ، فما كان منه إلا أن أخذ بيده وقاده إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقودُ بصيراً لا أَبَالَكُـمُ
قد ضَلَّ مَنْ كانت العِمْيَانُ تَهْدِيهِ

فلما وصل إلى منزل الرجل قال له : هذا هو منزله يا أعمى [1] .

وكان بشار قد قال الشعر صغيرا كما مر بنا،وكان يقذع في هجاء الناس الذين يشكونه إلى أبيه ، فكان أبوه يضربه ضربا مبرحـــا ، وكانت أمه لا تفتأ تقول لأبيه : أما ترحم هذا الصبي الضرير وأنت دائم الضرب له ، فيجيبها : إني والله لأرحمه ولكنـــه يتعرض للناس فيشكونه لي ، فيستمع بشار إلى قول أبيه ويحس نغمة العطف في إجابته فيطمع فيه ويقول له : يا أبت إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر ، وإني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي ، فإن شكوني إليك فقل لهم : أليس الله يقول ، « ليس على الأعمى حرج ». فلما عاود الناس شكواهم قال لهم بُرْد ما قال بشار ، فانصرفوا حانقين وهم يقولون : فقه بُرْد أغيظ لنا من شعر بشار .

---

(١) الأغاني ٣/١٦٧ ، ١٦٨ .
(٢) المصدر ٣/٢٢٥ .

لقد استطاع بشار أن يتغلب إلى حد كبير على عقدة العمى في حياته ، أو على وجه أصح حاول أن يعالجها عن طريق الفكاهة والسخرية التي عمد إليها في كثير من سلوكه ،وكان يرى فيها—ولا شك — نوعاً من التسرية عما يكابده من آثار آفة العمى ، فصارت النكتة تجري على لسانه والسخرية تصدر منه باسمة مرة ومريرة مرة أخرى ، ولقد أورد صاحب الأغاني وصاحب تاريخ بغداد عددا وفيرا من هذه الطرائف .

لقد كان بشار نظيفا في ملبسه وإن جعل لردائه طابعا خاصا ييسر له لبسه ، وكان له أخوان قصابان هما بشر وبشير وكان يعطف عليهما كثيرا ، ولكنهما كانا ينتقيان ملابسه النظيفة فيرتديانها بدون إذن منه فتتلطخ بالدم وتتلوث بالروائح الكريهة حتى اضطر آخر الأمر إلى أن يلبسها بوسخها ورائحتها ، فقيل له : ما هذا يا أبا معاذ ؟ فأجاب : هذه صلة الرحم [1] .

ويقف أحد المجان على بشار وهو ينشد شعرا ، فيقول له : استر شعرك هذا كما تستر عورتك ، فيغضب بشار ويصفق بيديه ويقول له : من أنت ويلك ؟ فيجيب الرجل : أنا أعزك الله من باهلة وأخوالي من سلول وأصهاري من عكل * واسمي كلب ومولدي بأضاح ومنزلي بنهر بلال ، فضحك بشار ثم قال : اذهب ويلك ، فأنت عتيق لؤمك ، قد علم الله أنك استترت مني بحصون من حديد [3] .

ومرّ بشار بقاصّ في البصرة فسمعه يقول في قصصه : من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوّه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها ، فالتفت بشار إلى قائده وقال : بئست والله هذه الدار في كانون الثاني .

---

(١) المصدر ٢٠٨/٣ .

(*) باهلة من قيس عيلان وهو اسم امرأة من همدا ن كانت زوجة لمعن بن أعصر من قيس عيلان فنسب ولده إليها ، وسلول قبيلة من هوازن وسلول أمهم ، وعكل قبيلة فيهم غباوة وقلة فهم ولذلك يقال لكل غبي أحمق إنه عكلي .

(٣) الأغاني ١٥٩/٣ .

على هذه الشاكلة استطاع بشار أن يتغلب على متاعبه النفسية الناجمة عن العمى أو هكذا بدا ، ولكن الأمر في نطاق الشعر خارج عن إرادته فهو في كثير من شعره لا يستطيع أن يخفي عماه ، وفي غضون كثير من قصائده علامات وقرائن تدل على أن قائلها مكفوف يحاول أن يهرب من قرائن آفته فلا يستطيع ، ولكنه في كثير من الأحيان يعزو ذكاءه وعبقريته إلى عماه . يقول له الأصمعي : ما رأيت أذكى منك قط ، فيجيب بشار : هذا لأني ولدت ضريرا ، واشتغلت عن الخواطر للنظر ، ثم أنشد :

عَمِيتُ جَنِينـــاً والذكاءُ من العَمَى
فجئْتُ عجيبَ الظنِّ للْعِلْمِ موئِلاَ
وغاضَ ضياءُ العَيْنِ للقلْـــبِ رائـــداً
بحفظٍ إذا ما ضيَّعَ الناسُ حصَّلاَ
وشعرٍ كزهرِ الروضِ لا أَمْتَ بينَهُ
نقيٌّ إذَا ما أَحْزَنَ الشعرُ أَسْهَلاَ [1]

إن بشارا يقدم تحليلا عميقا لذكاء المكفوف الذي لا يكون بالضرورة موروثا ولكن طبيعة الآفة تكوّنة وتجعله مكتسبا ، إنه ظاهرة من مظاهر الحفاظ على النفس وحب البقاء ، ولذلك فقلما نصادف مكفوفا ساذجا على على غير عمق في فكره وتصرفه، بغضّ النظر عن البيئة الاجتماعية أو الثقافية التي إليها ينتمي .

على أن عقدة العمى هي نفسها التي دفعت بشارا إلى أن يقول أرق مقطوعاته وأجمل قصائده، تلك القصائد التي نمته إلى مدرسة التجديد وشجعت كثيرا من النقاد على أن يجعلوه رأس المجددين ويعتبروه شيخهم،إننا فيغير ما إسراف

(١) تاريخ بغداد ١١٤/٧ .

في الحكم أو غلوّ في التقدير نعتبر نبوغ بشار في كثير شعره وبالتالي تلك القفزات التجديدية التي بدت واضحة عنده والتي ألح عليها محبوه ومشايعوه والمتحمسون له من النقاد إنما هي ثمرة عماه لو صح هذا التعبير وكان للعمى ثمار ، إنه يجهد نفسه في التصور وأحيانا يجهد نفسه في المحاكاة لشعر سابق محاولا أن يستعين بفكرته قاصدا إلى أن يأتي بصورة أفضل منه ، وهل هناك شعر كثير على هذا المستوى من الرقة التي تتضوع في قول بشار[1] .

يا قَوْمُ أُذْنِي لبعضِ الحيِّ عاشقةٌ
والأُذْنُ تعشقُ قبلَ العيْنِ أَحيانَـا

قالوا : بِمَنْ لا تَرَى تَهذِي ؟ فقلتُ لهم:
الأُذنُ كالعينِ تُوفِي القلبَ ما كانا

هلْ مِنْ دواءٍ لمشغوفٍ بجاريـةٍ
يلقَى بلُقْيانِهـا روْحاً ورَيْحَانَـا ؟

لقد ضمن بشار هذه الأبيات معاني جديدة احتوتها صورة العشق الطريفة التي رسمتها ودبجتها شاعريته المستمدة من ضرره ، فذاعت بين النقاد وشاعت بين الناس في كل زمان ، وأصبحت على ألسنة أنصاف المتأدبين فضلا عن المتأدبين أنفسهم ، ولكن قيمة هذه الأبيات كانت تأخذ مكانا أو فر من الاستقرار لو أن بقية القصيدة قد وصلت إلى أيدينا ولم تضع فيما ضاع من شعر بشار .

ومن هذه المعاني الجديدة التي نالت إعجاب المتأدبين والتي صدرت من معين تصور بشار وتوليده المعاني في نطاق إسار كف بصره هذه القصيدة التي قالها في صاحبته « عبدة »[2] .

---

(١) الأغاني ٣/٢٣٨ .

(٢) ديوان بشار ٣/١٥٨ وما بعدها .

يا ويْحَ نفْسِي أَراها كلما انْبَعَثَتْ
أَلْقَى عليها صباباتِ الكرى القَدَرُ
بَلِيتُ والشوقُ أَبلانـــي تذكُّـرُهُ
مـــن غـــادةٍ بيتُهـــا دانٍ ومهتَجَـــرُ
هيفـــاءُ مقبلـــةً عجـــزاءُ مدبـــرةً
لم تُجْفَ طولاً ولا أَزْرَى بها القِصَرُ
غَرَّاءُ كالقمرِ المشهورِ حين بدَت
لا بلْ بدَا مثلُها حين اسْتَوَى القمرُ
لما رأَيت الهوى يَبْرِي بِمُدْيَتِـهِ
لحْمِي وحلأَني الـزُّوارُ والسَّمَـرُ
أَصبحت كالحائمِ الحرَّانِ محْتَبَساً
لم يقْضِ وِرْداً ولا يُرْجَى له صَدَرُ

لعلنا حتى الآن لا نرى في هذه الأبيات شيئا جديدا من ذلك الذي جعل الناس يفتتنون بشعر بشار ، إنه شعر عاديّ غير متميز عن شعر الطبقة الوسطي من الشعراء ، إنه صورة مهتزة لبعض أبيات عمر بن أبي ربيعة في وصف محبوباته ، ولقد مرت بنا أبيات عمر في هذا الميدان فإذا هي أرق وأمتع ، بل إن عمر لم يتورط فيما تورط فيه بشار من استعمال المدية يبري بها الهوى لحمه وكأنه جزار ، وما كان للهوى أن يكون جزارا مهما قسا على الصب ومهما عبث بالمحب ، إنه يصيبه بالذبول ويذهب عنه النوم ويذيقه كأس الحرمان إلى غير ذلك من عبارات تعارف عليها العشاق وألف استعمالها المحبون ، أما استعمال المدية فهو شيء مخيف في دنيا المحب ، وأما أن تبرى

(١) المصدر ٢٠٨/٣ .

لحمه أي تقطعه كما تبرى السكين القلم فهذا أيضا أمر مفزع في عالم العشاق ، فلا كان العشق ولا عاش الحب إذا ما استعملت فيه المدى والسكاكين ، وليس من شك في أن بشارا قد تأثر في تعبيره هذا كل التأثر بمهنة أخويه بشر وبشير اللذين كانا يعملان قصابين .

وإذن فبشار حين يقول الشعر ، مجرد الشعر ، بعيدا عن آفته فأكثره شعر عاديّ لا يفوق فيه غيره إلا في القليل وسوف نورد أمثلة كثيرة على ذلك ، فإذا ما أدخل عنصر العمى أو الضرر في صياغته ومعانيه أتى بالمعجب ، ومن ثم فهو يقول استطرادا في القصيدة مستمدا القول من تمثل آفته :

قالتْ عَقِيل بن كعبٍ إذْ تعلَّقها
قلبي فأَضْحَى به من حُبِّها أَثِـر
أَنَّى ولم ترها تَصْبُو فقلـتُ لهم
إنَّ الفؤَادَ يرى ما لا يَرَى البصَر

بيتان من عيون الشعر حُسْنَ صوغٍ وجدَّةَ معنىً وبراعة خيال ونبوغ توليد ، ذلك أن بشارا استغنى عن البصر الذي لم يكن لديه بد من الاستغناء عنه ، وبحث عن عوض وبديل ، فإذا بالعوض والبديل هو الفؤاد ، و لا شك أن الحب معينه الفؤاد ، وأما البصر فهو الطريق إليه ، وقد اختصر بشار الطريق واستغنى عنه وقفز إلى اللب والجوهر ، فأصاب كبد الحقيقة كما يقولون ، ونال الإعجاب وأثار الإطراب .

فإذا خرج بشار من هذا النطاق ومضى في قصيدته هذه فلنستمع إلى البيت التالي ولن نستعجل الحكم لكي نقول بسخافته .

وصابريـنَ ولـو يلْقَوْنَ من طربي
مِعْشارَ عُشْرِ عَشِيرِ العُشْرِ ما صَبَرُوا

إنها مبالغة لا تخلو من سخف فضلا عن ركاكتها وسوقيتها وتنافرها إنه يذكرنا ببيت الأعشى وقبحه على تفاوت بين قبح هذا وذاك :

وقد غدوت إلى الحانوتِ يتْبَعُنِي
شاوٍ مُشِلٌّ شَلَــولٌ شُلْشُلٌ شَــوِل

إن بشارا قد خرج من ميدان فروسيته وابتعد عن مصدر وحي إجادته .

وإذا ما مضينا مع بشار في بقية القصيدة فلن نجد إلا نظما وما هو بشعر . نحت ألفاظ وتحايلاً على معان بعيدة عن الجدة عارية من الإيقاع وكأنما هي واجب أنيط به أداؤه :

قالوا جهِلْت بذكراها فقلت لهــم
لا بلْ جُنِنْتُ فكُفوا اللوْمَ وازْدَجِرُوا

ما لان قلبي لِنَاهٍ عــن زيارتِهــا
وهلْ يَلِينُ لقلــبِ الواعظِ الحَجَرُ

لا تكْثِرُوا لومَ مَشْغوفٍ بجاريــةٍ
لا يشتكي سهراً منها ومــا السَّهَــرُ

لا يذكر الدهرَ أو يَسْرِي الخيالُ لَه
إلاَّ تغنَّى بهــا أو مَسَّه ضَــــرَرُ

صَبٌّ كئيبٌ إذا ما ذكْرَةٌ * خطرتْ
نادى عُبَيْدَةَ حتَّى يذهبَ الخطرُ

ما بال عبدةَ لا تــأْوي لمكتئِــبٍ
والوحشُ يأْوِي لــه والجن والبشر

(*) ذكرة بضم وسكون يعني التذكر .

من كان بمُعْتذِراً مِنْ حــبٍّ غانيةٍ
فليس من حُبِّها مــا عاش يَعْتَذِرُ
يرجو عُبَيْدَةَ يوماً أنْ تجــودَ لــه
وإنْ تطاولَ مــا يرجو ويَنْتظِــر

إن القصيدة أقل من عادية لا روح فيها ولا نبض ولا حرارة ولا معاناة ، وأين هي من قصائد أبي حية النميري وابن ميادة المعاصرين له اللذين نجد كل بيت من قصيدة الغزل عندهما بيت عين . ألم نقل إن المعجبين ببشار وناصريه ومشايعيه كانوا يختارون « أبيات القصيد » ويظهرونها دون بقية القصيدة حتى تحافظ على رونقها وجدتها ولا يفسد رواءها ما تسفيه عليها بقية القصيدة من غبار وتراب .

نعود مرة أخرى إلى شعر بشار في نطاق ضرره لنجد أنه يحلق في معان رقاق ، ينفذ بها في يسر ورفق من أذن السامع إلى قلبه ، يقول في صاحبته عَبْدَه وقد أحبها بقلبه البصير وليس بعينه المبصرة [1] :

يُزَهِّــدُني في حُــبِّ عَبْدَةَ معشــرٌ
قلوبُهُمُ فيهــا مخالفــةٌ قَلْبِــي
فقلت دعُوا قلبي وما اخْتَارَ وارْتَضي
فبِالْقَلْبِ لا بِالْعَيْنِ يُبْصِرُ ذو اللُّبِّ
وما تبْصِرُ العَيْنانِ في موضعِ الهَوَى
ولا تَسْمَع الأُذْنانِ إلا مِــنَ القلْبِ

هي معان جميلة وصياغة أخاذة وإيقاع مبدع دون شك ، ذلك أن

(١) زهر الآداب ١٥٢/١ .

بشارا يقول أبياته في ظل الحرمان ، فجاءت تروي العطاش إلى المعاني المبتدعة المعجبة ، والحرمان الذي أرمي إليه هنا ليس هو حرمان العاطفة والحب ، فما كان بشار من هذا الرعيل من المحبين ؛ لقد كان عبدا لشهواته مولى لنزواته ، وإنما الحرمان الذي أعنيه هو حرمان نور العين ونعمة الأبصار ، فكانت عملية التعويض هنا هذا القول الرائق والبيان العذب والشعر الرقيق .

وبشار بحكم آفته يجعل الطريق إلى قلبه من خلال الأذن وليس من خلال العين ، ولقد أكثر القول في هذا النهج ويسّره وذلل متنه ، ولقد مر بنا أكثر من مثال رقيق على هذا النسق ، وهو لا يفتأ يكرر هذا المعنى ، وفي كل مرة يصوغه صياغة تبدو وكأنها جديدة كل الجدة ويخيل لقارئها أو سامعها أنه يقع عليها لأول مرة ، فمن ذلك قوله [1] :

لقد عشِقَتْ أُذْنِي كلاماً سَمِعْتُهُ
رخيماً وقلبي للمليحةِ أَعْشَقُ
ولو عاينوها لم يلُومُوا على البُكا
كريماً سقاهُ الخمرَ بدرٌ مُحَلِّقُ
وكيف تَنَاسِي مَنْ كأَنَّ حديثَه
بأُذْنِي وإنْ عُنِّيتُ قُرْطٌ مُعَلَّقُ

ان بشارا لم يكتف هنا بمعاني الحب التي تتخذ طريقا إلى قلبه من خلال السماع ، ولكنه يعمد إلى الصورة هذه المرة ، ويخلق تشبيها طريفا فيشبه حديث من أحب واستقراره في سمعه لرقته وجماله ونفاسته بالقرط المعلق في أذنه ، وقد كان بشار ذا قرطين في أذنيه وهو صغير ولعل ذلك هو سبب تلقيبه بالمرعّث .

---

(١) زهر الآداب ١/٤٢١ .

وبمتابعتنا لشعر بشار في نطاق الغزل نجد أن حديث المرأة وصوتها ينوبان عنده عن ملاحة الوجه ورشاقة القوام ، والحديث طريقه السمع والأذن وملاحة الوجه ورشاقة القوام طريقهما العين والبصر ، ومن ثم فإن بشارا إذا وصف جسم المرأة وقوامها ضاع شعره في حلبة مَنْ طرق هذا الموضوع من الشعراء المبصرين وبخاصة عمر ومن سار على نهجه ، وأما إذا قال بشار غزله في المرأة في نطاق وصف حديثها فإنه يبدع ويجيد ويلفت النظر ويستوقف الأسماع ، قد لا يكون بشار خير من وصف حديث المرأة فقد تقدم في ذلك شعر جميل طريف وبخاصة عند أبي حية النميري ، ولكنه على كل حال خير من كثيرين ممن طرقوا هذا الموضوع من الشعراء المجيدين .

إن بشارا بسبب ضرره يعمد إلى الغزل الموحى به عن طريق الأذن لا العين ، وهو لذلك يكثر من وصف حديث المرأة ويجيد صورته أكثر من إجادته الغزل الذي يكون وحيه النظر والرؤية ، وهو يأتي في هذا النطاق بصور يأخذ في كثير من الأحيان بمجامع الإعجاب والإطراب ، وهل هناك أجمل وأدق من هذه الصورة التي أوحتها الأذن فجاءت أروع وأمتع وأدق مما لو كانت العين هي الموحية :

أُنُسٌ غَرَائِرُ ما هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ
كظباءِ مكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ أُنْسِ الحديثِ زَوانياً
ويُصُدُّهُنَّ عن الخنا الإسلامُ [1]

أي رقة مقرونة بالعمق تلك التي تتمشى في هذين البيتين المفرطين روعة وإجادة وجمالا ، إنها رقة جرير وعفته تتقمصان شيطان شعر بشار فيأتي بهذه الصورة الفريدة . أو قوله [2] :

(١) البيان والتبيين ١/٢٧٦ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٧٦ .

وكـــأَنَّ رَصْـــفَ حديثِهـــا قِطَعُ الرياضِ كُسِين زَهْـرَا
وتَخَـالُ مـا جَمَعتْ عليـه ثيابَهـا ذَهَبـاً وعِطْـــرا
وكـــأَن تحـت لسانِهـــا هاروتَ ينْفثُ فيهـا سِحْرَا

صورة جميلة رائعة لذلك الحديث الذي هو في نسقه وأدائه شبيه بقطع الرياض، ولكن مجرد الروض لا يكفي بشارا ليشبه به حديث محبوبته التي أنس فيها الجمال فيجمل المشبه به أكثر وأكثر وهو الرياض ويجعلها رياضاً مزهرة وثمت فرق في مراتب الجمال بين رياض مجردة ورياض مزهرة ، كل تلك الأناقة الشعرية التعبيرية صادرة من وحي الصوت الذي أخذ سبيله إلى قلب بشار عن طريق الأذن وليس العين الفاقدة القدرة على الإبصار ، فإذا ما انتقل بشار وحاول أن يصف صاحبته وصفا مصدره النظر ولو عن طريق التصور أخفق إخفاقا ذريعا فقال :

وتخـال مـا جَمَعـتْ عليـــــــه ثيابَهـا ذَهَبـاً وعِطْـرَا

وهي صورة شعرية رخيصة قميئة إذا ما قورنت بصورته في البيت السابق . ويوقع بشار نفسه في نفس التضاد بين صورتين إحداهما جميلة والأخرى قميئة حين يمزج بين صورة أوحتها الأذن وأخرى أوحتها العين كمثل قوله :

وبِكْرٍ كَنُوَّارِ الريـاض حَدِيثُهـا
تـروق بوجـهٍ واضِـحٍ وقـوَامِ

فالصورة التي رسمها للحديث وهو مسموع طبعا ، رائقة لطيفة ، والصورة التي قدمها للوجه والقوام والمفروض أنها مرئية ، ساذجة ضحلة ، وهكذا نجد أن آفة العمى عند بشار قد أمدته بسمات من الأصالة والإبداع ،فإذا حاول تقليد المبصرين قصر باعه ويبست ذراعه .

وإذا كان الحديث الناعم الرقيق الصادر عن امرأة شابة يكون هذا أثره

على نفس بشار وشاعريته ، فكيف يكون الأمر لو كان هذا الصوت ليس مجرد حديث وحوار ، وإنما هو لحن جميل يأخذ بمجامع الوجدان ويصافح سمع بشار ذلك الشاعر الحساس المهتاج ، يسمع بشار مغنية بارعة تصدح باللحن وتعزف على عودها نغما رقيقا ينساب إلى سمعه ويندلح إلى قلبه ، فيقول فيها أبياتا يحشد فيها ألوانا من الصور العذبة وأشتاتا من المعاني الرقيقة وأوصافا من الصيغ المنتقاة ، فهي مياسة القد ناعمة النشأة يجري اللؤلؤ المكنون على لسانها وينبثق اللحن العذب من مزهرها ويراعها ، وهي تزلزل القلوب طربا إذا ما داعبت أناملها أطراف العود ، وهي تلعب بألباب الرجال وقلوبهم كامرأة ، وأما كفنانة صادحة عازفة فإنها تسبح بهم في عالم علوي من الشفافية يستجلب التقي ويطرد الغواية ، وهي قبل ذلك كله وفي رحاب نشوة الألحان تصلي لها الآذان والعيون ، إنه حشد من المعاني العذبة والصور المبتدعة المرسومة ببراعة من فتنة الخلق ورقة الإيقاع ، دبجتها قريحة بشار ومخيلته مستمدة أخيلتها عن طريق الأذن والتصور وليس من خلال النظر وخلسات العيون ، فلنستمع إذن إلى الأبيات في رصفها الموسيقي بعد أن فصلنا ما حوت من خطرات نفسه [1] :

لَعَمْرُ أَبي زُوَّارِهـا الصِّيدِ إنهـمْ
لَفِي مَنْظَرٍ منها وحُسْنِ سَمَـاعِ
تُصَلِّـي لهـا آذَانُنَـا وعيونُنَـا
إذا ما الْتَقَيْنَـا والقلـوبُ دَوَاعِ
وصفراءَ مثـلِ الخيزُرَانَـةِ لمْ تَعِشْ
ببـؤْسٍ ولـمْ تَركبْ مطيَّـةَ راعِ

(١) المختار من شعر بشار ص ٣١٤ وأمالي المرتضى ١٣٩/٢ وملحق الديوان ٩٨/٤ .

جَرَى اللؤْلُؤُ المكنونُ فوق لسانِهـا
لِزُوَّارِهـا مِـنْ مِزْهَـرٍ ويَـرَاعِ
إذَا قلَّدتْ أَطْرافَها العُودَ زَلْزَلَـتْ
قلوبـاً دعاهـا لِلْوَسَاوِسِ داعِ
كأَنَّهـمُ في جَنَّـةٍ قـد تلاحَقَـتْ
محاسنُهـا مِـنْ روْضـةٍ ويَفَـاعِ
يرُوحُـون مِـنْ تَعْرِيدِهـا وحدِيثِها
نَشَاوَى وما تَسْقِيهِـمُ بصُـوَاعِ
لعوبٌ بـألبابِ الرِّجالِ وإنْ دَنَـتْ
أُطِيعَ التُّقَى ، والغَيُّ غيرُ مُطاعِ *

وسمع بشار جارية مغنية للمهدي ، وكانت جميلة الخلق عذبة الصوت ، فقال فيها إحدى قصائده الغزلية الجيدة التي لم يتورط فيها إلا بقدر في وصف مادي كسابق تورطه الذي مر بنا فأفسد معانيه ، إنه هنا في هذه القصيدة يلزم جانب الأناقة في القول بحرا وقافية وإيقاعا وصوغا ومعانيا ، والقصيدة من جيد الغزل الموشي بالوصف ، لأن الشاعر هنا في مجال القول في مغنية جميلة ، والقصيدة كلها من المدرسة الأموية رغم أنها قيلت في جارية للمهدي العباسي ، ولكن بشارا في فنه وبنية شعره وفكرة قصيده وصوغ رجزه أموي من قمة الرأس إلى أخمص القدم على ما سوف نبين فيما بعد ، ولا عبرة بالبروق الخلب الذي تظهر بين الحين والحين والتي احتفل بها النقاد فألحوا عليها ، وإنما الرجل في جملة شعره وتفصيله أموي آخذ بأسباب التجديد في بعض المعاني

(*) صفراء كناية عن الجمال عند العرب وهي هنا صاحبته المعروفة بهذا الاسم ، لم تركب مطية راع أي أنها ليست بدوية بل حضرية منعمة ، المزهر العود ، اليراع المزمار ، الصواع المكيال والمقصود أن غناءها يطرب فلا يحتاج معه إلى الشراب ، ومعنى البيت الأخير أنها عفة .

التي كان من دواعيها كف بصره وألوان من الثقافة ربما لم يتقبلها غيره تقبله إياها، وجرأة على القول في غيبة من الحياء حينا وفي شهود من شاعرية أصيلة حينا آخر .

نعود إلى ما نحن بصدده من قول، وهو وصف مغنية المهدي والتغزل فيها، إنه يستهل قصيدته هذه استهلالا تفيض حواشيه بحشد من صنوف الشكوى مطرزة بلون من الإيقاع عذب رتيب وذلك في قوله [1] :

أَلاَ مَنْ لِمطْرُوبِ الفــؤادِ عَمِيــدِ
ومَــنْ لِسَقِيمٍ بــاتَ غيــرَ مَعُــودِ
بأُمِّ سعيــدٍ جَفْــوةٌ عــن لقائِــهِ
وإنْ كانتِ البلْوَى بــأُمِّ سعيــدِ
إذَا قُلْتُ داوِي مَنْ أَصَبْــتِ فؤادَهُ
بِسُقْمِــكِ داوتْــهُ بطــولِ صُــدُودِ

على أننا ونحن نعرض لأبيات بشار هذه المرة سوف نلاحظ أنه يعمد أحيانا إلى الوصف المادي فينزل بمستوى الأبيات التي يضمنها هذا الوصف ، فإذا عاد إلى الغزل المعنوي ارتد محلقا مبدعا ، يقول بشار في غزل لطيف ولكن دون مستوى فنه رغم عمده إلى بعض المحسنات البديعية :

وإنِّي لوصَّــالٌ لأَخــلاقِ حَبْلِهــا
وما كنتُ وصَّالاً لغيْــرِ جَدِيــدِ
وكلُّ امرىءٍ ساعٍ وللنَّفْسِ غايةٌ
وما الداءُ إلاَّ الداءُ غَيْــرَ وَدُودِ

---

(١) الديوان ١/١٥٥ .

ورائحـةٍ للعيْـنِ فيهـا مَخِيلةٌ
إذا برقَتْ لم تَسْنِ بَطْنَ صَعِيـدِ
مِـنَ المستهلاَّتِ الهمـومَ على الفتَى
خَفَا بَرْقُها مِـنْ عُصْفَرٍ وعُقُـودِ
حَسَدْتُ عليهـا كـلَّ شيءٍ يَمَسُّها
ومـا كنتُ لـولا حُبُّهـا بحسُودِ
فَمَنْ لامَنِي في الغانيـاتِ فَقُلْ لـهُ
تَعِشْ واحداً لا زِلتُ غيرَ وحيدِ *

والأبيات رغم وفرة موسيقها ومحاولة إشاعة عاطفة فيها ، بادية الافتعال والتكلف كما هو الحال في الأبيات الأول والثاني والبيت الأخير بصفة خاصة فقد جاوز الشاعر فيه حدود النحو في جواب الأمر ،وفي الإتيان بالجملة الدعائية بشكل تعسفي ، وأما في البيت قبل الأخير فقد غلبت عليه طبيعة تعبير الرجل الضرير حين استعمل المسّ بدلا من الرؤيا في قوله :

حسدتُ عليها كلَّ شيءٍ يمسُّهـا
ومـا كنتُ لـولا حبُّهـا بحسودِ

فقد جرت العادة أن يكون الحسد لرؤيا العين وليس للحس أو المس فالشاعرة الركونية تقول :

أَغارُ عليكَ مـن عَيْنَيْ رقيـبي
ومنْكَ ومِـنْ زمانِـكَ والمكـانِ

(*) أخلاق حبلها يعني حبل وصالها البالي ، الرائحة أي الحبيبة التي تجيء وتتحرك وقد تكون بمعنى السحابة وقرينتها في ذلك لفظ المخيلة وهي التي يخيل إليك أن بها مطر وهي خالية منها لا تروي أرضا إن كانت سحابة ولا تروي ظمأ حب إن كانت غانية ، خفا برقها أي لمع .

ولكن هي طبيعة بشار المكفوف الذي يقوم اللمس عنده مقام النظر عند المبصرين .

ليس هذا على كل حال هو بيت القصيد الذي نسعى إليه ، فالذي نريد أن نصل إليه هو وصف بشار للمغنية من حيث هي مغنية تطرق عواطفه عن طريق أذنه وليس عن طريق عينه ، لأنه إذا عمد إلى الوصف العيني كبا وقصّر عن طبيعته على ما ألمحنا فيما مضى من شواهد قريبة أو بعيدة ، فإذا ما جعل الأذن وسيلة الإعجاب أعجب وأطرب ، وها هو في نفس القصيدة التي نحن بصدد تقديمها يصف المغنية التي لعبت بلبه ونالت إعجابه فيقول استطرادا :

كأَنَّ لسانـاً ساحِـراً في لسانهـا
أُعِيـنَ بصـوتٍ كالفِرَنْدِ حديـدِ
كَأَنَّ رياضاً فُرِّقَـتْ في حديثهـا
على أَنَّ ـ بَدْواً ـ بَعْضَهُ كبُرُودِ
تُمِيـتُ بـه أَلْبَابَنَـا وقُلُوبَنَـا
مِـرَاراً وتُحْيِيهِـنَّ بَعْـدَ هُمُـودِ
إذَ نَطَقَتْ صِحْنَا وصاح لنا الصَّدَى
صيـاحَ جنـودٍ وُجِّهَـتْ لجنودِ
ظَلِلْنَـا بـذاكَ الدِيْدَنِ اليـومَ كلَّهُ
كأَنَّـا من الفردوْسِ تحـتَ خُلُودِ
ولا بـأْسَ إلا أَنَّنَـا عنـدَ أَهْلِهـا
شهودٌ ومـا أَلبابُنَـا بشُهـود

قد لا يكون بشار موفقا التوفيق كله في نسج الأبيات ففيها فجوات ملحوظة في التركيب والبناء ، وقد يكون كرر نفسه ومعانيه في بعض هذه

الأبيات وبخاصة في الربط بين الرياض والحديث العذب ، ولكنه لا يعجز أبدا عن أن يأتي بمعاني سمعية رائقة الابتداع ،فتشبيه صوت المغنية في السامعين حاد قاطع كصوت الفرند ، وهي بصوتها الجميل المتناغم المتفاوت الإيقاع علوّا ورقة وامتلاء وعمقا وانطلاقا يلعب بأسماع الحضور وألبابهم فيميتها أي يفرض عليها السكوت والانصات مرة،ثم لا يلبث أن يدفع بهم إلى قطع السكون بصياح الإعجاب والاستحسان،وقد يشتد الصياح ويعلو الهرج حتى يصبح المنتدى لعلو الأصوات وارتفاعها وهرجها واختلاطها وكأنه ساحة قتال تسودها صوت الأجناد وهي تتصايح بعضها بعضا .

إن بشارا مبدع فنان في كل ما يقول من شعر صادر من منطلق آفته ، والأمثلة يضيق المجال عن حصرها ، وهو في نفس الوقت دون مستوى عامة الشعراء إذا ما دس أنفه في شئون المبصرين ، وإذن فليس هناك ما ينقض هذه القضية الهامة التي تجعلنا نذهب إلى أن العامل الأكبر في نبوغ بشار في عدد من موضوعات الشعر كانت هذه الآفة التي حرمته نعيم البصر ورفدته بنعمة الشعر المعجب ما كان هذا الشعر ذا صلة بآفته .

على أن الأمر في مجال الإجادة المستمدة من حرمان البصر لا يقف ببشار عند مقام الحب الذي يجنب البصر مهمة إيصال بواكيره إرهاصاته إلى قلبه، فيكد قريحته الخصبة،ويقدح زناد ملكته الثرة،فتمده بهذا الذي أسلفنا ذكره من رقيق الغزل وسويّ الشعر ، وإنما يلهم حرمان البصر بشارا بأبيات تعد من أروع ما قيل في طول الليل ، لقد قال كثير من المبصرين شعرا جميلا في وصف الليل ودجاه وطوله وظلمته ، ولكن معانيهم كانت مستمدة من حرارة عشق أو لهب حب ، وهكذا يحاول بشار أن يوهمنا حين يصف طول الليل ، ولكن الحقيقة أن الليل الذي يصفه بشار لم يكن ليل العاشقين ، ولم يكن الليل الذي هو عكس النهار ، وإنما هو يصف أيامه التي هي ليل كلها ، ودهره الذي هو ظلام جميعه ، إن ليلته ، حسب تعبيره تزداد طولا ، ويتساءل

أليس بعدها نهار ، ثم ينهج نهج المبصرين تمويها وتنفيسا حين يأتي بالمعنى الفريد الذي يجعل سبب عجز عينه عن التغميض قصر جفونها :

أقــول وليْلَتِــي تــزدادُ طُــولا
أمَّــا لِلَّيْــلِ بَعْدَهُــمُ نهــــارُ
جَفَتْ عَيْنِي عن التَّغْميضِ حــتّى
كــأنَّ جُفُونَهــا عَنْهــا قِصَــارُ

إنه معنى جميل ألح عليه النقاد من المعجبين ببشار، فذكروه منفردا في أكثر من كتاب، وحرموا البيتين من أمهما القصيدة الرائية الطويلة التي قالها بشار في المضريين مفتخراً بهم لانتصارهم لبني أمية ، ولكن هذين البيتين ليسا مثل بيتيه في الغزل :

قَالَتْ عُقَيْلُ بنُ كَعْبٍ إذْ تَعَلَّقَها .....

مقتطَعَيْن من قصيدة عجفاء المعاني بليدة المحاكاة ، وإنما هما مجتزآن من قصيدة نفيسة المعاني ثرة الشاعرية طيبة النفس بارعة الإيقاع ، من تلك القصائد الفذة التي قالها بشار في أيام بني أمية ، إن بشارا كما سوف يأتي القول ليس شاعرا عباسيا ، ولا التمعت شاعريته ونمت وترعرعت في زمن بني العباس كما تخيل كثير من الدارسين ، لقد جاء بشار إلى العهد العباسي أو بعبارة أخرى حلّ العهد العباسي عليه وهو مكتمل أسباب النضوج الفني ووراءه كنوز من فن القول في ميدان الشعر الرحيب ، وإن ما قاله من شعر في عهد بني العباس أقل قيمة في جملته وأخف ميزانا في تفصيله عن ذلك الذي قاله في عهد بني أمية، وليس بالضرورة أن يكون مدحا لهم أو قدحا في غيرهم ، وإنما المقصد الذي نهدف إليه وسوف نقف عليه طويلا بعد قليل أن بشارا شاعرٌ أموي أدركته خلافة بني هاشم حسبما يسميها المؤرخون وملك بني العباس حسبما نسميها نحن ونقوّمها .

إن ابن قتيبة ذكر البيتين حسبما سجلناهما قبل قليل [1] ، واو أنصف لذكر بيتا يسبقهما يكتمل به المعنى كله وهو قول بشار :

كأنَّ جفونَـهُ سُمِلَـتْ بشوْكٍ
فليس لِوَسْنَـةٍ فيهـا قَـرَارُ

وهو معنى جميل أحسنت صياغته ، وبرع بشار في تقديمه ، فإذا قرأنا البيتين السالفي الذكر بعده أصبح أمامنا لون من القول البديع .

والقصيدة كلها من عيون الشعر العربي ومن روائع فخريات بشار[2] بمصر على الرغم من أنه اقتبس فيها أكثر معاني معلقة عمرو بن كلثوم ، وقد استهلها بشار بالغزل الطويل الذي بلغت أبياته حوالي العشرين عدًّا ، انتقل بعده إلى وصف الإبل ، ثم عبر إلى الفخر الذي صاغه في خمسين بيتا من جيد الشعر ولنا إلى القصيدة كلها عود بعد قليل .

ومن معاني طول الليل واليأس من طلوع النهار وبزوغ الضياء، الصادرة عن المعنى الذي استنتجناه مرتبطا بضرر بشار قوله ايضاً مستفتحاً قصيدة غزلية : [3]

خليـلَيَّ مـا بالُ الدُّجى لا تَزَحْزَحُ
وما بالُ ضوءُ الصُّبْحِ لا يَتَوَضَّحُ
أَضَلَّ الصبـاحُ المستنيرُ طريقهُ ؟
أَمِ الدهرُ ليلٌ كُلُّهُ ليس يَبْرَحُ ؟

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٠ .
(٢) ديوان بشار ٣/٢٤٧ .
(٣) الديوان ٢/١٠٤ وتاريخ بغداد ٧/١١٤ واعتدنا رواية الأخير لأن القصيدة في الديوان مشوهة تورد نصف البيت وتغفل النصف الآخر .

أَظُنُّ الدُّجَى طالتْ ، وما طالت الدُّجَى
ولكنْ أَطالَ الليلَ هــمٌّ مُبَــــرِّحُ

إن الجانب اللامع والأبيات المشهورة من شعر بشار جاءت – إذن – بشكل مباشر مستمدة من آفة الضرر عنده ، فالحب لا تكون العين سبيله إلى قلبه وإنما هي الأذن، فالسمع يؤدي عنده وظيفة البصر ، وهو يحتال ليقدم معانيه هذه وتعلاته في ثوب من القول أنيق خلاب ، وهو في نفس الوقت إذا وصف ظلمة الليل واستمرار الدجى واستعصاء الضياء على الظهور وتمنع الصبح عن الطلوع فإنما يصف حاله وظلمته الدائمة الموصولة ، فيكون في ذلك صادرا عن أصالة في الاحساس ترفدها خصوبة شاعرية ومقدرة وذكاء .

على أن كل صور الوصف عند بشار لم تصدر كلها عن أصالة ولكنها في بعض الأحيان كانت تصدر عن تقليد ، لقد ذاع لبشار بيته الفريد الذي يجري على كل لسان ، والذي يعتبر من معجزات الوصف التي تصدر عن أعمى ، وهو قوله :

كأَن مُثَارَ النَّقْعِ فــوقَ رُءُوسِنــَا
وأَسْيافَنَــا ليــلٌ تَهَاوَى كواكِبُــهْ

إن بشارا يقر بنفسه أن فكرة هذا البيت لم تصدر عنه من واقع أصالة شاعريته ، وإنما هو قد حفظ بيت امرىء القيس :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً لدى وكْرِهَا العُنَّابُ والحشَفُ الخالي

فأخذ يكد قريحته و يُعْمل نفسه –حسب تعبيره– في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد [1] حتى قال بيته هذا الفريد ، ولولا أن بشارا قال بيته هذا من وحي ضرره الذي جعله يكد في نحته ورصفه حتى يلحق بالمبصرين لكان

(١) الأغاني ٣/١٩٦ .

فضل امرىء القيس أوفى وأوفر لأن له فضل الريادة والابتكار .

وبشار في رائيته التي استعرضنا أبياتا عديدة منها قبل قليل وذكرنا أنها جمعت بين الغث السخيف والسمين النفيس ، حاول أن يصف محبوبته وصفا ماديا استهدف فيها الإبداع القولي والبديع البياني من طباق ومقابلة وربما تشطير فقال [1] :

هَيْفاءُ مقبِلـةً عجـزاءُ مُدْبِـرَةً
لم تُجْفَ طولاً ولا أزْرَى بها القِصَرُ

وينصرف ذهن غير المتمرس على دراسة الشعر أن بشارا خالف طبيعته وأتى بوصف مادي لطيف مقبول ، ولكنه لا يلبث أن يصاب بخيبة أمل حينما يكتشف أن البيت منقول أو مسروق أو مقتبس من بيت كعب بن زهير :

هَيْفاءُ مقبلـةً عجـزاءُ مدبـرةً
لا يُشْتَكَى قِصَرٌ منهـا ولا طُـولُ

وليت بشار حسّن في الشطر الثاني الذي حاول أن يغير ألفاظه دون معناه ، إنه ربما نزل بمستواه الإيقاعي فضلا عن صياغته من الألفاظ التي يحس المرء حين نطقها بشيء من التنافر ومزاحمة بعضها بعضا ، كقوله : « لم تجف طولا » ، فإن عبارة كعب « لا يشتكي قصر ... » أرق على وأخف على اللسان .

الحق أن بشارا إذا ترك غنائيته الصادرة عن الإحساس المعنوي دون الحواس فإنه يتخبط في معاني تبعد عن رقة الشعر وأحيانا تجفو عن الذوق فيصبح كما يقولون شاعر الدرة والبعرة ، إنه يصف إحدى محبوباته واسمها رحمة فيقول [2] :

---

(١) ديوان بشار ١٥٨/٣ .
(٢) الديوان ١٦١/٣ .

حَوْرَاءُ كالرِّيمِ أعْلاَهـا إذَا خَرَجَتْ
تَهْتَزُّ في كَفَلٍ كالدِّعْصِ مَرْمَـارُ

إن بشارا يتصور أن المرأة إذا مشت وقد ثقل عجزها ثقل التل أو الكثيب وقد اهتز وارتج واضطرب، كان ذلك مسحةجمال وآية فتنة،وهو في الواقع منظر قبيح لو قدر لبشار أن كان بصيرا ورآه لأنكره واستسخفه .

ويعمد بشار إلى نفس هذا المعنى الحسي ويكرره فيقول [1] :

جِنِّيـةُ الحُسْنِ مرتـجٌ رَوَادِفُهـا
كأَنها مِنْ جَوارِي الجنَّةِ الخُلُـدِ

والذوق السليم والغزل الرقيق لا يحسن به أن يتصور أن الغيد الحسان الخالدات في الجنات ذوات أرداف مهتزة وأكفال مرتجة كأكفال البغال أو المكتنزات المتشحمات من النساء . إن بشاراً حين يعمد إلى الوصف الحسي والغزل التي يحتاج إلى عون النظر ينبو ذوقه وتختل موازين الرقة التي يحاول أن يصيغ فيها شعره ، فلنستعرض هذه الأبيات الغزلية الثلاثة لنرى كيف أن بشارا يخاطب الذوق ويحتذيه طالما كان بعيدا عن الوصف الذي يحتاج إلى النظرة ، وهو ما يتمثل في البيتين الأولين ، فإذا عمد إلى جانب الوصف الحسي أفسد ما عرض علينا من صيغ الرقة وحسن الإيقاع وهو ما تورط فيه في البيت الثالث ، إنه يقول في صاحبته عبدة [2] :

يا عَبْدَ لا تقتُلِينِي إنَّنِـي رجُلٌ
إنْ تُطْلِبِي بدمي لا تَسْبِقِي تَـارِي

---

(١) الديوان ١٤٢/٣ .
(٢) الديوان ١٦٩/٣ .

قالتْ ولا ذَنْبَ لي إنْ كنتُ جاريةً
قد خَصَّني بالجمالِ الخالقُ البارِي
فصاغنِي صيغةً نِصْفَيْن ، مِنْ ذهبٍ
نِصْفِي ، ونِصْفي كدِعْصِ الرَّملَةِ الهارِي

إنه تنافر منفر في البيت الثالث الذي جاء بعد بيتين رقيقين ، إنه تصور مريض أن تكون المحبوبة نصفها من ذهب والنصف الآخر من رمل أو تراب يترجرج ثم ينهار .

ويسفّ بشار أيضا دون أن يدري أنه يسف لأنه خلق مكفوفا ولا خبرة له بما يصف من مفاتن تحتاج إلى العين حين يقول [1] :

للهِ درُّ فتـاةٍ مِـنْ بَنِـي جُشَمٍ
مـا أَحْسَنَ العيْنَ والخدَّيْـن والنَّابَا
تُرِيكَ في القولِ جَشَّاباً وإن ضحكتْ
أَرَتْكَ مِنْ ثَغْرِها المَثْلُوجِ جَشَّابَـا
بَدا لنا منظـرٌ منهـا إذا اعْتَبَرَتْ
وشاهِدُ المسْكِ يَلْقَى الأَنْفَ ما غَابَا
قد زُيِّنَـتْ بالمحيَّا صورةً عجبـًا
وزانهـا كَفَـلٌ رابٍ ومـا عابـا

ونحن نرى أن استعمال كلمة الناب في مقام الغزل في المرأة الجميلة أمر بعيد عن الذوق،فالناب يقال في مقام الغضب والافتراس ، وهو يستعمل لفظ الجشاب وهو الندى المتساقط صباحاً كأنه المطر ولا بأس من تشبيه

(١) الديوان ٢٠٨/١ .

قول المحبوب بالندى المتساقط ولكن هناك بأس كبير في أن يكون الريق الجاري كأنه تساقط الندى واضح في فم الحبيبة إذا ضحكت، كما أنّاستعمال الأنف يوحي بوصف ناقة أو بعير أكثر من الايحاء بوصف حسناء هذا بصرف النظر عن إصرار بشار على ذكر الكفل الرابي كآية حسن ملازمة لكل امرأة يعجب بها فيتغزل فيها ويصفها .

الذي نريد أن ننتهي إليه أن العمى كان مفجّراً لشاعرية بشار خين يتصرف في قوله كمكفوف ، إنه يقدح حينئذ زناد قريحته ويعتصر خياله ويأتي بكل معجب من القول مطرب رقيق خلاب ، فكان عماه مصدرا من مصادر نبوغه في شعره وتجديده في معانيه وبراعته في تصوره ، فإذا حاد عن هذا النهج ضل وتخبط وزلج ووقع من علياء تحليقه إلى حضيض كان في غنى عنه لو ظل ملتزما طريقه سائرا في دربه .

(٤)

ملامح بارزة في حياة بشار وسلوكه :

مر بنا القول أن بشارا كان متطرفا في سلوكه وتصرفاته وحبه وكراهيته وظرفه وعنفه وعلمه وخلاعته وجهله وحكمته وشيخوخته وتهتكه وغلظته وفكاهته ، بل يمكن أن ينطبق ذلك أيضا على زندقته وإيمانه ، إن كل صفة من هذه الصفات له صدى بل أصداء في أقواله وأفعاله ، بل يمكن أن نضيف أيضا أنه كان متطرفا في بناء شعره وصوغه ، فبينما نجد القصيدة الغراء الفريدة نجد أمامها القصيدة القبيحة القميئة .

ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن بشارا شاعر كبير ، فرض نفسه على دنيا الشعر والأدب بالكثير الجيد الفريد من قوله ، وفرضه بعض المتحمسين له

من الشعوبيين النقاد حسبما مر القول قبل قليل .

لقد كان بشار أيضا بليغا في نثره كما هو بليغ في شعره ، بل إن القيرواني يذهب إلى أنه كان خطيبا شاعرا راجزا سجاعا صاحب منثور ومزدوج [1] . والحق أن لدينا من النصوص ما يشهد بصدق القيرواني صدقا جزئيا إن صح أن يجزأ الصدق ، فلدينا نصوص على شعره — وهذا أمر من البداهة بمكان — ونصوص على رجزه ونصوص على سجعه المنثور ، وأما الخطابة والمزدوج فلم يصل إلينا منهما شيء .

وبشار بالإضافة إلى ذلك شعوبي يفخر بفارسيته ويتيه بها ، ثم لا يلبث أن يعتز بولائه للعرب ولقيس بالذات التي منها بنو عقيل مواليه ، وبشار غزل فاسق في بعض شعره وهو في نفس الوقت في مرتبة عليا من الحكمة في نطاق القول ، وهو فاسد العقيدة زنديق دهرى ثنوى ثم لا نلبث أن نجد له ما يثبت أنه كان على إيمان ثابت وعقيدة سليمة ، وهو يمدح المهدي وينادمه ويجالسه مع جواريه ويقربه إليه ، ثم يهجوه هجاء مرا يدفع به إلى التهلكة . وعود على بدء ، يقول من الشعر أروعه وأرفعه شأنا ووزنا وقيمة ، ويتوسط في أكثره ، ويتدنى ويتهالك في أقله .

إن المرء يخلق ومعه طباعه وملكاته ، ولكن أحداثا بعينها في رحلة الحياة تغير من طبيعة المرء وتشكل من مسلكه ، قد تحدث هذه الأمور في أول رحلة الحياة أو في فترة اليفاع والصبا ، وقد تحدث في شرخ الشباب وسن الرجولة ، ولكنها مهما كان موقعها الزمني من حياة المرء مؤثرة فيه بقدر ، بعظم خطره أو يقل شأنه تبعا لعظم الأحداث أو خفتها ، وتبعا لموقعها وميقاتها .

وهناك في تقديرنا حدثان هامان في حياة بشار قد أثرا على مسلكه في حياته التأثير كله ، هما العمى والولادة على الرق من أصل غير عربي ،

---

(١) زهر الآداب ١/١١٠ .

لقد أثر هذان العاملان في حياته التأثير كله ، أثرا على سلوكه وعقيدته وشعره ، فكانا مصدر هدم وتدمير كما كانا مصدر خلق وإبداع .

يثقف بشار نفسه ثقافة الخاصة من أهل زمانه ويجالس واصل بن عطاء زعيم المتكلمين ويصادقه ويمدحه ثم ينقلب عليه وعلى معتقده ويحمل عليه ويهجوه .

لقد كان واصل شيخ المتكلمين وكان خطيبا بارعا إلا أنه كان قبيح نطق الراء، فكان من القدرة والبراعة بحيث يخطب الخطبة الطويلة دون أن يأتي في كلمة منها براء واحدة . لقد اجتمع عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يوم ولي العراق أعلام الخطابة والكلام وهم خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى وواصل بن عطاء وكلهم من الخطباء البلغاء وقام الواحد منهم يخطب بعد الآخر فلما جاء دور واصل بن عطاء خطب خطبة طويلة منزوعة الراء بحيث كان يتجنب كل كلمة يدخل فيها هذا الحرف ويبدلها بأخرى مماثلة لها الأمر الذي جعل بشاراً يثني عليه ويمدحه قائلا :

تكَلَّفُوا القوْلَ والأَقْوامُ قد حَفَلوا
وخَبَّروا خُطَباً ناهيكَ مـن خُطَبِ
فقـامَ مرتجِـلاً تَغْـلي بداهَتُـهُ
كمِرْجَلِ القَيْنِ لمَّـا حُفَّ باللَّهبِ
وجانَبَ الرَّاءَ لم يشعرْ بهـا أَحدٌ
قبلَ التصفح والإغراقِ في الطلبِ [1]

وتطول صحبة بشار لواصل ويكثر من مديحه في قصائد أخرى عديدة ثم لا يلبث أن ينقلب عليه ويترك التدين والاعتزال وعلم الكلام الذي كان

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٤ .

يُجيده، ويتخذ من صفة واصل وطول عنقه وسيلة لهجائه فيقول [1] :

مالِي أُشايِعُ غَزَّالاً لــهُ عُنُــقٌ
كَنِقْنِقِ الدَّوِّ إنْ ولىَّ وإنْ مَثَــلاَ
عُنْقَ الزَّرافــةِ مــا بالِــي وبالُكُمُ
أَتُكْفِرُون رجــالاً أَكْفــرُوا رَجُلاَ *

إن بشارا رغم خروجه من زمرة المتكلمين تبقى فصاحتهم في لسانه ، ويظل حسن ترتيبهم للكلام في جنانه ، إن الأصمعي يقول لبشار : يا أبا معاذ ، إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة ، يقصد قوله :

إذَا بلغَ الرأْيُ المشورةَ فاسْتَعِــنِ
برأْيِ نصيحٍ أَوْ نصيحةِ حــازِمِ
ولا تَجْعَل الشُّورَى عليكَ غَضاضَةً
فــإنَّ الخَوافِــي قُــوَّةٌ للقَــوادِمِ

وهي من عيون شعر بشار ، فيجيبه : يا أبا سعيد ، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشَارَك في وزره ، فيقول له الأصمعي وقد أخذت حكمة بشار عليه إعجابه : أنت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك [2] .

ودخل بشار على المهدي العباسي ومدحه فلم يعطه شيئا ، فقيل له لم تُجِدْ في مدحه ! فأجاب على الفور : لا والله ، لقد مدحْتُه بشعر لو

---

(١) المصدر السابق ١٦/١ .
(*) النقنق بكسر النونين ذكر النعام ، والدو والدوية والداوية الفلاة .
(٢) الأغاني ١٥٨/٣ .

قلتُ مثلَه في الدَّهر لما خِيفَ صَرْفُهُ على حُرّ ، ولكني أكْذِبُ في العمل فأكْذَبُ في الأمل [1] .

وتموت للمهدي ابنة اسمها البانوقة فيحزن عليها حزنا شديدا ويأمر ألا يحجب عنه أحد ، فيدخل الشعراء والخطباء يعزّونه ، ويدخل بشار ، فلا يقول شعرا كما قال الشعراء وإنما يقول كلاما أكثر نفاذا إلى قلب الملك المرزوء من شعر أبلغ الشعراء . يقول بشار للمهدي : يا ابن معدن الملك وثمرة العلم ، إنما الخلق للخالق ، وإنما الشكر للمنعم ، ولا بد مما هو كائن ، كتاب الله عظتنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتنا ، فأي عظة بعد كتاب الله ، وأي أسوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ مات فما أحسن الموت بعده ! [2] .

الحق أن الذي يقرأ هذا الكلام لبشار يصيبه العجب حين يقرأ أنه مات على الزندقة . ومن نفيس ما يؤثر عن بشار من كلام حكيم منثور قوله : لقد عشت في زمان وأدركت أقواما لو احتفلت الدنيا ما تجملت إلا بهم ، وإني الآن لفي زمان ما أرى فيه عاقلا حصيفا ، ولا فاتكا ظريفا ، ولا ناسكا عفيفا ، ولا جوادا شريفا ، ولا خادما نظيفا ، ولا جليسا خفيفا ، ولا من يساوي على الخبرة رغيفا . ثم ختم هذه الأسماع العذبة ببيت من الشعر عميق أسيف :

فما الناسُ بالناسِ الذين عرفْتُهُمْ
ولا الدَّارُ بالدارِ التِّي كنتُ أَعْرِفُ

إن مثل هذا القول المرتب ، العميق المعاني ، المنثور كحبات اللؤلؤ ، المسجوع كأنغام القيثار ، غير مستغرب من بشار ، فله من الثقافة ما يمده

---

(١) زهر الآداب ٦٣٣/٢ .
(٢) تاريخ بغداد ١١٨/٧ .

بالمعاني الرقيقة العميقة، وله من البلاغة ما يرفده بمختار اللفظ وأنيقه، وله من الملكة ما يفيض عليه من رقيق الأسجاع، وله من البديهة ما يسعفه بالطريف غير المبتذل والنفيس غير المعاد.

بين الشعوبية والولاء للعرب :

ملمح آخر من الملامح الصارخة في حياة بشار من حيث العصبية، هل كان شعوبيا حقا، متعصبا للفرس متحاملا على العرب ؟ لعله من الحكمة قبل أن نخوض في هذا الموضوع أن نستحضر نقطتي الضعف عنده وهما كفّ البصر والميلاد على العبودية، وهما الآفتان اللتان أسهمتا في حدة مزاج بشار فأبعدتاه عن القصد ونأيتا به عن التوسط في الأمور ووضعتاه في الطرف دائما، سواء أكان هذا الطرف أقصى اليمين أو أقصى اليسار، وإلا فبماذا نفسر فخره بالفرس إلى الدرجة التي يحط فيها من قدر العرب، ثم نجده من الناحية الأخرى يفخر بالعرب وبمضر وقيس بصفة خاصة فخرا ربما لم يرتفع إلى مستواه فيه شاعر آخر ؟ هل هي من قبيل – يعطى ويمنح لا بخلا ولا كرما ؟ – هواجس بغير دافع وسهام بغير أهداف، إنه لوجاز هذا التعليل بالنسبة إلى شاعر آخر فإنه لا يجوز بالنسبة إلى بشار، ولكنه التطرف بين السخط والرضى والإيمان والإنكار والحب والكراهية، إنه مسار بشار ونهج حياته يسم به شعره ويصدر به عن بنات أفكاره إلى آخر أيام عمره.

يحكى بشار أنه لما دخل على المهدي قال له : بمن تعتدّ يا بشار ؟ فأجابه : أما اللسان والزي فعربيان، وأما الأصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

ونُبِّئْتُ قوماً لهمْ جِنَّةً
يقولون : مَنْ ذَا ؟ وكنتُ العَلَم

ألا أيُّهـا السَّائِلـي جَـاهـلاً
لِيَعْرِفَنِـي أنـا أَنْـفُ الكـرَمْ
نَمَـتْ في الكـرامِ بَنِـي عامـرٍ
فُرُوعي ، وأَصْلِي قُرَيْشُ العجـمْ
وإني لأُغْنِـي مقـامَ الفـتى
وأُصْبِي الفَتَـاةَ فـلا تَعْتَصِمْ (١)

ولا تثريب على بشار في فخره هذا الجميل، فقد أجرى موازنة جميلة بين منتماه في الكرام من بني عامر والكرام من رهطه الأعجمي الذين شبههم لشرف مقدارهم بين الفرس بقريش شريفة القدر بين العرب .

على أن فخر بشار بهذه الأبيات لم يكن رأس قصيدة بعينها أو هدفا استهدفه في قولة فخار ، وإنما هي أبيات من قصيدة جميلة قيلت في مدح ابن أبي العلاء يقول فيها :

فتـىً لا يَبِيـتُ عـلى دِمْنَـةٍ
ولا يَلْعَقُ الشَّهْدَ إلاَّ بِسَـمّ (٢)

على أنه لا المديح ولا الفخر هما أرق ما في القصيدة ، ولكن أبدع ما فيها هو الغزل المتمشي في أعطاف أبياتها بحيث يحتاج إلى وقفة معه في موضع آخر من هذا الحديث .

إن بشارا وهو يفخر بفارسيته أمام المهدي اختار أبياتا معتدلة ربما كانت هي الموحية فيما بعد للشاعر الشعوبي مهيار الديلمي في قوله :

قد ورثتُ المجدَ عـن خيـرِ أَبِ وقبستُ الدِّيـ ـنَ عـن خيرِ نَبِي

(١) الأغاني ١٣٨/٣ وزهر الآداب ٤٢٢/١ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ٣٠ .

على أن بشارا ينفلت من ولائه للعرب درجة ، ويربط هذا الولاء بمولى الجميع من عرب وعجم وملك الملوك في شرق وغرب ، فيقول مخاطبا نفسه زائحا عن كاهله كل عبء ولاء إلا لله فيقول هذه الأبيات العميقة المعاني البعيدة الأهداف [1] .

أَصْبَحْتَ مولى ذِي الجلالِ وبعضُهُمْ
مولى العُرَيْبِ فَخُذْ بفضْلِكِ فافْخَرِ
مولاكَ أكـرمُ مـن تمـيمٍ كُلِّهـا
أهلِ الفِعَالِ ومِنْ قُرَيْشِ المشْعَـرِ
فارجـعْ إلى مـولاكَ غيـرَ مُدَافَعَ
سبحـانَ مـولاكَ الأَجـلِّ الأَكْبَرِ

وبشار هنا رغم محاولة الانفلات من سيادة العرب يبدو مهذبا معهم غير متحامل عليهم معلنا بعض فضائلهم ، فتميم أهل فعال وقريش حارسة المشعر الحرام ، ومن ثم فهو يهوم في أبياته وكأنما ينطلق في رحاب شفافية هي أقرب إلى معارج الصوفية منها إلى مسالك الشعراء .

على أن لبشار رائية في الفخر بفارسيته وتبرير عبوديته التي جاءت نتيجة لأسره، والأسر لا يعيب، فكم من عظماء الرجال وقعوا أسارى في الحرب ، ثم يحمل على العرب حملة شعواء ويهجوهم هجاء فاحشا بأسلوب لم يتوفر لغير بشار . يقول بشار : [2]

سأُخْبِرُ فاخِرَ الأَعْـراب عنِّي وعنهُ حين بـارَزَ للفخارِ

---

(١) الأغاني ١٣٩/٣ والديوان ٦٢/٤ .
(٢) الديوان ٢٢٩/٣ وما بعدها .

أنا ابنُ الأكرمين أبـاً وأمـاً ... تَنَازَعَنِـي المرازبُ مـن طُخَارِ
نُغَاذَى الدِّرْمَكَ المنفُوطَ عِـزًّا ... ونشرب في اللُّجَيْنِ وفي النُّضَارِ
ونَرْكَبُ في الفَرِيدِ إلى النَّدامَى ... وفي الديباجِ للحرْبِ الحِبَارِ
أُسِرْتُ وكمْ تقدَّمَ مـن أسيـرٍ ... يُزَيِّنُ وجهُـهُ عَقْـدَ الإسارِ
ككَعْبٍ أو كبِسْطَامِ بـن قيْسٍ ... أُصيبَـا ثم مـا دَنِسَا بِعَـارِ
فكيفَ ينالُني مـا لـمْ يَنَلْهُـمْ ... أَعِدْ نظراً فإنَّ الحقَّ عارِي
إذَا انْقَلَبَ الزمـانُ عـلا بِعَبْدٍ ... وسَفَّل بالبطارِيـق الكبـارِ *

على أن الأمر لا يقف ببشار عند هذا الفخر القوي بفارسيته إلى درجة من الحرارة والحمى ، ولكنه يمضي فيحمل على العرب حملة شعواء ، وإذا أردنا الدقة والصدق ، يحمل على الأعراب حملة كلها قسوة وازدراء وتجريح وتحقير ، فيقول موجها كلامه إلى الأعرابي الذي عناه بهذا القول [٢] .

أَحِينَ لَبِسْتَ بعـد العُـرْيِ خَزًّا
ونادمْـتَ الكـرامَ عـلى العُقَـارِ
ونلـتَ مـن الشبـارِقِ والقَلاَيَـا
وأُعْطِيـتَ البَنَفْسَجَ فـي الخُمَـارِ
تفاخِـرُ يـا ابْـنَ راعيـةٍ وراعٍ
بَني الأحرارِ ؟ حَسْبُكَ مِنْ خسارِ

---

(١) المرازب جمع مرزبان وهو الرئيس من الفرس، وطخار هي طخارستان مدينة أجداد بشار . نغاذي أي نغذي ونطعم ونأكل ، الدرمك السميذ ، المنفوط أي المطبوخ ، اللجين والنضار أي الفضة والذهب وهذا كناية عن الغنى والرفاهية . الفريد الفضة المصنوعة ، الحبار ضرب من برود الحرير كانت تصنع في اليمن . كعب هو كعب بن زهير بن جشم التغلبي، وبسطام بن قيس هو فارس بكر بن وائل وكلاهما أسر في الحرب وفدى نفسه . البطاريق قادة الجيوش عند الروم .

(٢) الديوان ٣/٢٣٠ – ٢٣٢ .

لَعَمْـرِ أَبِي لَقَدْ بُدِّلْـــتَ عيْشاً
بعَيْشِكَ والأُمـورُ إلى مجـــارِي
وكُنْـــتَ إذا ظمِئْـــتَ إلى قَـــرَاحٍ
شَرِكْـــتَ الكلبَ في ذاكَ الإطـــارِ
وتَقْضِمُ هامـــة الجُعْـــلِ المصَـــلىً
ولا تُعْنـــى بِـــدُرَّاجِ الدِّيـــــارِ
وتُدْلِـــجُ للقنافِـــذِ تَدَّرِيهـــا
ويُنْسِيكَ المكـــارِمَ صيْـــدُ فـــارِ
وتَغْبِـــط شاوِيَ الحِرْبـــاءِ حـــتى
تروحَ إليـــه مِن حُـــبِّ القُتَـــارِ
وتَغْـــدُو فـــي الكِـــرَاءِ لنَيـــلِ زادٍ
وليس بسيِّدِ القـــومِ المُكارِي *

إن الذي ينظر في هذه الأبيات يجد فيها من التعريض بالعرب أو بطائفة منهم ما ينال من كرامتهم ويحط من مروءتهم ، وبالتالي يكون قائل هذا الشعر وهو بشار قد بلغ درجة من عدائه الصريح للعرب لم يصل إليها ولم يجرؤ عليها شاعر في مثل مرتبته ، مدين للعرب بشهرته ومجده وبيانه ، ومن ثم يكون من الشعوبية في درجة تسمه بعداء أبدي للعرب .

---

(١) الخز الحرير ، العقار الخمر . الشبارق جمع شبرق بفتح الشين وهو الثوب المقطع ، القلايا جمع قلية وهي اللحم المقلي ، الخمار صداع يعتري شارب الخمر يداوى بشراب البنفسج ، والمقصود أن هذا البدوي انتقل من البداوة إلى الترف والحضارة . القراح الماء ، والمقصود بالإطار حوض الماء ، الجعل خنفساء سوداء تعيش على روث البهائم ، المصلى اسم مفعول من صلاه يعني شواه ، الدراج طائر داجن يربى في البيوت ويأكله المترفون . تدلج تسير ليلا ، تدريها تختلها لتصيدها بالحيلة . تغبط نحسد ، القتار ريح الشواء .

ولكن المتتبع لسبب قول القصيدة أو المناسبة التي قيلت من أجلها لا يلبث أن يلتمس العذر لبشار ، ويعرف أن بشارا لم يقصد إهانة العرب قصدا ، وإنما هو يرد على جلف تحرش به بغير سبب ، ونال من كرامته لغير ما داع إلا غرور وصلف وإلا أن بشارا مولى وليس بعربي صريح ، وعلى قدر علمنا بشعر بشار واستعراضنا كل ما وقع تحت أيدينا منه لم نقع له على قصيدة تنال من العرب هذا النيل إلا هذه القصيدة بالرغم من أن له قصائد أخرى يفخر فيها بفارسيته ، وأما سبب قولها فيما يقول أبو الفرج [1] ، فإن أعرابيا دخل على مَجْزَأة بن ثور السدوسي وعنده بشار – ولبشار ولاء في السدوسيين – وعليه بزة الشعراء ، فقال الأعرابي : مَنْ الرجل ؟ فقيل له : شاعر ، فقال : أمولي هو أم عربي ؟ قيل له : بل مولي ، فقال الأعرابي مستخفا : وما للموالي وللشعر ؟ فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال لمجزأة : أتأذن لي يا أبا ثور ؟ فقال له : قل ما شئت يا أبا معاذ ، فأنشأ بشار في حمى غضبه هذه القصيدة النارية التي أنشدها تحت وطأة هذه المناسبة المهينة ثأرا لكرامته ونيلا من أعرابي يعتدي على الناس لغير ما سبب يدعو إلى الاعتداء، ويستهين بهم لغير ما داع إلى الاستهانة، فكان ما سمع من قول غير كريم لم يصبه وحده ولكن أصاب العرب جميعا شأن الولد الذي لا يحسن أهله تربيته فيستجلب اللعنة من الناس عليهم جميعا .

فبشار قال هذه القصيدة ثأرا لإهانة ودفعا لأذى وردًّا على اعتداء ، وبرغم أن الشعوبيين من خصوم العرب رحبوا بها ووضعوا بشارا بسببها ولأسباب أخرى على مسرح الأضواء، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن بشارا لم يقلها حقدا على العرب ولا كراهية لهم ، وإلا لتكرر قوله في الشأن ، ولما قال من عيون الشعر في مدح العرب ورفعة شأنهم ما قال من قصائد رائعة بليغة تعتبر من عيون الكلام .

---

(١) الأغاني ٣/١٦٦ .

لقد كان بشار في طرف الغضب حين قال هجائيته تلك التي مر ذكرها ، فإذا مدح العرب وافتخر بولائه فيهم كان في طرف الرضى والحماس ، ذلك أنه كما سبق أن كررنا حادّ الطبع سريع تقلب المزاج .

إن بشارا يمدح قيسا ومضرا في رائيته المشهورة التي يسميها ابن المعتز رائيته العجيبة [1] ، التي بلغت أربعة وسبعين بيتا كلها عيون بمثل ما لم تمدح به قبيلة من قبل، ويفخر بها على طريقة عمرو بن كلثوم ونهجه حين فخر بقومه تغلب في معلقته المشهورة ، ويضمّن بشار قصيدته هذه من فنون الغزل ما يشوقنا به إلى عفة جرير وعذرية جميل وصبابة المجنون ، ومن المعاني المبتكرة الفريدة المستوحاة من ضرره ما قد ذكرنا بعضا منها ، وما قد نعود إليه في مقام الحديث عند غزل بشار ، أما ونحن نتحدث عن صلة بشار بالعرب وولائه فيهم وفخره بهم فلنستمع [2] :

أَمِنْتُ مضرَّةَ الفحشاءِ إنـي
أرى قيْساً تَضـر ولا تُضـارُ

لقد علـم القبائـل غيـرَ فخـرٍ
عـلى أَحَدٍ وإن كـان افتخـار

بـأَنَّا العاصمون إذا اشْتَجَرنـا
وأَنَّـا الحازمـون إذا استَشَـاروا

ضَمِنَّـا بَيْعَـةَ الخلفـاءِ فينـا
فنحـنُ لها من الخلفـاءِ جـارُ

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٩ .

(٢) الديوان ٣/٢٤٧ – ٢٥٧ .

بحيٌ مـن بـني عَجْلاَنَ شُـوسٍ
يسيـرُ المـوتُ حيث يُقال ساروا
إذا زخَرتْ لنـا مُضَـرٌ وسارتْ
ربيعـةْ ثمَّـت اجتمعـتْ نِـزار
أقـام الغابـرون عـلى هوانـا
وإن رَغِمتْ أنوفُهُـمُ وسـاروا
تَبـغٌ جِوارَنـا إن خفـتَ أزًّا
نُجِيـرُ الخائفيـن ولا نُجَـارُ
لنـا بطحـاءُ مكـة والمصَلـى
ومـا حـاز المحَصَّـبُ والجِمـارُ
وساقيةُ الحجيـجِ إذا توافـوْا
ومُبْتَـدرُ المواقـفِ والنِّفـار
وميـراث النبـيِّ وصاحبيْـهِ
تِـلاداً لا يُبـاعُ ولا يُعـارُ
وألـواحُ السَّريـر ومَـنْ تنمـىً
على ألواحِـهِ تلـك الخِيـارُ
كأنَّ الناسَ حيـنَ تغيـبُ عنهمْ
نبـاتُ الأرضِ أخلَفَهـا القِطـارُ

والحق أن هذا القدر من القصيدة لا يغني عن قراءتها ، فهي غزلية سياسية فخرية تاريخية صيغت في هذا الثوب من الفحولة وهذا النهج من الإيقاع الجميل ، وهي واحدة من أشهر قصائد بشار ، ومهما قيل في رقة غزلها وخطر

المذهب السياسي الأموي المنبث فيها من أولها إلى آخرها ، فقد كان بشار أموي الهوى كما هو معروف ، فإن المعاني الفخرية المنساحة على مدرج القصيدة حتى آخرها من أرفع درجات الفخر بنزار وما تفرع منها من قبائل .

ثمت أبيات أخرى يفخر فيها بشار بولائه العربي ، وهي الأخرى من أشهر قصائده وأجملها وأشهرها وأروعها ، إنها القصيدة البائية المشهورة التي أذاع شهرتها بيتها :

كأنَّ مُثَارَ النَّقْـعِ فـوق رءُوسِنا
وأسْيَافنـا ليـل تَهـاوَى كَواكِبُهْ

إن بشارا يفتخر بقيس عيلان مواليه في هذه القصيدة الذائعة الصيت ببراعة صوغها ورقة معانيها وفخامة بنائها ، فضلا عن أبيات الحكمة العميقة التي توشيها كما توشي خيوط الذهب الثوب النفيس ، ولنا مع أبيات الحكمة هذه وقفة قادمة ، وأما مجال حديثنا هنا فهو حديث فخر بشار بالعرب وبقيس عيـلان بذاتها . إن الشاعر ينهج الخطوات التقليدية التي يسلكها الشعراء في قصائد المديح من نسيب ورحلة إلى الممدوح ووصف الرحلة والراحلة ، يفعل كل ذلك لكي يصل إلى ممدوحه مروان بن محمد ولكي يلقي بني عيلان أهل الفعال والفضائل [1] :

لأُلْقى بني عَيْـلانَ إنَّ فَعَالَهـم
تزيـدُ عـلى كلِّ الفَعال مراتِبُهْ
أُلاكَ الأُلَى شَقُّوا العمَى بسيوفِهِـمْ
عن الغَيِّ حتى أبصرَ الحقَّ طالِبُهْ

(١) الديوان ١/٣٠٦ – ٣٢٣ ، ووردت بعض مقطوعات من القصيدة في الأغاني ٣/٣٣٦، ٣٣٧ ، وطبقات ابن المعتز ص ٢٧ ، ٢٨ .

إذا ركبـوا بالمشْرَفِيَّـةِ والقَنَـا
وأصبـح مـروانُ تُعـدُّ مواكبُهْ
فأَيُّ امرىءٍ عاصٍ وأَيُّ قبيلـةٍ
وأَرعـنَ لا تبكِـي عليـه قرائِبُهْ
أَحلَّتْ بـه أُمُّ المنايـا بناتِهـا
بأَسْيَافِنَا ، إنَّا رَدَى مَنْ نحاربُهْ
ومـا زالَ مِنَّـا مُمْسِكٌ بمدينـةٍ
يراقِبُ أَوْ ثغـرٍ تُخَـافُ مَرَازِبُـهْ
إذَا الملكُ الجبَّارُ صَعَّـرَ خـدَّهُ
مشَيْنَـا إليـه بالسُّيُوفِ نُعَاتِبُـهْ

ويمضي بشار في نشوة هذا الفخر الذي يبلغ من الغلو درجة جاهلية يضع به مواليه العرب من قيس عيلان في أرفع مقام من الشجاعة والبأس والإقدام والجبروت، بل هو يصفهم وصفا مبالغا فيه بحيث يكاد يجعل منهم دولة ذات سيادة وجيش كثيف يحجب ضياء الشمس فيقلب النهار ليلا، يسود جوانب الأرض ويملأ الفضاء ويزلزل الجبال :

وكُنَّـا إذَا دَبَّ العـدوُّ لسُخْطِنَـا
وراقَبْنَـا فـي ظاهـرٍ لا نُرَاقِبُـهْ
ركِبْنَـا لـهُ جَهْـراً بكلِّ مُثَقَّفٍ
وأَبيضَ تَسْتَسْقِي الدماءَ مضاربُـهْ

(*) بني عيلان هم قيس عيلان . المشرفية السيوف ، القنا الرماح . الأرعن الجيش العظيم ولكن المقصود هنا بالأرعن هو الشخص الأحمق . الردى الهلاك . المرازب جمع مرزبان وهو الرئيس . صعر خده أي أماله عن وجهة الناس والنظر إليهم تهاونا بهم واستكبارا .

وجيْشٍ كجُنْحِ الليلِ يَرْجِفُ بالحصى
وبالشَّوْل والخَطِّيِّ حُمْرٌ ثعالبُـهْ

غَدَوْنـا لهُ والشَّمْسُ في خِـدْر أُمِّها
تُطَالِعُنَا والطَّلُّ لم يَجْـرِ ذَائِبُـهْ

بضربٍ يذوقُ الموتَ مَنْ ذاق طعْمَهُ
وتُدْرِكُ مَنْ نَجَّى الفِـرارُ مثالبُـهْ

كأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فـوق رءُوسِنَـا
وأَسْيافَنَا ليـلٌ تَهـاوَى كواكبُـهْ

بعثْنَـا لهـم موْتَ الفُجَاءَةِ إِننـا
بَنُو المُلْكِ خفَّاقٌ علينا سَبَائِبُهْ

فراحـوا فريقـاً في الإسارِ ومثلُه
قتيلٌ ومثلٌ لاذَ بالبحـرِ هارِبُـهْ

وأَرْعَنَ يَغْشَ الشمسَ لـونُ حديده
وتَخْلِسُ أَبْصَـارَ الكُمـاةِ كتائِبُهْ

تُغَصُّ بهِ الأَرضُ الفضَاءُ، إِذَا غدَا
تُزَاحِم أَرْكانَ الجبالِ مناكِبُهْ

(*) لا نراقبه أي لا نراقب العدو استهانة بشأنه، المثقف الرمح المقوم ، الأبيض السيف . يرجف من الرجيف وهو الدوي وصوت الرعد ، الخطي الرمح ، الثعالب هنا بمعنى أطراف الرماح . النقع غبار الحرب . السبائب جمع سبيبة وهي طرف الثوب أراد بها الشاعر الرايات . لاذ بالبحر هاربه قصد به الشاعر الذين لاذوا بالفرار من نهر الفرات. الأرعن هنا بمعنى الجيش الكثيف العدد .

إن المتأمل في هذا الفخر المسرف في الغلو ، والزهو الضارب إلى المبالغة ، ويقرن ضروب القوة التي مـــلأت حواشي هذه القصيدة ، بمنازع العزة التي انطلقت من الرائية السابقة ، ثم يجري مقارنة بينهما وبين ما قال صاحبهما وهو بشار في الأبيات التي حمل فيها على العرب تحت ظروف استفزته ودفعت به إلى الثأر لكرامته ، يتردد كثيرا في أن يضم بشارا إلى قافلة الشعوبيين الذين قبحت أقوالهم ، وساءت أفعالهم في حق العرب ، فاستحقوا ألاّ يذكروا بخير وألا تقرن سيرتهم إلا بنكر وضرّ .

بشار بين فسق القول واصطناع الحكمة :

فرق شاسع وشأو بعيد بين القول الفاسق والقول الحكيم ، هما طرفا نقيض كالنار والماء وكالريح والتراب ، ولكن بشارا الذي عرف بالتطرف في كل قول وعمل واعتقاد قد جمع بينهما ، فبينا هو يقول من الشعر ما يخجل من سماعه الرجال وينخدش منه حياء العذارى ، نراه يصطنع من أقوال الحكمة ما يجري على ألسنة الناس إعجابا وتمثلا واستشهادا ، لقد مر بنا القول ونحن نحلل شخصية بشار أنطبيعة تكوينه قد دفعتبه دفعا إلى التطرف وحدة المزاج والجمع بين المتباعدين والخلط بين النقيضين ، ولكن في مجال الجمع بين الفحش في القول واصطناع الحكمة فيه ينبغي أن نضيف تعليلات أخرى لهذه الظاهرة الغريبة البادية الوضوح عند بشار ، ذلك أن بشارا صورة منطقية لمجتمع البصرة الذي جمع هو الآخر بين النقيضين .

إن البصرة قد حوت أخلاطا متباينة من الناس وأشتاتا متفاوتة من البشر وحيثما اختلط الحابل بالنابل ضاعت القيم وانحسرت ظلال الفضيلة . والبصرة كانت سوقا للجواري ومستودعا للرقيق ومجمعا للقيان ، وكانت دور القَيّانين مرتادا لطالبي اللذة ومنتجعا للباحثين عن المتع غير الحلال ، وفي البصرة سوق

للخلاعة ومراتع للانحراف ومنابت للزندقة حتى إن أكثر الخلعاء وجلّ الزنادقة قد عاشوا في البصرة وارتبطوا بها بشكل أو بآخر من أمثال حماد عجرد وأبي الشمقمق وسلم الخاسر ووالبة بن الحباب وأبي نواس وصالح بن عبد القدوس وغيرهم وغيرهم ممن يستعصون على الحصر حتى إن المهدي العباسي جعل لهم جلادا اسمه عبد الجبار وسماه صاحب الزنادقة [1] . إنّ الخلاعة والانحراف والتحلل أولى الخطوات إلى الزندقة والمجاهرة بالفاحشة بداية الطريق إليها. والبصرة منذ نشأتها حفلت بالوافدين من الفرس الذين حملوا معهم أثقالا من العادات القبيحة وأوزارا من العقائد الدنسة لم يكن يسمح بها الخلق الإسلامي ، ففرضت نفسها على هذا المجتمع وألقت عليه بكل أثقالها العفنة فأشاعت فيه التفسخ ورمت به في أحضان الفساد ، والبصرة وريثة الطرب والغناء والشراب الذي كان شائعا في مكة والمدينة ، ثم ما لبث أن انتقل إليها متخليا عن سمات الحشمة أو الاحتياط التي كان يوجبها طبيعة السلوك العام في المدينتين الحجازيتين ، فلما صار الأمر إلى البصرة أصبحت بيوت القيان مذبحا للفضيلة بعد أن كانت محجة للفضلاء في الحجاز عند جميلة وعزة الميلاء. وكانت البصرة مدينة المواخير ودكاكين الخمر ، وما خطبة زياد بن أبيه وما حوت من وصف لحالها وتهديد لأهلها ببعيدة المعاني عنا. وفي نساء البصرة آنذاك خلاعة وجرأة ، يرددن الشعر الخليع ويسمحن لأنفسهن أن يترددن على أماكن الشبهات ويخالطن الرجال حتى إن شاعرا مثل بشار بسمعته وفجره ولسانه الذي كان يخشاه الرجال ، كان يستقبل العديد من النساء في بيته مرتين في الاسبوع لكي يستمعن إلى شعره ، وإذا كان بشار هو من عرفنا انحرافا ونزوعا إلى الجري وراء الشهوات فلا ننتظر منه أن يكون مكرسا شعره للفضيلة نازعا به إلى العفة ، لقد كان بشار ينزل بمستوى شعره من حيث اللفظ والمعنى ، لا من حيث الرقة والإيقاع ، بحيث يخلب قلوب الشباب من رجال ونساء فانتشر بين الناس انتشارا واسعا حتى إن أبا الفرج يقول على لسان أحد رواته : عهدي بالبصرة

---

(١) الأغاني ٣/٢٤٧ .

وليس فيها غزل ولا غزالة إلا يروي من شعر بشار ، ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب به ، ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه [1] ، وكان بشار يدس في هذا اللون من الشعر السموم التي تدغدغ الغرائز وتتهم الحرائر وتحطم معاني العفة عند المحصنات إلى المدى الذي جعل مالك بن دينار يقول : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من شعر هذا الأعمى [2]

والحق أن قدرا كبيرا من شعر بشار كان يحض على الفساد ويشجع الدعوة إلى الانحلال ويدعو إلى مخاطبة الغرائز البهيمية في الناس بحيث أضاف معول هدم إلى مجتمع لم يكن في حاجة إلى مزيد من أدوات الهدم ، وليس كل الشعر الذي قاله بشار في هذا الغرض غير النظيف مما تسمح بتَرديده طبيعة هذا الكتاب ، ولكننا سنورد بعض الأمثلة التي لا تمعن في خدش الحياء او لا تصيب منه مقتلا .

يدعو بشار إلى الجرأة في الهجوم على الملذات ويدعو إلى عدم الاهتمام بالناس أو إقامة أي وزن أو اعتبار للقيم فيقول [3]

لا خَيْرَ في العيشِ إنْ كُنَّا كذا أَبداً
لا نَلْتَقِي وسبيلُ المُلْتَقَى نَهَجُ(*)
قالوا حرامٌ تلاقِينَا فقلتُ لهمْ
ما في التَّلاقِي ولا في قُبْلَةٍ حَرَجُ
مَنْ راقبَ الناسَ لم يظفر بحاجتِهِ
وفازَ بالطيِّبَاتِ الفاتكُ اللَّهِجُ

---

(١) الأغاني ٣/١٤٩ .
(٢) الأغاني ٣/١٨٢ .
(٣) الأغاني ٣/٢٠٠ .
(*) نهج أي واضح بيِّن.

ويعمد بشار في إحدى قصائده الشيطانية إلى مخاطبة الغريزة عند الفتيات الغريرات ، وكان يعرف أنهن يحفظن شعره حيث يحتلن على جلبه بمختلف الطرق ، يقول بشار وقد ذهب إلى تشجيع الإباحية عند الصبايا واللعب بغرائزهن : (١)

عَجِبَتْ فَطْمَـةُ مِـنْ نعتِـي لهـا
هلْ يُجِيدُ النَّعْتَ مكفوفُ البصرْ
بنتُ عشرٍ وثـلاثٍ قُسِّمـتْ
بيـن غُصْـنٍ وكثِيـبٍ وقَمَـرْ
درةٌ بَحْرِيَّـةٌ مكنونـةٌ
مَازَهَا التاجـرُ مـن بيْنِ الـدُّرَرْ
أَذْرَتِ الدمـعَ وقالـتْ وَيْلَتِـي
مِنْ وَلوعِ الكـفِّ رَكَّابِ الخطَـرْ
أَمَتِي بَـدَّدَ هـذا لُعَبِـي
ووشاحـي حلَّـهُ حـتى انْتَثَـرْ
فدعينِـي معـهُ يـا أَمَتِـي
عَلَّنَـا في خلوةٍ نقضِـي الوطَـرْ

ولا يقف الأمر بشعر بشار عند هذا الانحراف الاجتماعي وجلد الصبايا بسوط لا يرحم من لفت أنظارهن إلى ما ينبغي صرفهن عنه بوسائل القول المهذب الذي يجنبهن فترة الخطر في مرحلة صباهن الباكرة، وإنما يعرج على الحرائر فينال من قدرتهن على دفع الانحراف ويشكك طلاّب اللذة والإثم

(١) زهر الآداب ٤١٨/١ .

في مقدرة المحصنات على الاحتفاظ بعفتهن، فيدعو إلى الفحشاء وينال من الحرائر والطاهرات من نساء زمانه وزمان غيره في قوله :

قاسِ الهمومَ تنلْ بها نُجْحَا ... والليلُ إنَّ وراءَهُ صبْحَا
لا يُؤْيِسَنَّكَ من مخبأةٍ ... قولٌ تُغَلِّظُهُ وإنْ جَرَحَا
عُسْرُ النِّساء إلى مياسرةٍ ... والصعبُ يمكنُ بعدَما جَمَحَا

لقد ضج شرفاء مجتمع العراق من هذا اللون من الشعر الفاجر ، وثار المصلحون من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار وسوار بن عبدالله ويزيد بن منصور الحميري خال المهدي ، حتى اضطر المهدي إلى أن يأمر ببشار فيحضر أمامه ، ووجه إليه من الشتائم ما لا يتوقع خروجه من فم أمير المؤمنين ، إنه يقول لبشار تعليقا على أبياته السابقة : تلك أمك يا كذا ... أتحضّ الناس على الفجور وتقذف المحصنات المخبآت ؟ والله لئن قلت بعد هذا بيتا واحدا في نسيب لآتين على روحك .[1] وهكذا أقلع بشار مرغما عن قول النسيب وكان بعد هذا التهديد يتحايل بأساليب شتى لإنشاد بعض الأبيات الغزلية في مجال الاعتذار أو المديح ، وربما كانت هذه الأبيات ومثيلاتها بالإضافة إلى اتهامات أخرى هي التي جعلت المهدي ينهي حياة بشار جلدا بالسياط ، إن بشارا في هذا الانحراف الشديد من القول الماجن كان ضحية لمجتمعه ، على أن شعره الغزلي الذي لم يخرج فيه عن المألوف—وقد مر بنا طرف منه — يعتبر من أرق شعر الغزليين .

هذا ما كان من أمر أحد الطرفين المتناقضين اللذين وقف بشار على رأسهما واللذين أسهم في كل منهما بقدر ، فلنستعرض الطرف الثاني وهو قول الحكمة ، وإذا كان هذا الغزل الذي ذكرنا رخيصا كل الرخص والذي لم

---

(١) الأغاني ٣/٢٤١ .

نذكره فاجرا كل الفجر، فإن الحكمة التي قالها بشّار نفيسة كل النفاسة قيمة كل القيمة .

وبشار في مجال قول الحكمة يعتبر أيضا صورة لجانب من مجتمعه وأعني به مجتمع البصرة . ذلك أنه مجتمع التطرف والاندفاع ، فإذا كان من أمر تفككه ما ذكرنا فقد كان أيضا مجتمعا يضم العلماء والمفكرين والوعاظ والقصاص والنحاة واللغويين ، إن البصرة بلدة كبير علماء زمانه الحسن البصري ، وهي مسرح النشاط الفكري للمعتزلة وعلى رأسهم واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وابراهيم النظام والجاحظ فيما بعد وأبو هذيل العلاف ، ومن النحاة سيبويه ومن الرواة الاصمعي ، ومن الفقهاء هلال بن يحيى المعروف بهلال الرأي .

لقد عاش بشار في هذا المجتمع الفكري الرفيع وعده صاحب الأغاني من رجال المعتزلة وأصحاب الكلام الستة ، وهم على ترتيب ذكرهم : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء وجرير بن حازم [1] ، وقد انحرف عدد من هؤلاء الذين ذكرنا ولقي ثلاثة منهم مصيره قتلا بتهمة الانحراف ، وهم عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي كان فاسق العقيدة ، وصالح بن عبد القدوس الذي ضرب بالسيف على رغم كبر سنه ، وبشار الذي جلد حتى مات وقد نيف على السبعين ، واختلف في أمر الأخيرين وهل ماتا على الزندقة حقيقة أم أنها كانت تهمة سياسية الأصل والمقصد .

ومهما كان الأمر فإن مشاركة بشار في علم الكلام لا بد أن تجري الحكمة على لسانه فتنسجها شاعريته نسجا أنيقا وتقدمها للناس في إطار رقيق من رشيق اللفظ وناصع البيان .

والحكمة تجري على لسان بشار مختلفة الألوان متعددة الموضوعات متنوعة

---

(١) الأغاني ٣/١٤٦ ، ١٤٧ .

الأهداف مرتبطة كلها بأحداث الحياة وصروف الزمان وعلاقة الناس بعضهم ببعض في نطاق الصلات الشخصية والرغائب والحرمان والتمنيات . يقول بشار معبرا عن طمع الناس في الممنوع : (١)

قد أُذرِكُ الحاجةَ ممنوعةً
وتُولَعُ النفسُ بما لا تَنَالْ
والهمُّ ـ ما أَمْسَكْتَهُ في الحَشَا ـ
داءٌ وبعضُ الداءِ لا يُسْتَقالْ
فاحْتَمِلِ الهمَّ على عاتقٍ
إنْ لم تُساعدْكَ العَلَنْدَى الْجُلَالْ(*)

ويصطنع بشار الحكمة ويجعلها سبيلا إلى التعامل مع الناس ودستورا لروح التسامح بين الأصدقاء ويصوغها في هذا الإطار النفيس من الشعر العذب الإيقاع في قوله :

إذَا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتِباً
صديقَكَ لم تَلْقَ الذي لا تُعَاتِبُهْ
فعِشْ واحداً أَوْ صِلْ أخاكَ فإنهُ
مُقَارفُ ذَنْباً مرةً ومُجَانِبُهْ
إذَا أنتَ لم تَشْرَبْ مراراً على القَذَى
ظَمِئْتَ وأيُّ الناسِ تصفُو مشارِبُهْ

لقد كان أسحاق الموصلي من الذين يعيبون شعر بشار ، وكان يتحمس

---

(١) أمالي المرتضى ١٣٧/٢ .

(*) العلندى الجمل القوي ، الجلال بضم الجيم العظيم .

لمروان بن أبي حفصة ويذكر أن كلام بشار مختلف لا يشبه بعضه بعضا ، فلما قيل له : أتقول ذلك فيمن يقول ، إذا كنت في كل الأمور معاتبا .... الأبيات ، سكت [1]

والناس في شكوى أبدية من الزمان ، إنهم يعتبون دائما عليه ، وهو على سنة الحياة لا يرضيهم ، وإن أرضى القلة أسخط الكثرة ، وبشار واحد من هؤلاء الذين يتعاملون مع الزمان شأن من يتعامل معه من البشر ويلقى منه ما يلقون فيقول في إطار من الحكمة : [2]

عتبتُ على الزمانِ ، وأيُّ حـــيٍّ
مـــن الأحياءِ أعْتَبَـــهُ الزمـــانُ(*)

وآمنـــةٍ مـــن الحدثـــانِ تُـــزْرِي
عليَّ ، وليس مـــن حدَثٍ أمـــانُ

وليس بزائِـــلٍ يَرْمِـــي وَيُرْمَـــى
مُعـــانٌ مـــرةً أو مُستَعَـــانُ

متـــى تـــأْبَ الكرامـــةَ مـــن كريمٍ
فمـــا لَـــكَ عنـــده إلاَّ الهـــوانُ

ويعزف شاعرنا على نفس الوتر من شكوى الزمان ، ويطرق نفس المعاني وإن عمد إلى نغمة من الإنشاد مختلفة في قوله :

يـــا خليـــليَّ أَصِيبَـــا أَوْ ذَرا
ليس كـــلُّ البرقِ يُهْـــدِي المطَـــرَا

---

(١) الأغاني ١٩٦/٣ ، ١٩٧ .
(٢) المرتضى ١٣٧/٢ .
(*) أعتبه الزمان أي أرضاه الزمان .

لا تكونـا كـامـرىءٍ صاحبْتُـهُ
يتـركُ العيـنَ ويَبْغِـي الأَثَـرَا
ذهـبَ المعـروفُ إلاَّ ذكـرُهُ
ربمـا أَبْكَـى الفتَـى مـا ذَكَـرَا
وبَقِينَـا فـي زمـانٍ مُعْضِـلٍ
يَشْرَبُ الصَّفْـوَ ويُبْكِـي الكَدَرَا

إن شكوى بشار في أبياته هذه من الزمان تحمل معاني عميقة من المرارة ، ولا شك أنه قالها في آخر حياته حينما تفرق أحبابه ورحل خلانه ، وكأني بالمتنبي وقد جاء بعد بشار بقرنين من الزمان قد تمثل البيت الأخير في قوله :

أَتَى الزمـانَ بنُوهُ فـي شَبِيبَتِـهِ
فسَرَّهُـمْ وأَتَيْنَـاهُ عـلى الهَـرَمِ

وكأني بالوأواء الدمشقي المعاصر للمتنبي قد تمثل صياغة البيت قبل الاخير وطرفا من معناه حين قال :

اذكُرونَـا مثـلَ ذِكْرَانَـا لكُـمْ
رُبَّ ذِكْرَى قَرَّبَتْ مَـنْ نَزَحَـا

ومن معاني الحكمة التي كان بشار يصوغها شعراً يحسن إيقاعه على النفس ويجمل تقبله في نطاق علاقات الناس بعضهم ببعض قوله في الصحبة :

أَحْسِنْ صحابَتَنَـا فإنـكَ مـدركٌ
بعضَ اللُّبَانةِ باصطناعِ الصَّاحبِ

وإذا جَفَوْتَ قطعْتُ حبلَ مودتـي
والـدَّرُّ يقطعُـهُ جفـاءُ الحالـبِ
تـأْتي اللئيمَ ـ وما سعى ـ حاجاتُـهُ
عَدَدَ الحصى ويَخِيبُ سعـيُ الدائبِ

ولعل درة الدرر في شعر الحكمة عند بشار هي أبياته المشهورة في الشورى، تلك الأبيات التي جرت على ألسنة الحكماء والعقلاء من العرب في كل زمان والأبيات من قصيدة طويلة لا تعنينا ظروف إنشائها الآن ، فذلك موضوع سوف تأتي مناسبته ، وإنما الذي يعنينا هو الأبيات نفسها وما حوت من فلسفة الحكم فضلا عن فلسفة الحياة ، وقد سبق أن مر بنا إجابة بشار على الأصمعي عندما أبدى هذا الأخير إعجابه وإعجاب الناس بأبياته في المشورة ، فكانت إجابته نثرا لا تقل عن بلاغته شعرا، وذلك عندما قال: يا أبا سعيد، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشَارَكُ في مكروهه ، فقال له الأصمعي : أنت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك . وأما الأبيات نفسها فهي : [1]

إذَا بلغَ الرأيُ المشُورَةَ فاسْتَعِـنْ
برأْيِ نَصِيحٍ أو نصيحـةِ حـازمِ
ولا تجعلِ الشُّورَى عليكَ غَضَاضةً
فـإنَّ الخوافِـي قـوةٌ للقـوادِمِ
وخلِّ الهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكنْ
نؤومـاً فـإنَّ الحزم ليس بنائـمِ

(١) الأغاني ٣/١٥٧ ومكررة في صفحتي ٢١٣ ، ٢١٤ والقصيدة بأكلها في الديوان ٤/١٦٩ ـ ١٧٤ .

وما خيرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الغـلُّ أُخْتَها
وما خيرُ سيْفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائمِ(*)
وحاربْ إذَا لم تُعْطَ إلاَّ ظُلاَمَـةً
شَبَا الحربِ خيرٌ من قبولِ المظالـم
وأَدْنِ عـلى القُرْبى المقَرِّبَ نَفْسَهُ
ولا تُشْهِدِ الشُّورى امرءًا غيـرَ كاتمِ
فإنَّكَ لا تستطرد الْهَـمَّ بالمُنَـى
ولا تَبْلُـغ العلْيَـا بغيـرِ المكـارمِ

لقد بلغ بشار بهذا الفكر الرفيع المصوغ في إطار ذهبي من بارع التعبير مرتبة سامية في دنيا الشعراء ، ومن يقول مثل هذا الشعر جدير بأن يحتلّ مثل هذه المرتبة الرفيعة ، ولكنه قال في نفس الوقت ذلك الشعر الرخيص المستجيب به للغرائز الجامحة الداعي فيه إلى الفحشاء على ما مر بنا في صدر هذا الفَصْل فكان بذلك – على ما ألمحنا قبلا – شاعر الغلوّ والتطرف ، ينحو دائما إلى أطراف الأقوال والأفكار ، ما يستحب منها وما يستكره .

بشار بين الزندقة والإيمان :

الرأي الشائع عن بشار أنه زنديق بعيد عن الإسلام ، ولقد ظهرت زندقته في صور متعددة لعل أبسطها دعوته إلى الفسق وتحريضه على الفساد وتصدره حركة الانحلال الأخلاقي الذي هو الخطوة الأولى نحو الزندقة والإلحاد .

(*) الغل بضم الغين القيد ، والقائم المقصود به قائم السيف.

ومن الغريب أن بشارا ارتدى ذات يوم مسوح الإيمان وإن لم ينهج سبيل الاستقامة ، وذلك حين ارتبط بواصل بن عطاء برباط المودة ووشائج الفكر المستقيم ، وأخذ في مدحه والثناء عليه ، ثم ما لبث أن تخبط في عماهات الريب ومتاهات الشكوك وعقائد الملاحدة ومسالك الزنادقة وأخذ يدين بالرجعة حسب رواية الجاحظ ويكفر جميع الأمة [1] وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : وعليٌّ أيضا ؟ فأنشد :

وما دونَ الثلاثةِ أُمَّ عمـــرٍو بصاحِبِكِ الَّذي لا تُصْبِحِينَا

وكان بشار قد بدأ أول أمر انحرافه بمجد النار على الطين على طريقة إبليس[2] ويقول :

الأَرضُ مظلمــةٌ والنــار مشرقــةٌ
والنارُ معبودةٌ مُذْ كانــت النَّــارُ

والواقع أن هذا المذهب الذي يعبر عنه بشار هو مذهب المجوسية التي تؤله النار وتجعل لها بيوتا على نحو ما هو معروف في تاريخ العقائد الفارسية .

ويؤكد الشريف المرتضي زندقة بشار ويقول إنه كان دهريا(*) ،ويعدد معه عصبة الملاحدة الدهريين وكلهم من الشعراء الذين عبروا عن زيغهم في وضوح وفي غير ما خوف بعد أن استشرى خطر الانحلال الخلقي واختلط الانحلال بالزندقة ،ومن هؤلاء الدهريين الذين ذكرهم المرتضي حماد الراوية وحماد عجرد وحماد بن الزبرقان وعبدالله بن المقفع وعبد الكريم بن أبي العوجاء ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد الحارثي وصالح بن عبد القدوس الأزدي وعلي بن خليل الشيباني والوليد بن يزيد وغيرهم [3]

(١) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦ .
(*) الدهريون قوم ذهبوا إلى قدم الدهر وإسناد الحوادث اليه ولا يؤمنون بالآخرة.
(٣) الأمالي ١/١٢٨ .

ويروي الشريف المرتضى أن رجلا قال لبشار : أتأكل اللحم وهو مباين لديانتك ؟ (يقصد ديانة الثنوية التي تقول بإلاهين ، إله للخير والنور وإله للشر والظلمة)ـ فقال بشار إن هذا اللحم يدفع عني شر هذه الظلمة [1]

ويعبر بشار عن الشك الذي يعتور عقيدته حسب رواية الرضيّ على لسان ابن خلاد بقوله : لا أعرف إلا ما عاينت أو عاينه معاين ... وما أظن الأمر إلا أنه خذلان ، ثم ينشد أبياتا من الشعر الذي يعبر عن نفس غير مستقرة فيقول :

طُبِعْتُ على ما فيَّ غيرَ مُخَيَّر
هوايَ ولوْ خُيِّرْتُ كنتُ المهذَّبَا

أَريدُ فلا أُعْطَى وأُعْطَى ولم أُرِدْ
وغُيِّبَ عنِّي أَنْ أَنالَ المَغَيَّبَا

وأُصرَفُ عن قَصْدِي وعلْمِيَ مُبْصِرٌ
فأَمْسِي وما أَعْقَبْتُ إلاَّ التَّعَجُّبَا [2]

على أن هذه الأبيات ـ وهي لا شك أبيات بليغة ـ قد لا تكون تعبيرا عن الشك الديني بقدر ما هي تعبير عن الحيرة والتعجب أمام تصاريف المقادير ، فليس في الأبيات من الصراحة ما ينسب بشارا إلى الإنكار أو الإلحاد أو الزندقة ، وما أمر تهمة الزندقة أو الإلحاد بالأمر الذي تستقصى شواهده بسبيل من التعسف ومن خلال الشبهات التي لا ترقى إلى مرحلة اليقين .

فهل تهمة الإلحاد والزندقة ثابتة بالنسبة إلى بشار ، لقد نسبه الشريف المرتضى إلى الدهرية مرة وإلى الثنوية مرة أخرى وأورد له البيت :

---

(١) المصدر السابق ١/١٣٨ .
(٢) نفس المصدر ١/١٣٩ .

الارضُ مظلمةٌ والنـــار مشرقـــةٌ
والنارُ معبودةٌ مُذْ كانـــت النـــارُ

ولئن صحت نسبة البيت إلى بشار فإن بشارا يكون قد غرق في الزندقة إلى أذنيه ، غير أن هناك من الفضلاء من ينكرون نسبة هذا البيت إلى بشار ويذهبون إلى أنه لا بد مدسوس عليه ، تماما مثل البيتين :

إبليسُ خَيْرٌ مـــن أَبيكـــمْ آدمٍ فتنبهـــوا يـــا مَعْشَرَ الفُجَّـــارِ
النارُ عُنصُـــرُهُ وآدمُ طينـــةٌ والطينُ لا يسمُو سموَّ النـــارِ

إن هذين البيتين وردا في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري منسوبين إلى بشار ، ويرى العالم الفاضل محمد الطاهر بن عاشور أن البيتين مدسوسان على شعر بشار ، ويرى أن كل صاحب ذكاء وفطنة وذوق سليم لا تروج عنده نسبة مثل هذا الشعر إلى بشار معنى ولا لفظا [1] ، وينفي الشيخ الفاضل الإلحاد عن بشار ، ولكنه يصفه بالاستهتار وعدم التحرز في أقواله ومجالسه ويقول إنه كان يجري بعض أقواله مجرى المزح والهزل ولكن ضراوة لسانه على الأمراء والكبراء والعلماء والشعراء أغرت به الجميع وجعلت التهمة لاصقة به [2]

والحق أن بشارا رغم نبوغه في شعره فإن سلوكه قد جعل أكثر الناس أعداء له إلى المدى الذي جعل الناس — لو صحت الروايات — يقابلون خبر موته بالكثير من السرور والفرح وكانوا يهنئون بعضهم بعضا ويتصدقون [3]

لقد استغضب بشار الملك العباسي المهدي ووزيره القوي يعقوب بن داوود حين قال البيتين السياسيين اللذين كانا السبب المباشر في قتله وليس تهمة الإلحاد :

---

(١) مقدمة ابن عاشور لديوان بشار ص ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٠ .
(٣) الأغاني ٣/٢٤٨ .

بني أُمَيَّةَ هبُّوا طـال نومُكُـــمُ
إنَّ الخليفةَ يعقُوبُ بـــنُ داوودِ
ضاعتْ خلافتُكُمْ يا قومُ فالتمسُوا
خليفـــةَ اللهِ بينَ النَّايِ والعُـودِ

واستغضب بشار كبير علماء البصرة وشيخ المعتزلة واصل بن عطاء وهجاه بأبيات مر ذكرها فغضب لنفسه وحرض على قتله ووصمه بالإلحاد ، وهي وصمة لا بد قاتلة، لأنها صادرة من رجل له وزنه عند الخاصة والعامة. وبشار يبدو أمام جمهرة الناس وبيئات المجتمع بمثابة معول الهدم الذي يهدم أخلاق بنيهم وبناتهم بما يقول من شعر فاحش يحض على الفسوق، وبما يصدر عنه من اتهام بالريب لحرائرهم والخوض في أعراضهم ، وبما يقترف من موبقات في العلن والجهر غير آبه بالتقاليد الأخلاقية التي جرى عليها المجتمع الإسلامي فتجسمت كل هذه الانحرافات وتجمعت لكي تضعه في صفوف الزنادقة والمنكرين .

ونحن من جانبنا لا نرى لبشار مخرجا من صفة الزندقة لو صحّت نسبة الأبيات التي مجد فيها إبليس وفضّل فيها النار عليه ، أما تصرفاته فبالرغم من شرورها فقد تضعه في مكان العصيان دون مكان الكفر ، وإن كان العصيان بارتكاب الكبائر كفرا عند المعتزلة الذين كان على رأسهم واصل بن عطاء ، ولكنه من البديهيات أيضا أن المنكرين لا تجري على ألسنتهم معاني الإيمان متطوعين ، ولقد جرت كثير من معاني الإيمان وتكريم الإسلام وإجلال بيت رسول الله على لسانه وفي أفعاله .

إن بشارا يؤمن بالقيامة والبعث والحساب إيمانا لم يرغمه عليه أحد ، ولا يمكن أن يكون من قبيل التقية ، فيقول : [1]

(١) الشعر والشعراء ٧٥٧ وزهر الآداب ٤٢٤/١ .

كيف يَبْكي لمحْبَسٍ في طُلُــول
مَنْ سَيُقْصَى ليومِ حَبْسٍ طويــلِ
إنَّ في البعْــثِ والحسابِ لشُغْــلاً
عــن وقوفٍ برسْمِ دارٍ مُحِيــلِ

من الطريف أن بعض النقاد حين يقرأون هذين البيتين يستشهدان بهما على أن بشارا من المجددين لأنه لا يقف على الأطلال في استفتاحات قصائده، ولقد جانبوا في استنتاجاتهم ملكة فهم الذوق الشعري ، إن بشارا في واقع أمره لم يقصد ببيتيه هذين ما قد ذهب إليه هؤلاء النقاد ، ولكنه ذهب إلى تبيان إيمانه بالمعاني الكبرى في الدين من قيامة وبعث ونشور وحساب .

ويكرر بشار إيمانه بالمعاد في قوله : [1]

أنَا مَنْ قد علِمْتِ لا أَنقضُ العَهْ ـدَ ولا تَسْتَخِفُّنِــي الأَهــواءُ
وعجيبٌ نَكْثُ الكريــمِ وللنَّفْ ـس مَعَــادٌ وللحيــاةِ انقضــاءُ

وعقيدة الإسلام عند بشار دافعة إلى الطهر عاصمة من الخنا ، وقد ضمن بشار هذا المعنى الجليل في قوله يصف الحرائر من الصبايا المسلمات : [2]

أُنُسٌ غَرائِــرُ مــا هَمَمْــنَ بِرِيبَةٍ
كظِباءِ مكــةَ صَيْدُهُــنَّ حــرامُ
يُحْسَبْــنَ مِنْ أُنْسِ الحديثِ زَوَانِياً
وَيَصُدُّهُنَّ عــن الخَنَا الإِسْلامُ

إذا كان هذا المعنى من أرق المعاني الغزلية ، فهو أيضا من أرقى المعاني

(١) الديوان ١/١١٥ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٧٦ .

الأخلاقية والشمائل الإسلامية .

وبشار يحب الرسول ، وهو لحبه الرسول يحب أحفاده وآل بيته من أبناء فاطمة ، هذا على الرغم من كونه أموي الهوى ، وهو يعبر عن ذلك في قوله في مدح ابراهيم بن عبدالله في القصيدة المشهورة التي حولها إلى مدح أبي جعفر المنصور :

مـــن الفاطميِّينَ الدعاةِ إلى الهُدَى
جَهاراً وَمَنْ يَهْدِيكَ مثْلُ ابنِ فَاطِمِ

وإذا كان بشار يحب أحفاد الرسول ، فهو يحترم أيضا من يمتون إلى الرسول بصلة القربى من بني العباس ويتورع عن هجائهم، يقول ابن المعتز : إن المهدي لما قتل بشارا ندم على قتله وأحب أن يجد شيئا يتعلق به ، فبعث إلى كتبه فأحضرها وأمر بتفتيشها طمعا في أن يجد فيها شيئا مما ضربه عليه فلم يجد من ذلك شيئا ، ومرّ بطومار مختوم ، أي صحيفة مختومة ، فظن أن فيها شيئا فأمر بفضها ونشرها فإذا فيها ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم، إني أردت أن أهجو آل سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس فذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنعني ذلك من هجوهم ، ووهبت جرمهم لله عز وجل ، وقد قلت بيتين لم أذكر فيهما عرضا ولم أقدح في دين ، وهما :

دينارُ آلِ سليمـــانٍ ودرهَمُهُـــمْ
كالبَابِلِيَّيْـــنِ شُدَّا بالعفاريـــتِ
لا يُوجَدانِ ولا يُرْجى لقاؤُهُمَـــا
كما سَمِعْتَ بهَارُوتٍ ومَـــارُوتِ [1]

(١) الطبقات ص ٢٢ .

لكأن بشارا أحس في حياته لكثرة من عاداهم وللعديد مما اقترف من آثام أنه سوف يرمى بالزندقة ويوصم بها بعد مماته ، وأراد أن يثبت للأجيال التالية أن تلك التهمة بعيدة عن الصحة فكتب هذه «الوصية» التي برأت جانبه والتي ترجح جانب الإسلام في عقيدته ونفت عنه وَصْمَةَ الكفر والزندقة .

(٥)

موضوعات شعر بشار

إن الموضوعات الأصيلة التي عمد بشار إلى قول شعره فيها لا تكاد تتعدى موضوعات ثلاث هي المديح والهجاء والغزل ، ثم قليل من قصائد الرثاء وأبياته لا تكاد تنهض لتشكل عنده موضوعا بذاته من موضوعات الشعر ، فضلا عن خفة وزنها وبُعد ما بينها وبين سمات الحزن والانفعال والبكاء والإبكاء الذي تتمشى معانيها عادة في حواشي قصيدة الرثاء ، إنه حتى وهو يرثي ولدا له لم يستطع أن يبكي بكاء من فقد قطعة من نفسه وفلذة من كبده ، وربما كان ذلك راجعا إلى أن بشاراً رغم ملكة الشعر الكبيرة وطاقته الهائلة اللتين كان يتمتع بهما ، لم يكن يملك روح الشاعر وأحاسيسه ، وهو في ذلك يشبه إلى حد كبير معاصره مروان بن أبي حفصة الذي كان يملك طاقة كبرى في صناعة الشعر أوقفها على جمع المال وتكديسه عن طريق المديح والرثاء معا .

وإذن فموضوعات شعر بشار منحصرة في الأغراض الثلاثة التي لخصناها ، والمتتبع لمحتويات العدد الكبير الذي وصل إلينا من قصائده في ديوانه لا يكاد يستخلص منها مزيدا من الموضوعات ، أما الأبيات أو المقطوعات التي جاءت في كتب الأدب والطبقات منسوبة إليه على أنها قيلت في موضوع بعينه ، فإنه بغير كثير من الجهد يمكن ردها إلى القصائد الأم في الديوان ، وسوف

نجد أنها جزء من قصيدة مديح أو غزل ، وأما الهجاء فإن بشارا قد جعل له هو الآخر من ألوان الاحتفال ما دفع به إلى أن يشرك معه في قصيدته شيئاً من الغزل وبعضا من الفخر وأحياناً أبياتاً من الحكمة .

فإذا سأل سائل عن كثير من شعر بشار في الحكمة والفخر والوصف أرجعناه في كل ذلك إلى مدائحه الكثيرة التي قيلت في رؤساء العصر الذي عاشه مقسما بين دولتي المروانيين والعباسيين ، بل إن أشهر مقطوعات الغزل التي ذكرها له أصحاب تاريخ الأدب ليست إلا مقدمات واستفتاحات لقصائد المديح ، على أن ذلك لا يمنع بطبيعة الحال أن يكون لبشار قصائد ومقطوعات كثيرة أصيلة في هدفها الغزلي وليست استفتاحا لمدائحه .

وبشار في كل ما قال من مديح أو هجاء أو غزل ملتزم المدرسة الأموية التزاما كاملا حتى في الدقيق من نظام القصيدة باستثناء المعاني الجديدة القليلة بالنسبة إلى مجموع شعره التي ولدها ونال بها إعجاب جمهرة النقاد والدارسين ، ولقد كان التزامه لطريق سالفيه وتمسكه بحبلهم ظاهرة جعلته في بعض استفتاحات مدائحه الكبرى المشهورة صورة من الشماخ وذي الرمة فضلا عن جمهرة الشعراء المداحين ، وفي غزله صورة من عمر حينا وجرير حينا آخر

مدائح بشار :

بشار شاعر مداح أو بعبارة أخرى يصنع المديح منظوما في قصائد من الشعر يجتهد في أن تكون على مستوى من الجودة ينال بها المال أو النوال ، وكلما أحسن الممدوح جائزته كان ذلك دافعا لبشار لكي يجود في مديحته التالية ، والعكس صحيح أيضا فإذا مدح بشار عظيما ولم يلق من النوال ما يطمع فيه ويرضيه هجاه ، وقد يكون هذا الهجاء شعرا وقد يكون أيضا نثرا .

ففي مجال مبالغته في المديح قيل لبشار : إن مدائحك عقبة بن مسلم فوق مدائحك كل أحد ، فقال بشار : إن عطاياه إياي فوق كل عطاء ، دخلت إليه يوما فانشدته :

حَرَّمَ اللهُ أَن تَرَى كابـنِ سَلْمٍ عُقْبَةِ الخيْـرِ مُطْعِمِ الفقـراءِ
ليس يُعْطِيكَ للرَّجاءِ ولا الخـوْ فِ ولكـن يَلَـذُّ طعمَ العَطاءِ
يَسقُـطُ الطيرُ حيثُ ينتثر الحـ ـبُّ وتُغْشَى منـازلُ الكُرَمَـاءِ

فأمر لي بثلاثة آلاف دينار ، وها أنا قد مدحت المهدي وأبا عبيدالله وزيره وأقمت بأبوابهما حولا فلم يعطياني شيئا . أفألام على مدحي هذا ؟ (١)

والواقع أن كلا من المهدي ووزيره لم يسلما من هجاء بشّار لأنهما لم يصلاه بالعطاء الذي انتظره ، ولقد مرت بنا جملة بشار التي قالها عندما مدح المهدي فلم يعطه شيئا ، وفيها يقول : إنه يكذب في القول فيكذب في الأمل(٢) أي أنه كذب في كل ما خلعه على المهدي من أوصاف في قصيدته تلك وأن أقواله كانت محض كذب واختلاق .

وكان بشار مقيما في حران بعض الوقت فمدح سليمان بن هشام بن عبد الملك بقصيدته : (٣)

نَـأَتْكَ على طولِ التَّجـاوُرِ زينـبُ
وما علمتْ أَنَّ النوى سوف يَشْعَبُ*

فأعطاه سليمان خمسة آلاف درهم ، فرفضها وهجاه بقصيدته :

---

(١) الأغاني ٣/١٩٥ .
(٢) الأغاني ٣/٢١٦ .
(٣) أمالي المرتضى ١/٥١٠ والأغاني ٣/٢١٧ ، ٢١٨
* يشعب يفرق .

إنْ أُمْسِ مُنْشَنِجَ اليدين عن النَّدَى
وعـنِ العدوِّ مُخَيَّسَ الشيطـانِ
فلقد أَروحَ على اللئـامِ مُسَلَّطـاً
ثَلِجَ المقِيلِ مُنَعَّـمَ النِدْمَـانِ [1]

وهكذا كان شعر المديح عند بشار مجرد لون من ألوان التجارة لتحصيل المال ومن لا يدفع ثمن «البضاعة» ينل ما يستحق من جزاء وعقاب .

مذهب بشار في المديح

لا يتميز بشار عن غيره من الشعراء المعاصرين في قصائد مديحه تميزاً يذكر ، فمن حيث بناء القصيدة يسير على شاكلة الأقدمين من حيث الاستهلال بالنسيب الذي يكون جيدا حينا ومتوسطا حينا آخر ، ومن حيث وصف الناقة ورحلتها وضروب سيرها وسراها ثم يدلف بعد ذلك إلى ممدوحه[1]

وقد يفسد بشار مديحته لطول أبيات الغزل وكثرة أبيات وصف الرحلة مما يباعد بين القصيدة وبين غرضها الأصلي وهو المديح ، ففي قصيدته التي مدح بها سليمان بن هشام بن عبد الملك ثلاثة وعشرون بيتا في النسيب وعشرون بيتا في وصف الناقة والرحلة والصحراء والجبال والأودية ، وهو في وصفه الناقة يترسم طريقة الجاهليين والإسلاميين من ذكر دقائق تركيبها وأجزاء جسمها ، فإذا كان بشار قد ذكر ثلاثة وأربعين بيتا في النسيب ووصف الرحلة ، فماذا أبقى من أبيات القصيدة للمدوح نفسه ، إن البصراء بعيوب شعر المديح يذكرون أنه مما يعيب قصيدة المديح أن يكون استهلال القصيدة من نسيب وغيره أطول

(*) منشنج منقبض ، مخيس مذلل .

(١) انظر على سبيل المثال قصيدته في محمد بن أبي العباس في الديوان ٢٩/٣ .

من أبيات المديح ، ومن ثم فإن بشارا ببناء قصيدته على هذا النهج المعيب قد قلّل من قيمتها الأمر الذي دفع بسليمان بن هشام ألا يزيد في عطائه إياه عن خمسة آلاف درهم على ما أسلفنا قبل قليل ، هذا فضلا عن أن القصيدة على طولها الذي بلغ سبعة وستين بيتا قد خلت من بيت واحد جيد وإنما هو شعر تقليدي محض يستطيع أن يقوله أي شاعر غير مرموق .

وفي قصيدته الهمزية التي قالها في عقبة بن سلم [1] يستهلها باثنين وعشرين بيتا في النسيب وخمسة أبيات في وصف الصحراء والباقي وهو تسعة وعشرون بيتا في مديح عقبة ، وهي أبيات في مستوى متوسط من الجودة ، باستثناء تسعة أبيات رائعة هي التي ركز أنصار بشار من النقاد عليها شأن تصرفهم في كل ما قدموا له من شعر . وكأنما وقفوا أنفسهم على الدعاية له منتقين الجيد من شعره ، متغافلين عن بقيته وهو أكثر الكثير .

وفي قصيدته في مدح عمر بن العلاء المكونة من ثلاثين بيتا يجعل بشار اكثر من نصفها – ستة عشر بيتا – في الفخر بأعجميته ويجعل الباقي وهو الأقل في مدح عمر مدحا يضم ثلاثة أو أربعة أبيات من الشعر الرفيع . وأما الأبيات العشرة الباقية فمن الشعر المتوسط إن لم يكن الرديء لتضارب المعاني فيها وتدفق الدماء في ثناياها مما يجعل الممدوح أقرب إلى الطاغية منه إلى الرجل الشجاع [2]

وفي قصيدته التي مدح بها عبدالله بن عمر بن عبد العزيز [3] الذي كان واليا على العراق يجعل بشار من هيكلها ومعانيها وقافيتها صورة مكتملة الأسباب لرائية الأخطل المشهورة بحيث لا نحسّ فيها بجدة أو ابتداع ، وإن أحسسنا بقدرة قائلها وجودة شعره دون جدته ، غير أنه في هذه القصيدة ونظرا لظروف

---

(١) الديوان ١٠٧/١ .
(٢) الديوان ١٥٦/٤ .
(٣) الديوان ١٧٢/٣ .

عدم استقرار الأمن في العراق قبل ولاية عبدالله عمد بشار إلى القصد إلى غرضه في المدح بذكر استقرار الأحوال في العراق دون مقدمات .

وفي القصيدة البائية المشهورة التي قالها في مروان بن محمد ومدح قيس عيلان والفخار بهم التي مطلعها :

جَفَا وُدُّهُ فازْوَرَّ أَوْ مَـلَّ صَاحِبُـهْ
وأَزْرَى به ألاَّ يزالَ يعاتُبُهْ

والتي تعتبر من عيون شعر والتي استشهدنا بالكثير من أبياتها في مقام فخر الشاعر بقيس عيلان والتي عين أبياتها :

كأَنَّ مُثَـارَ النَّقْعِ فـوقَ رُءُوسِنا
وأَسْيَافَنَا ليـلٌ تهـاوَى كواكبُـهْ

عمد فيها بشار إلى النهج الممعن في التقليد ، ولولا هذا البيت الذي استهوى النقاد مع مجموعة قليلة لا تزيد على بضعة أبيات أخرى لا تعدو العشرة لردت هذه القصيدة بشارا إلى مدرسة الصحراء الممعنة في البداوة ولجعلته مع الشماخ بن ضرار وذي الرمة على استواء واحد وموازاة لا يعتورها خلل .

إن القصيدة مكونة من أربعة وثمانين بيتا منها ستة —وهي الاستفتاح—في الغزل ، وأربعة في الحكمة ، وخمسة في وصف الليل والناقة ، وسبعة عشر في وصف حمار الوحش وأتنه ورحلته في طلب المرعى والماء ، وسبعة في وصف الصائد وسهامه وتربصه بالحمار حتى أرداه قتيلا ، وثمانية في الرحلة إلى قيس عيلان ، وبقية القصيدة في مدح قيس عيلان والفخر بهم ، وأبيات الفخر في القصيدة أكثر من أبيات المديح ، وقد ذكر القدامى من أصحاب كتب تاريخ الأدب والطبقات من أمثال ابن المعتز والأصبهاني وغيرهما ما أعجبهم من أبيات القصيدة وسرنا نحن المعاصرين على نهجهم — وقد مر جانب منها في مقام

الحديث عن فخر بشار – حتى يظهروا ونظهر بشار بمظهر المجدد في فن الشعر ، وأغفلوا وأغفلنا معهم السبعين بيتا الأخرى – يعني القصيدة كلها تقريبا – التي تضع بشارا في مكان مختلف تماما عن المكان الذي وضعوه فيه بدافع من الاستشهاد ببضعة أو بضعة عشرة بيتا من قصيدة عديد أبياتها أربعة وثمانون على ما ذكرنا ، ومن مبادىء فن النقد السليم أنه لا يحكم على القصيدة بالجودة لبيت جيد أو لعدة أبيات جيدة فيها ، وإنما يقضي للقصيدة بكيانها مكتملا لا مجزءا .

لنستعرض بعض أبيات القصيدة التي جعل النقاد منها واحدا من الأسباب التي وضعوا بها بشارا على رأس مدرسة المجددين ، وحتى نرى مبلغ «الجدة» التي جاء بها بشار والسهولة «والحضرية» . التي التزمها الشاعر في هذه القصيدة . يقول في وصف الليل والمطية : [1]

وليـــلٍ دَجُوجِـــيٍّ تنـــام بناتُـــهُ
وأبنـــاؤُه مـــن هوْلِـــهِ وربائِبُـــهْ

حَمَيْتُ به عينِي وعيْـــنَ مطيَّتِـــي
لذيذَ الكرى حتى تجلَّـــتْ عصائبُهْ

وماءٍ ترى ريشَ الغَطَاطِ بجـــوِّه
خفِيَّ الحيَا مـــا إنْ تلينُ نصائبُهْ

قريبٍ من التغْرِيرِ ناءٍ عن القُرى
سقاني بـــه مستعمِلُ الليلِ دائبُـــهْ

---

(١) الديوان ٣٠٩/١ وما بعدها .

حَلِيفُ السُّرَى لا يَلْتَوِي بِمَفَــازَةٍ
نَسَاهُ ولا تَعتلُّ منهــا حَوَالِبُــهْ(*)

وينتقل بشار مباشرة إلى وصف حمار الوحش وجماعته من الأتن ورحلته، وقد سار الشاعر تماما على نهج الشماخ وذي الرمة ملتزما المعاني مكررا ألفاظ الشاعرين معيدا نفس رحلة العانة بحيث يمكن مراجعة هذه الأبيات على مثيلاتها في فصل شعر الصحراء من هذا الكتاب، إذ لانكاد نجد فرقا يذكر بين شاعري الصحراء سالفي الذكر وبين بشار في أبياته هذه التي يمضي فيها قائلا:

أَمَــقُّ غُرَيْرِيٌّ كــأَنَّ قُتُــودَهُ
على مُثْلَثٍ يَدْمَي من الحُقْبِ حاجِبُهْ
غيــورٍ عــلى أَصحابِــهِ لا يرُومُهُ
خليــطٌ ولا يرجــو سواهُ صواحِبُــهْ
إِذَا ما روى سَنَّيْنِ حــاول مِسْحَلاً
يَجِــدُّ بــه تَعْذَامُــهُ ويُلاعِبُــهْ
أَقَبَّ نَفَى أَبنــاءَهُ عــن بناتِــهِ
بِذِي الرَّضْمِ حتى مــا تُحَسُّ ثوالِبُهْ

---

(١) الدجوجي شديد الظلمة ، بنات الليل وأبناؤه وربائبه الذين اعتادوا سهر الليالي . حميت منعت ، والعصائب الجماعات أراد بها ظلماته . الغطاط بفتح العين جمع غطاطة وهي القطاة ، الحيا الخصب . النصائب جمع نصيبة وهي الحجارة تنصب حول الحوض ، والمعنى أن هذا الماء يخفى حوضه على الساري فلا تبين الحجارة المنصوبة حوله . التغرير الهلاك ، مستعمل الليل الجمل . النسا بفتح النون عرق من الورك إلى الكتف ، والحوالب عرقان يكتنفان السرة إلى البطن .

رَعَى وَرَعَيْنَ الرَّطْبَ تِسْعِينَ ليلةً
على أَبَقٍ والروْضُ تَجْرِي مَذَانِبُـهْ

فلمَّـا تـولىَّ الحرُّ واعتصر الثَّرى
لَظَى الصَّيْفِ من نجمٍ تَوَقَّـدَ لاهبُهْ

وطارتْ عصافيرُ الشقائق واكتسى
من الآلِ أَمْثَالَ المُـلاَءِ مسارِبُـهْ

وصَدَّ عن الشَّوْلِ القريعُ وأَقْفَرَتْ
ذُرَى الصَّمْدِ مما استَوْدَعَتْـهُ مواهبُهْ

ولاذَ المهَا بالظِّلِّ واسْتَوْفَضَ السَّفَا
مِنَ الصيفِ نشَّاجٌ تَخِبُّ مواكبُهْ

غدتْ عانةٌ تشكو بأَبصارِهَا الصَّدَى
إلى الجأَبِ إلاَّ أَنَّها لا تُخَاطِبُـهْ

وظلَّ على علياءَ يَقْسِمُ أَمْـرَهُ
أَيمضِـي لـوردٍ باكـرٍ أَمْ يواتِبُهْ

فلمـا بَـدا وجـهُ الزَّمـاعِ وراعَهُ
من الليلِ وجهٌ يَمَّمَ المـاءَ قارِبُـهْ

فباتَ وقد أَخْفَى الظلامُ شُخُوصَها
يناهِبُهـا أُمَّ الهُـدَى وتناهِبُـهْ

إذا رَقَصَتْ في مَهْمَهِ الليلِ ضَمَّها
إلى نَهجٍ مثـلِ المجـرةِ لاحِبُـهْ

إلى أَنْ أَصابتْ في الغَطَاطِ شريعةً
من الماءِ بالأَهْوَالِ حُفَّتْ جوانِبُهْ
لها صَخَـبُ المستَوْفِضَاتِ على الوَلى
كما صَخِبَتْ في يومِ قيظٍ جنادبُهْ
فأَقْبَلَها عُرْضَ السَرِيِّ وعينُـــه
تَرُودُ وفي النَّامُوسِ من هو راقِبُهْ(*)

ويمضي بشار «المجدّد في هذه القصيدة» ! ! في وصف الصائد وسهامه المصوتة ذات الأنين ، وفي وصف الوتر الشديد فإذا ما انطلقت تركت صدى يجاوب صوتها ، ويصف بشار الصائد بالحرص الشديد على أن يعود إلى زوجته بصيد سمين وإلا كان جزاؤه صخبا منها وعنتا ، ومن خلال هذا الحرص

---

(١) الأمق الطويل ، الغريري بضم الغين منسوب إلى فحل مشهور ، المثلث الذي له ثلاث أتن ، الحقب جمع أحقب وهو حمار الوحش وسمي بالأحقب للبياض الذي في بطنه. غيور وصف للحمار المثلث أي غيور على أتنه . السن بتشديد السين المفتوحة حسن الرعي ، المسحل حمار الوحش ، والتعذام العض. أقب ضامر ، نفى أبناءه عن بناته يعني طرد الأبناء وجعل البنات زوجات له ، ذو الرضم مكان بعينه ، والرضم الحجارة. تسمين ليلة يعني ثلاثة شهور الربيع ، الأبق بالتحريك نبات يتخذ من ليفه الحبال وله حب ترعاه حمر الوحش ، الآل منظر يشبه السراب . الشول جمع شائل وشائلة الناقة التي تشول بذنبها لطلب اللقاح ، القريع الفحل سمي بذلك لشدته ولأنه يقرع بالعصا ، الصمد اسم مكان ، المواهب ما وهبته السماء من ماء المطر : استوفض طلب الوفض وهو السرعة ، النئاج الريح السريعة ذات الصوت . العانة جماعة حمر الوحش وهي اسم جمع لا مفرد له مثل السرب والإبل ، الجأب الحمار الغليظ الذي يقود القطيع ، المقصود بقوله لا تخاطبه أي أنها تشكو من شدة العطش . العلياء المكان المرتفع ، يقسم أمره يبت في شأنه لاقتراب الليل ، يواتب يثبت مكانه . الزماع العزم على الفعل ، والمعنى أنه لما خاف من هجوم الظلام وهو في طريق الماء أسرع إليه مقتربا منه . أم الهدى المحجة الواضحة ، والنهب هنا بمعنى سرعة السير . المهمه المفازة البعيدة والبلد المقفر . الشريعة الماء الكثير . المستوفضات يقصد بها القطا ، الولى الإسراع بالفرار . السري الوادي ، الناموس حفرة يحفرها الصائد ويختفي فيها ليرمي سهامه على الوحش منها .

يتربص الصائد بالحمار الذي أضرّ به العطش فنزل إلى الماء يرتوي حيث يلقي مصرعه بالسهام التي ترديه مجندلا ، ولم يخرج بشار في أبياته هذه عن النهج الذي انتهجه في أبياته السابقة من حيث الإغراب والإيغال في طرق الألفاظ الصعبة واستهداف المعاني التي لا يكاد يصل إلى مفهومها الدقيق إلا كل من راض نفسه طويلا على التعامل مع هذا اللون من الشعر الممعن في بداوته وغرابة ألفاظه وجفاء معانيه .

إذا كان المديح هو المحك الأكبر للحكم على الشعراء في الماضي بالتجديد أو التقليد ، فإن قصائد المديح كلها ، التي قالها بشار — وما أكثرها — تجعل منه شاعرا أمويا محافظا ، وتجعل منه أحيانا أخرى شاعرا صحراويا بدويا . ولا عبرة بالقليل من الأبيات التي تلتمع التماعا أخاذا بين قصائد الكثرة من الشعراء ، فلم تخل قصيدة لشاعر مشهور في الجاهلية أو الإسلام من بيت أو أبيات كانت تعتبر من القصيدة بمثابة «عينها» على حد تعبير النقاد الأقدمين

ولا بأس لدينا حتى تكتمل الصورة التقليدية لبشار من واقع الأمثلة أن نستعرض صورا من أبيات مديحه من واقع الفترتين السياسيتين المروانية والهاشمية اللتين عاشهما .

مدح بشار عبدالله بن عمر بن عبد العزيز إبان ولايته على العراق من قبل يزيد بن الوليد بن عبد الملك . وكان العراق مضطرب الأمن فأعاد عبدالله إليه الأمن والاستقرار ، فلم يخرج بشار في مديحته لهذا الوالي العظيم عن المعاني المطروقة والأساليب الموروثة حتى إنه بنى قصيدته هذه على منوال قصيدة الأخطل في عبد الملك . قال بشار في عبدالله : (١)

ضَمَّ العراقَ وقد هَـزَّتْ دعائِمَهُ
صَمَّاءُ عمياءُ لا تُبْقِـي ولا تَـذَرُ

(١) الديوان ١٧٦/٣ .

فَقَوَّمَ اللهُ أَضغـانَ القلـوبِ بـهِ
وأَدْرَكَ الدِّينَ إِذْ إدراكُـه عَسرُ
شَهْمُ اللِّقاءِ حليمٌ عنـد قُدْرَتِـهِ
سيانِ معروفُهُ في الناسِ والمطـرُ
لا يَحْقَبُ القَطْرَ إلاَّ فاضَ نائلُـهُ
ولا تَزَلْـزَلَ إلاَّ خلتَـــهُ يَقِـرُ
يَثْنِي مخالبَ ليْثٍ عـن مجاهِلِهِمْ
يُشْفَى بأَمثالهنَّ الصَّابُ والصَّدَرُ
هو الشهابُ الذي يُكْوَى العدوُّ بهِ
والمشرفيُّ الذي تَعْصَى بـه مُضَـرُ
ماضِي العِدَاتِ إِذَا وافَقْتَ نظرتَهُ
أَدَّى إليكَ الذي يُعْنَى به النَّظَرُ
لا يرهبُ الموتَ إنَّ النفسَ باسلةٌ
والرأْيُ مجتمـعٌ والدِّيـنُ مُنْتَشِرُ(*)

إن كل المعاني التي جاء بها بشار في هذه الأبيات فضلا عن القصيدة كلها معان جرت على لسان جميع الشعراء حتى استهلكت ، ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مداحون معاصرون لبشار يطرقون هذه المعاني فيقدمونها في حذق ومهارة تنتزع الإعجاب وبخاصة مروان بن أبي حفصة ، وحتى بعض المعاني المطروقة التي تعود الشعراء ألا يفشلوا في صوغها اللفظي فشل فيها بشار مثل قوله :

(*) يحقب يحتسب ، وقر من الوقار والسكون، الصاب شجر مر الورق ، الصدر ضرب من شجر السدر ، تعصى أي تضرب بالسيوف .

سِيّـــانِ معروفُهُ في الناسِ والمطَـــرُ

إن المطر شيء مخرب مدمر في جملته ومن ثم فهو لا يوضع في الكفة المقابلة للمعروف ، وإنما الذي يوضح بدلا منه هو الغيث على سبيل المثال ، ولا يشفع لبشار طبيعة القافية .

فإذا ما انتخبنا لبشار إحدى مدائحه في العصر العباسي سوف نجد أشهرها تلك التي قالها في مدح سَلْم بن قُتَيْبَة والى المنصور على البصرة والتي مطلعها :

بَكِّـــرا صاحِبَـــيَّ قَبْـــلَ الهجيـــرِ
إنْ ذاكَ النَّجـــاحَ فـــي التَّبْكِيـــرِ

وهي في غرابة ألفاظها ووحشية معانيها وانتهاجها القديم لا تخرج عن أختها تلك التي مر ذكرها قبل قليل ، فإذا قام ثمت اعتراض بأن بشارا قد عمد إلى الإغراب عمدا ليرضي ذوق «سلم» الذي كان يتباصر بالغريب على حد رواية الأغاني [1] فلا بأس من أن نختار إحدى قصائده في المهدي ، وسوف لا نجد في مدائحه في المهدي ما يعجب لحلوها من طريف القول وجديد المعنى ، وكل ما استطاع بشار أن يقدمه من جدة في مدائح المهدي وغيره من ممدوحيه العباسيين هو الجانب السياسي وأنهم وارثو الرسول ، ولقد رجحت كفة الشعراء الآخرين في هذا المضمار من ميدان المديح كفة بشار ، ولذلك فإنه كثيرا ما كان يخرج من مواجهة المهدي صفر اليدين ، إن ذلك لا يعني أن مدائح بشار للمهدي من الضعف أو الهزال بمكان ، فلم يكن بشار ضعيف الشعر هزيل القول ، ولكن هذه المدائح لم تتميز عن مدائح غيره ، ولم ترق إلى ذلك المستوى الذي وضع فيه النقاد بشارا فانتظر الناس منه غير ما ينتظرونه من

---

(١) الأغاني ٣/١٩٠ .

الشعراء الآخرين ، فلما لم يقابل هذا الانتظار بشيء بادي التميز باهر الوضوح لم يعد من حق بشار ولا من حق من قدموه أن يضعوه في مرتبة أسمى بكثير من مرتبة المجتهدين من معاصريه ، ولعل هذا المثال في مدح المهدي دليل على ذلك ، وهو مثال لا تتميز عنه أية قصيدة أخرى من قصائد ديوان بشار في موضوع المديح : [1]

قومٌ لهم تُشْرِقُ البلادُ إذا ... راحُوا ومَدَّتْ عليهمُ الحُجَرُ
صفَا لهمْ مَنْحَرُ الهَدِيِّ فبيْـ ... ـتُ اللهِ فالمَوْقِفَانِ فالسُّورُ
فزمزمٌ فالجِمارُ فالحوضُ فالـ ... مَسْعَى فذاكَ المقامُ محتظَرُ
ميراثُ من بُورِكَتْ نُبُوءَتُه ... فالدِّينُ فيهمْ فالأَمْرُ ما أَمَرُّوا
آباؤُكَ الصِّيد من قريشٍ إذَا ... زَعْزَعَ رَبْطَ المنِيَّةِ الذُّعُرُ
منهمْ سُقَاةُ الحجيج قد عُلِمُوا ... وقاتلُ المحْلِ مَالُهُ جَزَرُ
فرسانُ حرْبٍ إذا التقتْ بهمُ ... فيهمْ غَنَاءٌ وعندهمْ غِيرُ
يَسْقُونَ من حاربوا بحدِّهِمُ ... سُمًّا ولا يعتدون إنْ ظَفِرُوا
زانُوا بأَقصاصِهِمْ مَنَابِرَهُم ... وزانَهُمْ منظرٌ ومفتخرُ
بيضٌ مصاليتُ دون ضيمِهِمُ ... وَغْرٌ وما دونَ سَيْبِهِمْ وَعَرُ
خيرُ قريشٍ منهمْ وسيْفُهُمُ ... يومَ حُنَيْنٍ والبأْسُ مُنْتَحِرُ(*)

---

(١) الديوان ٣/٢٠٠ .

(*) مدت عليهم الحجر بفتح الميم أي امتدت . سقاة الحجيج هم العباس بن عبد المطلب وأولاده ، وقاتل المحل هو هاشم بن عبد مناف ، ماله جزر أي أن المال الذي يملكه جزر للناس طعمة لهم . خير قريش منهم وسيفهم أي العباس الذي ثبت بين يدي الرسول يوم حنين في نفر من الصحابة آخذا بزمام بغلة الرسول المعروفة بالشهباء .

الحق أن هذه المديحة على جودة سبكها أقرب ما تكون إلى قطعة من التاريخ ونحن لا نستطيع أن نلمس فيها حرارة المديح والإقبال والخطابية التي هي ضرورة كان الشاعر يتمثلها وهو ينشيء قصيدته تمهيدا للأخذ بيده حين إنشادها .

على أنه كانت لبشار ومضات لامعة أخاذة في دنيا المديح تنطلق بها بعض الأبيات من خلال القصيدة كما ينطلق البرق اللامع من خلال السماء الداكنة الغائمة كقوله في عمر بن العلاء : (١)

فقلْ للخليفةِ إنْ جِئْتَهُ ... نَصُوحاً ولا خَيْرَ في مُتَّهَمْ
إذَا أيْقَظَتْكَ حروبُ العِدَا ... فَنَبِّهْ لهَا عُمَراً ثُمَّ نَمْ
فَتىً لا ينامُ على دِمْنَةٍ ... ولا يَشْرَبُ الماءَ إلاَّ بِدَمْ
... يَلَذُّ العطاءَ وسفْكَ الدِّما ... ءِ ويَغْدُو على نِعَمٍ أوْ نِقَمْ

او قوله في ابراهيم بن عبدالله بن الحسن : (٢)

وما ضاعَ مالٌ أوْرَثَ الحمدَ أهْلَهُ
ولكنَّ أموالَ البخيلِ تَضِيعُ
على خشباتِ المُلْكِ منكَ مهابةٌ
وفي الدِّرعِ عبلُ السَّاعديْن قَرُوعُ
يَشُقُّ الوغَى عن وجهه صدقُ نجدةٍ
وأبيضُ مِنْ ماءِ الحديدِ وقيعُ

---

(١) الديوان ٤/١٦٠ .
(٢) الديوان ٤/١٠٤ .

إذا خزنَ المالَ البخيلُ فإنما
خزائِنُهُ خَطِّيَّةٌ ودُرُوعُ

وبيضٌ بها مِسْكٌ مكانَ بنانِهِ
ولكنها ريحُ الدماءِ تَضُوعُ

تروحُ بأرزاقٍ وتغدُو بغارةٍ
فأنْتَ ذُعَافٌ مرةً وربيعُ

ومهما كان الأمر فإن هذه الومضات اللامعة في مدائح بشار قليلة شحيحة بالنسبة إلى القدر الهائل من شعره في المديح الذي لم يَعْدُ فيه المدرسة الأموية التي تَرَسَّم خطاها ولم يَحِدْ عن نهجها لا من حيث بناء القصيدة ولا من حيث معانيها أو أساليبها .

رجز بشار :

وبشار من الشعراء الذين نبغوا في القصيد والرجز على حد سواء ، ومن ثم فإنه صاغ بعض مدائحه في بحر الرجز ، والمتصفح لديوان بشار لا يكاد يجد له أراجيز في غير المديح والهجاء ، فضلا عن أنها قليلة العدد ، فهي لا تكاد تتجاوز سبعة أراجيز [1] تتفاوت بين الإفراط في الطول وبين المبالغة في القصر ، وقد سار بشار في أراجيزه التي قالها في المديح على النسق الذي عبّده أبو نخيلة السعدي ، أي أنه جعل من أرجوزته صورة من قصيدة المديح التقليدية من حيث استفتاحها بالنسيب والوقوف على الأطلال والرحلة إلى الممدوح ، وبحر الرجز لسهولة من يروض نفسه عليه يمدّ الراجز بفيض من المعاني متتابعة . وعديد من الصور متلاحقة ، بحيث لا يكاد القارىء يلتقط أنفاسه وهو يتابع الأرجوزة وهي تنتقل به من معنى إلى معنى ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لبحر الرجز لأن الغرض الأساسي منه هو السرعة ، ولقد كان الحداة يحدون للإبل على بحر الرجز حتى تسرع وتغذّ المسير في سراها ، إن هذه الظاهرة ظاهرة

(١) الديوان جزء أول صفحة ١٣٤ ، ١٤٠ ، وجزء ثان ص ٢١٩ وجزء ثالث ص ٩٢ ، ١٧٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ .

تلاحق الصور وتتابع المعاني تبدو واضحة في أراجيز بشار وبخاصة الطويلة منها ، سمة أخرى سوف تبدو لنا ونحن نستعرض بعض أراجيزه وهي سمة الحضارة ، أو بعبارة أخرى صياغة الأرجوزة وهي فن بدوي خالص في إطار من المعاني الحضرية والألفاظ الحضرية أيضا .

يمدح بشار يزيد بن حاتم بن قتيبة بن المهلب بن أبي صفرة ، وكان فارسا جوادا ولي للمنصور مصر وافريقية ، فيبدأ أرجوزته بالوقوف على الأطلال [1] .

يا بْنَيْ جَلاَ هَلْ بِكُمَا تَنْكِيرُ
سِيرَا فَإِنَّ البُكَرَ التَّيْسِيرُ
غَيُّ الفَتَى ورُشْدُهُ مَقْدُورُ
بَلْ مَا لِعَيْنِي دَمْعُها غزِيرُ
مِنْ طَلَلٍ عَفَتْ عليه المُورُ
وجَادَهُ الطُّحْرُورُ والطُّخْرُورُ
حتَّى مغَانِي أَهْلِها دُثُورُ
ومِنْ سِفَاهٍ والرَّدَى مُغِيرُ
أَبْكِي على الدُّورِ وأَيْنَ الدُّورُ
مَغْنىً لنا كان له شُرْشُورُ
إِذْ يَنْطوِي كَعَهْدِهِ مَذْكُورُ
بانَتْ سُلَيْمى فَمَتَى الكُرُورُ
هيْهاتَ مِنْ مَنْزِلهَا الخَابُورُ(*)

---

(١) الديوان ١٧٨/٣ .

(٢) المور التراب الذي تذروه الرياح ، الطحرور القطعة من السحاب المتفرقة والطخرور القطعة من السحاب المستدقة ، شرشور طائر وقيل بل هي سرسور بضم السين يعني الحبيب القطن .

ويمضي بشار في أرجوزته طارقا باب النسيب مطيلا فيه . بل مفرطا في الإطالة مازجا النسيب ببعض السمات الوصفية فيقول من بعض نسيبه :

خَـوْدٌ عليهـا المِسْكُ والعَبِيرُ
من اللَّواتي رِيقُهـا طَهُـورُ
زَيَّنَهـا مـا زَيَّـنَ الجَـأْذُورُ
إذَا مشَتْ تَقْصِـدُ أَوْ تَجُـورُ
مَيَّلَهـا دِعْصُ مَـلاً مَمْطُـورُ
كما يَمِيـلُ الشَّاربُ المخْمُورُ
مِمَّـا يُجَزِّي بَيْنَنَا السَّفْسِيـرُ
حتَّى دَنَـتْ والمُحْسِنُ المأْجُورُ
لمَّـا الْتَقَيْنَا ومَعِـي المأْثُـورُ
في مَذْهَبٍ حَفَّتْ بِـهِ القُصُورُ
نِيرَتْ بقُرْبِـي والجوارِي نُورُ
قالتْ عَلَى التَّرْوِيعِ مَنْ يَزُورُ ؟
فقلتُ : كَلاَّ ، سُخْطُكِ المهْجُورُ
يَوْمَ لَهَوْنَا والهَوَى مَسْطُـورُ
في فِتْيَةٍ لـمْ يَلْقَنَـا تَكْدِيـرُ
حتَّى إذَا مـا غَرَّدَ العُصْفُـورُ
ورَاعَنَـا الدِّيـكُ لَـهُ تَسْحِيرُ

وشَقَّ جِلْبَـابَ الدُّجَى الفُجُورُ
وانْقَبَضَ اللَّيْـلُ ورَاحَ النُّورُ
شَمَّرْتُ والحـزمُ لـه تَشْمِيرُ
وأَرْسَلَـتْ عَبْرَتهـا تَمُـورُ
مَرْيَ الْحَبَابِ جَرْيُهُ مَجْـدُورُ
تقولُ لي والشَّعْـبُ مُسْتَطِيـرُ
ليس لنا في شَجَـنٍ تَخْيِيـرُ
والحُزْنُ لا يَبْقَى ولا السُّرُورُ(*)

وبعد النسيب الطويل الذي ذكرنا بعضه ولا ننكر أنه رقيق مليء بالصور المحبوكة الصنع والاستعارات الجيدة ينتقل بشار في أرجوزته الطويلة الجيدة إلى وصف الرحلة إلى الممدوح تماما كما فعل وفعل غيره من الشعراء المحافظين ، بل وكثير ممن سموا محدثين ، ووصف الرحلة من الأجوزة يشتمل — كما هو الحال في القصيد — على وصف النوق التي براها المسير وهزلها السرى وشغلها التأويب وأضناها التهجير ، كما يشتمل الوصف على أنواع المشي وبعض محتويات الطريق من حصى مجرور ، وسراب ، وقور ، وجندب له صرير ، وأرض أعلامها تدور حتى انتهى المطاف الطويل :

---

(١) الجأذور قصد به الجؤذر وهو ولد البقرة الوحشية، الدعص الرمل والملا الصحراء ، السفسير بكسر السينين الخادم بالفارسية ، المأثور من أتباع الأثر وهو المتبوع ، سخطك المهجور : أراد أن يقول سخطك هو المهجور وليس أنت ، الفجور جمع فجر على غير قياس ، الحباب بفتح الحاء معظم الماء، والمجدور الذي جعل له جدر أي سدود حتى ينحبس الماء فيسقي ما حوله ، الشعب التفرق ، مستطير منتشر .

إلى فـتىً ليس لـهُ نظيـرُ
يُشْفَى به المُنْزَفُ والفِجِّيـرُ
كأنه سيـفُ وَغـىً مشهـورُ
خَالَـطَ مِسْكـا وبِـهِ تَامُـورُ
فِي مُهَجِ الجَوْفِ التِّي تَفُورُ(*)

ويعدد بشار أعلام آل المهلب واحدا بعد الآخر خالعا على كل منهم أهم صفات المجد التي عرف بها ثم يلتفت إلى ممدوحه يزيد بن حاتم قائلا :

آباؤُكَ الصِّيدُ الحُمَاةُ الغِيـرُ
فاقْدَحْ بِمَنْ شئْتَ بهِ ثَبِيـرُ
لا تَنْسَنِي وأنْـتَ لي ذَكُـورُ
حتَّى بدَا في رأسيَ القَتِيـرُ
وعَصَبَـتْ في هَمِّهـا قُـدُورُ
وصبيـةٌ أكبرُهُـمْ صغِيـرُ
إليْكَ من خَوْفِ البلايَا مُـورُ
وقال أَصْحَابِي : لَكَ التَّبْشِيرُ
أما تَرَى الناسَ لهُمْ تكبِيـرُ ؟
. . . . . .

(*) الفجير قصد به الكريم الذي يتفجر عطاؤه والمنزف هو الذي ينزف دما وقصد به المحتاج، التامور مهموز الزعفران .

تُزَارُ في المحْـلِ ولا تَـزُورُ
أَمـا تَرَى فأَنْتَ بي بَصِيـرُ
طالِبَ خَيْـرٍ خَطْـوُهُ قصيـرُ
لا يَسْأَلُ النـاسَ ولا يُعِيـرُ
عليكَ مِـنْ تحبيـرِهِ حَبِيـرُ
قد ساقَـهُ القحْـطُ وَدَهْرٌ بُورُ
بلْ غَالَ نَوْمِي بائِعٌ مسعـورُ
يمْشِي بِـرَقٍّ بَطْنُـهُ مَسْطُورُ
يَهُولُنِـي لِقَاؤُهُ المحْـذُورُ

ويستمر بشار في أرجوزته الاكتدائية يلحف في السؤال وطلب العطاء ليسد دينه قبل البائع المسعور الذي يحمل بين يديه صكا بالدين يهدده به ويروعه ، ويطلب إلى الممدوح أن ينجيه منه :

أَنْتَ الذي يَغْنَى بِهِ الفَقِيـرُ
والغَـارِمُ المُثْقَـلُ والمأْجُورُ

ولعل من الخير ونحن نعرض لأراجيز بشار في المديح ألا نغفل الإشارة إلى أرجوزته الدالية في عقبة بن سلم الذي مر ذكره ، وهو واحد من ألمع ممدوحي بشار وآثرهم لديه ، وترجع أهمية هذه الأرجوزة إلى أنها قيلت تحديا لواحد من أشهر الرجاز ، إنه عقبة بن رؤبة بن العجاج ، وكل من عقبة وأبيه رؤبة وجده العجاج من أشهر رجاز العربية .

وأما سبب إنشاء الأرجوزة وسبب التحدي ، فهو — على ما يذكر أحد الرواة الذين يعتمد عليهم الأصفهاني — أن بشارا دخل على عقبة بن سلم والي المنصور على البصرة فأنشده بعض مدائحه فيه وعنده عقبة بن رؤبة ، الذي كان ينشده بدوره أراجيز في مدحه ، فجعل بشار يستحسن أراجيز عقبة ، ويبدو أن الراجز قد ركبه بعض الغرور فما أن انتهى من إنشاده حتى قال لبشار : هذا طراز من القول لا تحسنه يا أبا معاذ ، فقال له بشار وقد استبد به الغضب : ألمثلي يقال مثل هذا الكلام ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك ، فقال عقبة : أنا والله وأبي فتحنا باب الغريب وباب الرجز ، والله إني لخليق أن أسدّه عليهم . ويتطور النقاش ويسخر بشار من عقبة قائلا : ارحمهم رحمك الله ، فيقول عقبة : أتستخف بي يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ويرد بشار ساخرا أيضا : فأنت إذن من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا [1]

وينفرط عقد المجلس وقد نوى بشار أمرا ، إنه يذهب إلى بيته ليعود في اليوم التالي إلى مجلس أبي الملدّ عقبة بن سلم فيجد عنده عقبة بن رؤبة فينشد الأمير هذه الأرجوزة الطويلة التي ناهزت مائة وخمسة وستين بيتا وقد حمل كل بيت فيها طابع التحدي لعقبة بن رؤبة ، ذلك أن بشارا أنشأها على طولها وصعوبتها في ليلة واحدة ، وأنه أكثر فيها من ذكر الغريب على غير عادة بشار في أراجيزه ، فقد لاحظنا أنه يقول الأراجيز وهي فن بدوي بذوق حضري ، وأنه أتى فيها بالصورة الجذابة تلو الصورة والمعنى المبتكر تلو المعنى ، واستغل دربته على قول الغزل وإبداعه فيه فوشى الارجوزة بعدد وافر من أبيات الغزل الطريف ، وهو إلى ذلك لم ينس نصيب غريمه في الأرجوزة فقد خصته بأبيات قليلة فيها سخرية غير مباشرة به وضيق منه ومن صحبته . ولقد أورد صاحب الأغاني واحدا وخمسين بيتا من الأرجوزة اختارها كلها من «عيون» الأرجوزة فجاء

---

(١) الأغاني ٣/١٧٤ .

بالأبيات ذوات الجرس واللمعان دون الأبيات الأخرى التي لا يتم رونق القصيدة والحكم السليم عليها إلا بها ، ولكنه سار على طريقة من لم يقدموا لبشار إلا الأمثلة الجميلة دون غيرها ،

على أن الأمر المهم أن بشارا — كما هي العادة في المديح — انتهج نفس الطريقة التقليدية من وقوف على الأطلال ثم نسيب طويل ، ثم تعريض بخصمه ، ثم وصف الرحلة وصفا طويلا قريبا من النسق الذي سار عليه في بائيته الطويلة التي قالها في مروان بن محمد وقيس عيلان . إنه هنا يصف سعيه إلى الممدوح وصعوبة الطريق والرحلة والراحلة وسيرها والصحراء ونباتها وزهرها وطيورها وجنادبها إلى غير ذلك مما يتخيله كل شاعر أمرا صعبا حتى يصل إلى الممدوح متعبا منهوكا فينال رفده ويكون «الجزاء على قدر المشقة» . يستهل بشار أرجوزته بذكر الطلول والنسيب قائلا : [1]

يا طَلَلَ الحيِّ بذاتِ الصَّمْـدِ
باللهِ حَدِّثْ كَيفَ كنْتَ بَعْدِي
أَوْحَشْتَ مِنْ دَعْدٍ ونُؤْي دَعْدِ
بَعْـدَ زمـانٍ ناعـمٍ وَمَـرْدِ
عهداً لنا ، سُقياً له مِـنْ عَهْدِ
إذْ نحنُ أَخْيَـافٌ بمـا نُؤَدِّي
يُخْلِفْنَ وَعْـداً ونَفِـي بِوَعْدِ
فنحنُ مِنْ جهدِ الهوَى في جَهْدِ
نَلْهُـو إلى نَوْرِ الخُزَامَى النَّعْدِ

في زاهـرٍ مـن سَبِطٍ وجَعْـدِ
ما زال مِنْ حَرْجِ الصَّبَا في رَنْدِ
يختالُ في مـاءِ النَّدَى المُنَدِّي
حتَّى اكْتَسَى مِثْلَ عيـونِ البُرْدِ
روْضاً بمغْنَى واهِبِ بن فِنْـدِ
أَهْدَى لـهُ الدهرُ ولمْ يَسْتَهْدِ
أَفْوَافَ نَـوْرِ الحِبَـرِ المُجَدِّ

. . . . . .

وقدْ أَرَاني فِي الصِّبَا الأَجَـدِّ
كالْبَدِّ فيهـنَّ لأَهْـلِ البَـدِّ
هـذا وبَلاَّنِـي مَسِيـر الأَزْدِ
سِرْبٌ تَرَاءَى كنِظَـامِ العِقْدِ
حُلْوَ الحديـثِ حَسَنُ التَّصَدِّي
واهـاً لأَسْماءَ ابْنَـةِ الأَشَدِّ
قامتْ تَرَاءَى إِذْ رأَتْنِـي وَحْدِي
كالشَّمْسِ بين الزِّبْرِجِ المُنْقَدِّ
سُلْطانَ مُبيَضٌّ عـلى مُسْوَدِّ
ضَنَّتْ بِخَدٍّ وجَلَتْ عنْ خَـدِّ
ثُمَّ انْثَنَتْ كالنَّفَسِ المرْتَـدِّ

وَرُحْتُ مِنْ عَرْقِ الهَوَى أُصَدِّي
يـــا عجَباً للعاجِـــزِ المُسَدِّي(*)

وينتقل بشار من هذه الصور السريعة الطريفة المتتابعة التي لفت بها دون شك نظر الراجز المحترف عقبة بن رؤبة إلى التعريض به تعريضا قد يبدو غير مباشر ، ولكنه في واقع أمره تعريض فيه نيل منه وثأر ، وإيذاء له وتحدّ ، وذلك في قوله :

ما ضَرَّ أَهْلَ النُّوكِ ضَعْفُ الكَدِّ
وافَقَ حَظّـاً مَـنْ سَعَـى بِجِـدِّ
قُلْ للزُّبَيْرِ السَّائِلِي عَـنْ وُلْدِى
الحُـرُّ يُوصَـى والعَصَـا لِلْعَبْد
وليس للمُلْحِـفِ مثـلُ الـرَّدِّ
فارْضَ بِنَصْفٍ وأَزِحْ في القَصْدِ
النَّصْفُ يكْفِيكَ مِـنَ التَّعَدِّي
وصاحِـبٍ كالدُّمَّـلِ الْمُمَدِّ
أَرْقُبُ مِنْهُ مثلَ يومِ الـوِرْدِ

(*) الصمد روضات بني عقيل ، المرد مصدر مرد كنصر بمعنى الإقدام والإجتراء ، الأخياف المختلفون جمع أخيف ، الثمد الرطب ، الحرج بسكون الراء البرد ، عيون البرد الحلا يا التي في نسجه ، الأفواف برود من اليمن ذات ألوان ولذلك يقال للشيء الملون مفوف ، البد الصنم ، واها كلمة تقال عند التعجب ، الزبرج الثوب الموشي بجوهر أو ذهب والزبرج هنا بمعنى الغمام الرقيق فيه سواد وحمرة ، المنقد المتقطع ، العرق بفتح العين وسكون الراء الطريق الواضحة ، أصدي أصفق .

حملْتُهُ في رُقْعَـةٍ مِـنْ جِلْدِي
صبـراً وَتَنْزِيهـاً لمَا يُؤْدِّي
حتّى انطوَى غَيْرَ فقيـدِ الفَقْدِ
وما دَرَى ما رَغْبَتِي مِنْ زُهْدِي(*)

وبعد أبيات مفرطة الطول في وصف الطريق وصعوبته والصحراء وقسوتها والرحلة الراحلة وكل ما يمكن أن يصادف الشاعر في الطريق ينتهي إلى مدح ممدوحه في أبيات طويلة منها :

أَنْتَ جَنَا العُودِ وَمَوْتُ الرِّنْدِ
متوَّجُ الآبـاءِ ضَخْـمُ الرِّفْدِ
مفتاحُ بـابِ الحدَثِ المنْسَدِّ
نِعْمَ مـزارُ المعْتَفِـي والوَفْـدِ
وأَنْـتَ للجُنْـد وغيْـرِ الجُنْد
مُشْتَرَكُ النَّيْـلِ وَرِيُّ الزَّنْـد
تَسْبِقُ مَنْ جاراك قبلَ الشَّدِّ
بالْحِلْم والجُود وضَـرْبِ الكَرْدِ

(*) أهل النوك هم الحمقى أراد الشاعر أن الحمقى قد يكونون محظوظين مبخوتين، الحر يوصي يعني تكفيه الكلمة وفي رواية أخرى الحر يلحى أي يشتم وأما العبد فليس له إلا الضرب ، النصف بفتح النون المشددة الإنصاف ، أزح في القصد يعني الزم القصد والاعتدال ويجوز أن يكون أرح بالراء من الراحة ، الدمل الممد الذي تخرج منه المدة ، ويوم الورد يوم الحمى ، شبه الشاعر زيارته له بيوم الحمى، حملته أي حملت الدمل مرغماً، قصد الشاعر إلى أن تحمل الصاحب السيء المعاشرة كتحمل الدمل في الجسد ، غير فقيد الفقد أي أن فقده ليس بفقد أي لا يحس له بأثر ولا يترك فراغا ، وما درى ... أي لم أره زهدا فيه ولا رغبة .

مـا زلْـتَ معروفاً مع الأَرَدِّ
أَغَـرَّ لبَّـاساً ثيـابَ المجْـدِ
ما كان منِّي لـكَ غيْرُ الـوُدِّ
ثُمَّ ثنـاءٌ مثلُ ريح الـوَرْدِ
نَسَجْتُـهُ في المُحْكَمَـات النَّدِّ
فالْبَسْ طرَازي غيْـرَ مُسْتَـرَدِّ
لله أَيَّامُـكَ فـي مَعَـدِّ
ثمَّ بني قَحْطَانَ ثُمَّ عَبْـد (*)

وإذا كان بحر الرجز من طبيعته السرعة والانطلاق فإن الرجاز يجد نفسه مضطرا إلى الاستجابة إلى كل المعاني المتصلة بموضوع أرجوزته من قريب أو بعيد بحيث تبدو الأرجوزة – أية أرجوزة – مليئة بالحشو مزدحمة بالأبيات الكثيرة التي يمكن الاستغناء عنها ، وهذا ما نلمسه عندما نقارن بين الانموذج الذي اختاره صاحب الأغاني وانتقاه من هذه الأرجوزة وبين الأرجوزة نفسها كاملة من واقع نص الديوان أو من واقع مختاراتنا تلك التي سطرناها منتقاة من الديوان على أساس من الدراسة بحيث تحوي الغث والسمين من محاولة بشار ، وبذلك تكون صورتها دقيقة ، وبالتالي يكون الحكم عليها أقرب إلى الأمانة وأدنى إلى القصد والاعتدال .

وليس من شك في أن أرجوزة بشار هذه تعتبر من أجود ما أنشأ من

(*) جنا العود ثمرة العود ، الرئد القرن والكفء ، مشترك النيل يعني كريم لجميع الناس ، وري الزند كناية عن أنه لا يخطىء في رأي ، الكرد بفتح الكاف العنق ، المحكمات يعني القصائد والأبيات ، الند أصلها الندد وهي الإبل المتفرقة لكثرتها عني الشاعر أنه مدح الممدوح بقصائد عديدة متنوعة محكمة ، لله أيامك .... يشير إلى انتصاراته على مختلف القبائل والميادين .

أراجيز ، ونحن لا نعتقد أن بشارا قصد فيها إلى مدح عقبة بن سلم بقدر ما قصد إلى تحدي عقبة بن رؤبة في فن رأي هذا الأخير أنه مقصور عليه وعلى أبيه وجده وحدهم لا يشاركهم في إجادته مشارك ، ولا ينازلهم فيه منازل مهما كانت مقدرته الشعرية ولو كان بشارا نفسه ، ولذلك فإن بشارا رغم معاني المديح التي وجهها إلى ابن سلم كان جل اهتمامه منصبّاً على عقبة بن رؤبة ، فهو حين يذكر الدمل الفاسد الذي اضطر إلى حمله في جلده إنما قصد قصدا بارعا إلى الإشارة إلى اضطراره إلى مصاحبة عقبة الراجز في ندوة عقبة بن سلم ، وهو حين أنشد ممدوحه أنه ينسج له المحكمات العديدة الجيدة المتنوعة من القصائد إنما أراد بذلك التهوين من شأن عقبة الراجز الذي كان يمدح عقبة بن سلم وينال تقديره وعطاءه ، لأن ابن سلم كان يميل إلى الغريب من اللفظ متضمّنا في القصائد التي يمتدح بها ، ويذكر عنه أنه كان له إلمام بالغريب ، الأمر الذي دفع ببشار أكثر من مرة إلى أن يمدحه بقصائد بدوية الاستهلال والمبنى ، غريبة الألفاظ والأسلوب ، وهنا ك قصة تروي في هذا الصدد حول غرام عقبة بن سلم بالغريب ، فقد مدحه بشار بقصيدة مطلعها :

بَكِّرا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجِيرِ
إنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

فسأله خلف بن أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر — وكانا يعظمان بشاراً ويعرفان قدره — : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، فقال : نعم بلغني أن سلْماً يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه مالا يعرفه . قالا : فلو قلت يا أبا معاذ مكان «إنّ ذاك النجاح في التبكير» «بكّرا فالنجاحُ في التبكير» كان أحسن ، فقال بشار : بَنَيْتُها أعرابية وحشية ، فقلت «إن ذاك النجاح في التبكير» كما يقول الأعراب البدويّون ، ولو قلت «بكّرا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة[1]

(١) الأغاني ٣/١٩٠ .

وإذن فقد كان الهدفان الرئيسيان لبشار في أرجوزته هذه البارعة إفحام خصمه محترف الرجز ومحتكره ، والمحافظة على مكانته لدى عقبة بن سلم الذي يفضّل الغريب من الألفاظ والبدوي من الشعر ، وإثبات أنه سيد الرجز والقصيد على حد سواء ، فقد كان الإغراب إذن واحدا من أهداف الأرجوزة الأمر الذي يسقط قيمة النص الذي انتقاه صاحب الأغاني .

ومهما كان الأمر في هذه الأرجوزة فهي عمل فني كبير في نطاق فن الرجز يدفع بنا إلى الإعجاب بشاعرية بشار وبذاكرته ، شاعريته التي واتته بهذا العمل الفني الجيد الخصب المفرط في الطول في ليلة واحدة ، وذاكرته القوية التي استوعبت الأرجوزة على طولها فوعتها وجعلته ينشدها على طولها في عرين الأسد بل عرين الأسدين : ابن رؤبة وابن سلم .

وأما الحكم العام على أراجيز بشار من واقع الأمثلة الأخرى سواء في ذلك المديح أو الهجاء ، فهي على جودتها تخالف فن الرجز من حيث البناء اللفظي والتكوين الفني لأن بشارا مال بأراجيزه إلى طراوة الحضارة وانحاز بها إلى جانب السهولة ، وهو النهج الذي يختلف عن طبيعة نهج الأرجوزة الأصيلة .

وإذا حسب النقاد الأقدمون هذا التحول في غير صالح بشار فإنه في حساب النقد الحديث يعتبر عملية موفقة من عمليات التطوير المعقول والتحول المألوف الذي أصبح بعد ذلك نسقا سار على هديه الشعراء الذين جاءوا بعد بشار حينما كانوا يعمدون إلى قول الرجز .

الهجاء عند بشار :

لعل أهم الموضوعات التي عني بها بشار في شعره كان الهجاء ، وهجاء الناس آفة من آفات المجتمعات التي تنعدم فيها حرمة كرامة البشر ، إنـــه

اعتداء صارخ على الحرمات ما لم يكن لدفع ضر أو لرد اعتداء ، ولقد **كفلت** المجتمعات من واقـــع قوانينها حماية أعراض الناس وكراماتهم مـــن المتطاولين وهبوا ألسنتهم للنيل من مروءة الآمنين وثلب أعراضهم .

ولقد بلغ غرام بشار بالهجاء حدًّا جعله عبداً لهذا الضرب الشائن من ضروب القول ، لقد بدأ منذ أن تمرس في صباه الباكر على قول الشعر يهجو الناس ويسبهم فكانوا يشكونه إلى أبيه الذي كان يضربه ويوقع به الأذى ، وقد مرت بنا قصة الحوار بين أم بشار وبين أبيه في شأن ضرب أبيه له لمسلكه هذا من الناس ، وقولها له أما ترحم هذا الولد الضرير ، وإجابته إياها بأنه يرحمه ولا يود إيذاءه ولكن الناس يشكونه لسلاطة لسانه ، وينتهز بشار فرصة ظهور عاطفة الأبوة فيقول لأبيه : يا أبت إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر ، وإني إن ألمت عليه أغنيتك وسائر أهلي . ويمضي بشار مع أبيه إلى حد تلقينه ما يقوله للناس إذا شكوه ، وهي الآية الكريمة : «ليس على الأعمى حرج» [1]

والشطر الأول من قول بشار في تبرير هجائه للناس وهو الغنى يكشف لنا جانبا قد يكون خفيا بعض الشيء لدى بعض الدارسين ، وهو أن بشارا احترف الهجاء منذ أول عهده بقول الشعر لكي يصيب مالا يغنى به ويوسع به على أبويه وسائر أهله ، ولكي يصيب شهرة وصيتا عاليا بين الناس ، ولذلك فإنه حين أراد أن يعلو ذكره في الشعر وكان لا يزال صبيا صغيرا التفت حوله في محيط الشعراء فلم يجد بينهم من هو أرق قولا ولا أجزل قصيدا ولا أوسع

---

(١) الأغاني ٣/٢٠٨ .

شهرة من جرير أمير الشعر وسيده ، فلم يتردد في أن يجعل من جرير هدفا يقذف إليه ببعض أبيات الهجاء ، ولكن يبدو أنها لم تكن بحيث تَرقَى إلى أسماع جرير العملاق ، فلم يرد عليه ، وبالتالي فوت عليه الفرصة التي سعى إليها ، ولذلك فإن بشارا يقول : هجوت جريرا فأعرض عني واستصغرني ، ولو أجابني لكنت أشعر الناس [1]

إن لبشار فلسفة بعينها في الهجاء ، إنه — دون غيره من أغراض الشعر — من وجهة نظره طريق للغنى ، آمن بذلك صغيرا في جملة قوله لأبيه ، وآمن بذلك كبيرا أيضا حين قيل له : إنك لكثير الهجاء ، فأجاب إجابة ضمنها مبدأه الذي آمن به ولم يحد عنه قائلا : إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر ، وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيُعطى [2]

وإذن فالهجاء عند بشار وسيلة للغنى دون المديح ، وهو مخطىء في ذلك فلقد اقتنى الشعراء المداحون قبله وفي عصره وبعده الأموال والضياع والقصور ، واكبر مثال على ذلك معاصره ورفيقه مروان بن أبي حفصة الذي جمع مئات الآلاف من الدنانير وبعض الضياع ، وسلم الخاسر الذي كان يذهب إلى بيت الخلافة حتى يقدم قصيدة على متن فرس أصيل وقد لبس أفخر الثياب وعاش في ظل النعمة الوافرة ، وهناك من الشعراء الذين اغتنوا من المديح دون غيره غناءا فاحشا أبو تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم كثيرون ، ولكن هناك عقدة الهجاء عند بشار الناتجة عن عقدة سخطه على المجتمع المنبثقة من عقدة آفة «الضرر» التي ولد بها ، ولذلك كان جريئا على أعراض الناس مخيفا أصحاب المروءات يهجو الكبير قبل الصغير مما يذكرنا بقول الشاعر ابن عنين :

هجـوتُ الأكابـرَ فـي جلّـقٍ ورُعْتُ الوضيعَ بسبِّ الرّفيـعْ

(١) الأغاني ١٤٣/٣ .

(٢) الأغاني ٢٠٧/٣ الضبع هو العضد .

وأُخرجْـتُ منهـا ولكنَّنـــي رجعْتُ على رغْـم أنْف الجميعْ

إن مثل هذا الشاعر مخيف لأنه يهجو الرفيع ليخيف العامة غير ذوي المكانة بين قومهم، غير أنه أقل خطرا من بشار لأنه يهوى الهجاء ولكن بشاراً يحترفه ، وفرق كبير بين هاو ومحترف ، وبشار أشد خطر أيضا لأنه كان يهجو أصحاب المكانة دون غيرهم ، والمشهورين من الرجال دون المغمورين ، إن هؤلاء المرموقين من حيث المكانة هم الذين يمكن أن يكونوا صيدا سميناً له فيهجوهم ليأخذ منهم ، وأحيانا كان يستعمل سلاح المدح كما مر بنا في الفصل السابق ، فإن لم يجد فتيلا ويأتي بالمال المطلوب ، استعمل السلاح الأكثر مضاء والأشد إيلاما، فاستغل سليقه الهجاء عنده أبلغ استغلال، وإن اردنا التعبير الصحيح قلنا أفحش استغلال ، لقد فعل ذلك مع سليمان بن هشام بن عبد الملك، وهو واحد من كبار أمراء البيت الأموي وأرفعهم شأنا وأعلاهم منزلة وأكثرهم تأثيرا في الأحداث وتأثرا بها ، فلما لم يجزل له العطاء هجاه ، ولقد فعل ذلك أيضا مع الرجل الثاني في دولة بني العباس على أيام المهدي وهو الوزير يعقوب بن داوود ، مدحه فلم يجزل عطاءه ولم يقربه إلى المهدي فهجاه ، وهكذا كان بشار ظاهرة خطيرة في دنيا الشعر ، متطرفا في قوله ، غاليا في فعله ، جريئا في تهجمه ، لا يقيم وزنا لكبير ولا يخشى خطرا من عظيم ، ومن ثم فقد كان بشار واحدا من الشعراء الذين قتلهم شعرهم ، لقد قيل إن كبير شعراء العربية أبا الطيب المتنبي قتل بسبب بيت شعر قاله ، وهو :

الخيلُ والليلُ والبيـــداءُ تَعْرفُني والطَّعْنُ والرُّمْحُ والقرطاسُ والقلَمُ

خرج عليه قطاع الطريق ممن تربصوا له يريدون سلبه وقتله ، فقاتلهم فأحس بغلبتهم عليه ، فحاول الفرار ونجح في ذلك ، فنادوه بأعلى أصواتهم : ألست القائل كذا ، ورددوا البيت السابق على مسامعه ، فقال : نعم أنا قائله وركبته العزة «بالبيت» وعاد إليهم فلقي مصرعه ، والأمر كذلك في مصرع بشار ولكن بصورة أخرى تختلف عن صورة مصرع المتنبي ، لقد لقي المتنبي

حتفه لبيت شعر رائع قاله وجعل منه مبدءاً تمسك به ، وأما بشار فقد لقي حتفه نتيجة لبذاءة لسانه وفحش قوله وتطاوله على الناس بغير وجه حق ، وظل سادرا في طريقه إلى أن هجا الوزير ابن داوود حينا ، وأخا الوزير حينا آخر فأوغر عليه صدر المهدي حتى قتله بتهمة الزندقة .

ويبلغ غرام بشار بالهجاء واحتفاله به حدا يدفع به إلى محاولة أن يجعل منه فنا من فنون القصيد وأن يجعله وفن المديح على مستوى متكافىء من حيث بناء القصيدة والاحتفال بها وإطالة عدد أبياتها حتى يصل بها إلى ما يزيد عن الخمسين بيتا في بعض الأحيان ، وهو في محاولته هذه يستهل قصيدة الهجاء بالنسيب الذي يطول أحيانا فيبلغ العشرين بيتا ، ويضمن هجائيته الفخر حينا والحكمة حينا آخر [1] ، وبشار في هجائه يتناول الأعراض في أبشع صور التناول ويرمي المحصنات وغير المحصنات من الأمهات والبنات وينال من رجولة الرجال ، ويبلغ في الفحش مبلغا لم يصل إليه شاعر قبله ، ويكثر من ذكر العورات ويختلق المثالب ويعددها إلى الدرجة التي تجعلني أستطيع أن أقول بغير ما تردد أنه يأتي بمعاني من الفحش قد لا تخطر على بال الشيطان نفسه ، ولذلك فإننا نستطيع أن نعلل في يسر السبب الذي من أجله هنأ الناس بعضهم بعضا وجادوا بالصدقات حين جاءهم نبأ مصرعه ، ذلك أنه ليس أصعب على نفس الحر من أن تمس كرامته فضلا عن طحنها طحنا ، وأن يسب عرضه ويصبح مضغة في الأفواه وأنشودة تتردد على الشفاه .

وهجاء بشار ذو مراتب ثلاث ، مرتبة من الانحدار والانحطاط والنيل من الأعراض والمبالغة في الإفحاش إلى مستوى من التردي في وهدة عميقة من القذارة لم يتورط فيها شاعر آخر ، وتخدش حياء السامع ولو كان من طبقة بشار نفسه في الإفحاش ، وأكثر هذا النوع من الهجاء الساقط قاله بشار

---

(١) راجع هجائيته في حماد عجرد الديوان ٣/١٢٠ - ١٢٤ ، وأخرى في الديوان ٢/١٤٥ .

في حماد عجرد ، وابن زيد ، والباهلي وسهيل بن سالم ، إن المرء ليخجل من نفسه وهو يقرأه ، ونحن نعف حتى عن الإشارة إلى صفحاته في ديوان الشاعر .

والمرتبة الثانية من هجاء بشار أقل انحطاطا من المرتبة السابقة ولكنها لا تزيد عن عملية شتم وسبّ من تلك التي لا يحسنها إلا طائفة بعينها من الناس السوقة وغير ذوي المروءة ، وهذا النوع من الهجاء يقصد به التشهير والتحقير والحط من قدر المهجوّ وقومه ، وليس فيه طعم لفن أو رائحة لذوق شعري ، مثال ذلك قوله يهجو باهله [1]

... أَجَرْنَا الباهـلِيَّ مـن المنايـا فلم يشكرْ لنا كـرمَ الجِوارِ
يفاخرُنَـا ونعمتُنَـا عليـه وفيمَ الباهـلِيُّ مـن الفخـارِ
فيا عجبـاً من العبـد المذكَّـى أَيظلمُـني وليس بـذي سوارِ
أَقـولُ لـه ولي فضـلٌ عليـه كفضْـل القَسْوريِّ على الوبارِ
دَنَوْتَ من الكرام ولستَ منهـمْ تَأَخَّـرْ يـا ابـنَ ... الحمارِ
خُلقْنـا سادةً وخُلقْـتَ كلبـاً ككَلْب السُّوءِ يلحـق بالقطارِ
... إذَا انكرْتَ نسبـةَ باهلـيٍّ فرفِّـعْ عنـهُ ناحيـةَ الإزارِ
علي .... سادتِهِمْ كتابٌ موالِي عـامرٍ وسْمٌ بنارِ *

ومن هذا الطراز من الهجاء قوله في حماد عجرد : [2]

نُبِّئْتُ أَنـك يـا حمادُ تَنْبَحُنِي
والكلبُ ينبحُ مربوطـاً بساجُـورِ

---

(١) الديوان ٣/٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(*) ليس بذي سوار أي ليس من الكرام الأغنياء الأحرار ، القسوري الأسد ، الوبار جمع وبر على وزن جحش دابة كالأرنب ولها شبه بالسنور تفترس صغار المعز ، مكان النقاط ألفاظ شديدة الفحش فضلنا ترك مكانها شاغرا .

(٢) الديوان ٣/٢٦٢ ، ٢٦٣ .

أحينَ هَرَّتْ كلابُ الحيِّ من حرسي
واحمرَّ من مُهَج الأجواف تَصْديري
وذبَّ عنِّي غواةُ الناس معتدياً
بابٌ حديدٌ وصوتٌ غيرُ مَنْزُورِ
تَفْشُو إليَّ بأشعار مُلَصَّقَةٍ
مهلاً أبَا عُمَرٍ ما أنْتَ في العيرِ
حَلَفْتُ بالقبلة البيضاءِ مجتهداً
وبالمقام وركن البيت والسُّور
لقد عَقَقْتَ عَجُوزاً جئْتَ منْ .....
ما الشَّيْخَ والدُكَ الأدْنَى بمبرورِ
غَنَّيْتَ في الشَّرْب مندُوباً ومبتدئاً
فهلْ كَفَاكَ التغنِّي في المواخير
غُرُّ القصائد أسْديها وألْحمُها
كأنَّ رأسَكَ منها في أعاصير
اذْكُرْ سُوَاءَةَ ثم افخرْ بظئْرهمُ
وما افتخارُ بُنَيِّ الظِّئْر بالظِّير *

وإلى هنا ونكف عن إتمام القصيدة لأن الأبيات الباقية لا تشجعنا على المضي في إتمامها ، وواضح من هذا الشعر أنه مجرد مجموعة من الشتائم المماثلة

(*) الساجور خشبة تعلق في عنق الكلب . ما أنت في العير أي لا قيمة لك وأصلها فلان ليس في العير ولا في النفير . غرر القصائد أسديها وألحمها أي أنسجها لأن النسيج يتكون من سداء ولحمة . سواءة بضم السين قبيلة من عامر بن صعصعة ، الظئر المرضعة ، والمعنى أن فخر المهجو بسواءة من عامر بن صعصعة الذين رضع فيهم لا يغنيه شيئا .

لأبيات القصيدة السابقة عليها ، غير أن هاتين القصيدتين على الرغم مما بهما من انحدار تعتبران آيتين في الطهر والنقاء إذا ما قورنتا ببقية القصائد التي قالها بشار في حماد عجرد أو الباهلي أو سهيل بن سالم .

وواضح أيضا من الأبيات أن بشاراً يهجو حماداً لأن هذا الأخير كان يهجو بشارا هجاء مرا بأشعار وصفها بشار بأنها ملصقة أو ملفقة . والواقع أن حمادا بدوره قد كان يهجو بشارا هجاء لا يقل إقذاعا عن هجاء بشار له ، ولا يقل إيلاما له عما يسببه هجو بشار للناس من إيلام ، لقد أبكى حماد بشارا حين قال هاجيا :

يـا أَقْبَـحَ مـن قـردٍ إذا مـا عَمِـيَ القِـرْدُ

وحماد هو القائل في بشار : [1]

يـا ابـنَ بُرْدٍ اخْسَأْ فمثْـلُ الْـ
ـكَلْبِ في الناسِ أَنْتَ لا الإنسانِ
بلْ لعَمْرِي لأَنْـتَ شرٌ مـنْ الْكَلْـ
ـبِ وأَوْلَـى منـهُ بكـلِّ هـوان
ولريـحُ الخنزيرِ أَهْـوَنُ منْ ريـ
ـحِكَ يـا ابْنَ الطَّيَّان ذي التُّبَّان *

لقد كان حماد أوجع لبشار في الهجاء مع إقلال من ذكر العورات وكان بشار يخشى بأسه ، ومهما بالغ بشار في هجوه لحماد وأسفّ، فقد كان حماد أكثر إيجاعا له ، وهل هناك أوجع من هذه الأبيات التي يقولها حماد في بشار [2] .

---

(١) الأغاني ٣/١٣٧ .

(*) الطيان الذي يضرب الطوب ، التبان سراويل يلبسها الملاحون والمصارعون .

(٢) أمالي المرتضى ١/١٣٤ .

واللّهِ مـا الخِنزيرُ مـي نَتْنـه يُربْعـه فـي النَّتْـنِ أَوْ خُمْسِهِ
بَلْ ريحُـهُ أَطْيَبُ مـن ريحـهِ وَمَسُّهُ أَلْيَـنُ مـن مَسِّهِ
ووجْهُـهُ أَحْسَنُ مـن وجهِـه ونَفْسُهُ أَفْضَـلُ مـنْ نَفْسِهِ
وعُـودُهُ أَكْـرَمُ مِـنْ عُـودِهِ وجِنْسُهُ أَكْـرمُ مِـنْ جِنْسِهِ

إن أبيات حماد في بشار لا تحمل معنى الهجاء وحسب ، ولكنها تحمل معنى الازدراء والهوان الذي ليس بعده ازدراء أو هوان . على أن حمادا لا يمتنع عن ذكر العورات والافحاش تحشما منه أو طهارة لسان ، لقد كان أقذر هجاء من بشار إذا ما عمد إلى ذكر العورات ، وليست الأبيات الرائية الثلاثة — لقد صار بشار بصيرا .... — ببعيدة عن آذان المتأدبين ، إنها أفحش ما هُجي به أعمى في تاريخ الشعر العربي .

هذا ولا نحسب الباهليّ أبا هشام الذي هجاه بشار — وسلفت أمثلة ضربناها لهجائه قبل قليل — ضحية بريئة من ضحايا بشار ، لقد كال له الصاع صاعين ، بل إن الباهليّ قال بيتين في هجاء بشار ما زال منكسرا — حسب تعبير صاحب الخبر في الأغاني — منذ أن سمعهما ، والبيتان على ما فيهما من طرافة فيهما من الفحش ما يجعلنا نعف عن ذكرهما على هذه الصفحات [1] .

أما الشاعر الذي لم يستطع بشار أن يهجوه رغم تحديه له وهجائه إياه فكان أبا الشمقمق ، الذي كان يفرض أتاوة على بشار ، يأخذها منه بشكل منتظم حتى لا يهجوه أو يتعرض له أو يثير عليه الصبية بأهاجيه السهلة المعاني الخفيفة الترديد .

والمرتبة الثالثة من هجاء بشار من ضروب الشعر اللطيف الذي يمكن

(١) الأغاني ٣/١٤١ .

استقراؤه والاستمتاع ببعض ما حوى من معان مبتكرة أو سخرية فكهه تدفع بسمة في بعض الأحيان إلى الشفاه ، مثال ذلك الأبيات الفكهة التي قالها بشار في هلال الرأي وقد مر ذكرها عند الحديث على فكاهة بشار [1]

ومن قصائد الهجاء التي نلمس فيها الجهد الشعري والبعد عن الإسفاف ما قاله بشار في هجاء قَبِيصَة بن رَوْح بن حاتم بن المهلب بن أبي صفرة ، وأما سبب الهجاء فهو ما قد أشرنا إليه قبلا من أن بشارا كان يهجو من يمسك يده عنه ، وبشار في هجائيته هذه يحاول أن يجري مقارنة بين بخيل وكريم من أبناء أسرة واحدة هما قبيصة بن روح بن حاتم وابن عمه داوود بن يزيد بن حاتم ، وإذا كانت محاسن الكرم تجسم قبح البخيل في مقام المقارنة ، فإن بشارا مكرا منه وخبثا يجري مقارنة بين قبيصة الذي اعتبره بخيلا وداوود الذي اعتبره كريما فقال : [2]

أَقَبِيصَ لستَ وإنْ جهِلْتَ ببالغٍ
سَعْيَ ابنِ عمِّكَ ذِي النَّدَى داوودِ
شَتَّان بَيْنَكَ يا قبيصَ وبينَـــهُ أَنْتَ الذميمُ ولسْتَ كالمحمودِ
اختار داوودُ الثنـاءَ مكارمـــاً واخترْتَ أَكْلَ نقانِـقٍ وثريدِ
... هذا جزاؤُكَ يا قبيصَ فإنَّـهُ جادتْ يداهُ وأَنْتَ قِفْلُ حديدِ
داوودُ محمودٌ وأَنـتَ مذمَّـمٌ عجبـاً لذاكَ وأَنتُما مِنْ عودِ
ولَرُبَّ عودٍ قد يُشَقُّ لِمسْجِـدٍ نِصْفاً وسائِرُهُ لِحُشِّ يهودِي
والحُشُّ أَنتَ لـهُ وذاكَ لمسْجِـدٍ كمْ بَيْنَ موضعِ مَشْلَحٍ وسُجُودِ

---

(١) الأغاني ٣/١٦٨ .
(٢) الديوان ٣/١١٠ .

وعلى رغم حدة الهجاء في القصيدة فإننا نشعر أن فيها فكرة تبناها الشاعر ثم انطلق منها وفرَّعها ، ثم صدق نفسه فيما خلعه على بطلي أبياته من صفات وأخذ يبدي عجبا ودهشة لحسن هذا وقبح ذاك مع أنهما من أصل واحد ، ثم لايابث أن يعلل لنفسه سبب دهشته تعليلا قبيحا هو نفسه النتيجة التي أراد أن يصل إليها وهي الهجاء ، فقد يشق العود أو العمود نصفين ، نصفا يستعان به في إنشاء مسجد ، ونصفا يستعمل في بناء بيت خلاء في منزل يهودي .

إنها صورة شديدة القبح في مجال الهجاء ، ولكن فيها فكرة أحسن صوغها وبعد بها الشاعر عن الفحشاء وإن لم يبعد عن الاعتداء .

ومن أمتع أبيات بشار في الهجاء ما قاله في العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس أخي الملك العباسي أبي جعفر المنصور ، وكان قد استمنحه فلم يمنحه ، والأبيات ممتعة من حيث هي فن شعري وبراعة في الصوغ موشاة بالحكمة محسنة بقضايا فكرية وعلل منطقية ، وليس من حيث كونها اعتداء على إنسان إذا أعطى فمن فضله وإذا منع فهو حر في ماله . والأبيات قائمة على توليد المعاني التي سهر بشار على إتقان صناعة الإطار اللفظي والمحور الشعري اللذين وضعها فيهما . قال بشار [1]

ظِلُّ اليَسَارِ على العبَّاسِ ممـدُودُ
وقلْبُـهُ أبـداً في البُخْـلِ مَعْقُـودُ
إنَّ الكريمَ لَيُخْفِي عنكَ عُسْرَتَهُ
حتَّـى تـراهُ غَنِيًّـا وهـو مَجْهُودُ
وَلِلْبَخِيـلِ عـلى أَمْوالِـهِ عِلَـلٌ
زُرْقُ العُيونِ عليها أَوْجُهٌ سُودُ *

(١) الأغاني ١٩٥/٣ والديوان ١٢٧/٣ ، ١٢٨ .
(*) العلل والتعلات هي المعاذير ، ولقد شخص الشاعر هذه العلل فجعلها كالأشرار من ذوي الوجوه السود والعيون الزرقاء وقد كان العرب يكرهون العيون الزرقاء ويستبشعونها .

إِذَا تكرَّهْتَ أَنْ تُعْطِي القليلَ ولَمْ
تَقْدِرْ عَـلَى سَعَـةٍ لمْ يَظْهَـرِ الجُودُ
أَوْرِقْ بِخَيْرٍ تُرَجَّى للنَّـوَالِ فمـا
تُرْجَى الثِّمَارُ إِذَا لم يُورِق العُودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تَمْنَعْكَ قِلَّتُـهُ
فُكُلُّ مَا سَدَّ فَقْـراً فهـو محمـودُ

على أنه مهما قيل في روعة هذه الأبيات ، ومهما قيل في براعة الشاعر في سابقاتها تلك التي قيلت في هجاء قبيصة بن روح بن حاتم أو هلال الرأي ، فإنها اعتداء على حرمات الناس ، وجرأة من بشار كان لا بد لها من رادع ، وظل بشار سادراً في عدوانه يستمنح العظماء فيمنح حينا ويمنع حينا آخر ، وهو في كل تلك الأحوال قد عاش عيشة طيبة ، ولكن آفة الهجاء التي نمت معه صغيرا وسرت في عروقه يافعا ، وأتت ثمارها مالا ومنالا كبيرا ، دفعت به إلى هجاء كبير وزراء الملك العباسي المهدي فقال يهجو يعقوب بن داوود وينال من قدره على خطره ويحط من مقامه على رفعته ويسخر منه على صلتـه بالمهدي : (١)

لا يَـأْيَسَنَّ فَقِيرٌ مِـنْ غِنىً أَبَـداً
بَعْدَ الذي نالَ يعقوبُ بـنُ داوودِ
قد صار مِنْ بَعْدِ إِشْرافٍ على تَلَفٍ
وبَعْدَ غُلٍّ على الزِّنْدَيْنِ مشـدُودِ
أَخـاً لمهـدِيِّ خلْـقِ اللهِ كُلِّهِـمُ
يُوفَى بـه فَوْقَ أَعْنَـاقِ الصَّنَادِيدِ

(١) الديوان ٣/٩٣ ، ٩٤ .

لئِنْ حُسِدْتَ على مَا نِلْتَ مِنْ شرفٍ
لقد عَنِيتَ زماناً غَيْرَ مَحْسُودِ
بَنِي أُمَيَّةُ هُبُّوا طال نَوْمُكُمُ
إنَّ الخليفةَ يعقوبُ بنُ داوودِ
ضاعَتْ خلافَتُكُمْ يا قَوْمُ فالتمسُوا
خَلِيفَةَ اللهِ بين الزِّقِّ والعُودِ

لقد خشي بشار بطش المهدي وهو يهجو وزيره فتحايل على ذلك أول الأمر حين جعل منه «مهديّ خلق الله كلهم» ولكنه كان يكره المهدي أيضا ، فغلبت طبيعته حرصه ، ودفعه الشطط الذي تعود أن يركبه إلى هجاء الخليفة نفسه حين جعله غارقا بين الزق والعود ، فكانت هذه الأبيات السبب المباشر في قتل بشار والتخلص من شر لسانه على ما ألمحنا قبل قليل .

ومهما كان الأمر فشعر بشار في الهجاء سبة في جبين الفضيلة وحطة في وجه القيم الأخلاقية وإحدى النقاط السوداء في صفحة الشعر العربي إن جاز لنا أن نسمي هذه الأهاجي شعرا ، وإذا كان لا بد من استثناء بعض الأبيات الهجائية وضمها إلى ديوان شعر العرب فهي أبياته في العباس بن محمد التي مر ذكرها .

غزل بشار :

لقد كان بشار من أقدر شعراء عصره على إنشاء الغزل والتفنن في تفتيق أكمامه وتوليد معانيه ، ولقد سبقت الإشارة إلى أن عمى بصره كان واحدا من الأسباب التي جعلته يقول ألوانا جديدة من الشعر لم تجر على ألسنة شعراء قبله ،

هذا فضلا عن تفرغه وفراغه وغشيان العديد من النساء مجلسه ومحادثتهن إياه ومكاتبته لبعضهن فجرى الشعر عذبا على لسانه متفجرا من معين ملكته الفياضة كما يتفجر الماء الزلال عن ثرّ الينابيع ، ومن ثم جرى غزله على كل لسان حتى حفظه الناس ولم يبق بالبصرة غزل ولا غزلة إلا ويجري شعر بشار على لسانه إلى آخر هذا الخبر الذي أوردناه أكثر من مرة فيما مضى من صفحات .

وإذا كان هجاء بشار قد صيغ في نطاق ثلاث مراتب ، بذيء مخجل ، وشتم وسباب ، ثم هجاء في نطاق فكرة لطيفة وعبارة لماحة ، فإن من يستعرض غزل بشار يستطيع أيضا أن يجعله في مراتب ثلاث هي مرتبة الإسفاف وخدش الحياء ودغدغة الغرائز والنيل من مناعة الحرائر ، وهذه المرحلة قد سبق الحديث عنها والتمثل ببعض ما يليق أن يتمثل به من شعره فيها .

بقيت مرتبتان من مراتب غزل بشار ، مرتبة الغزل الذي توشيه معاني العفة وترصعه طهارة البداوة ويزدان بالجزالة والاشراق أسلوبا ، والموسيقى وحسن الجرس إيقاعا ، ومرتبة أخرى هي مرتبة الغزل المتأثر بحياة الحضارة نتيجة لمواجهة النساء وزيارتهن لندوته والحديث إليهن ومواعدته بعضهن ، ولهذا الضرب من الغزل سمات خاصة أهمها السهولة واليسر والنزول إلى مستوى العامة مع اختيار البحور القصيرة والقوافي العذبة حتى يسهل حفظه ويستهوي الناس ترديده .

فأما الغزل الذي تميز بملامح البداوة وتوشّى بسمات الطهر ، فمنه بيتاه اللذان سبق ذكرهما ولا بأس من تكرارهما :

أُنُسٌ غَرَائِرُ مـا هَمَمْـنَ بِرِيبَـةٍ
كظِبَاءِ مكَّـةَ صَيْدُهُـنَّ حـرامُ

يُحْسَبْنَ من أُنْسِ الحديثِ زوانياً
ويَصُدُّهُـنَّ عـنِ الخَنَـا الإِسْلامُ

إن هذين البيتين من أدق وأرق ما وصفت به المرأة الشريفة الممراحة التي يُظَنُّ بها الانحراف لمجرد كلمة طريفة تقولها أو جملة مرحة تصدر عنها.

ومن هذا النسق من الغزل بائية بشار في صاحبته «عبدة» وكانت قد خرجت مع زوجها من البصرة إلى عُمان ، لقد عمد بشار في قصيدته هذه إلى التزام نهج مدرسة جميل وزملائـه من المحبين العذريين نصاعة عبارة وحلاوة تسلسل ورقة نبرات وجمال إيقاع مع محاولة تبدو صادقة في التعبير عن وجد وصبابة بعيدتين عن الخنا والدنس، بالقدر الذي يستطيعه بشار في التحامل على نفسه التي نشأت على الفسق وجبلت على الخطايا ، إن بشارا يرسم على منوال ابن الدمينة في بائيته المشهورة فيقول : (١)

لقَدْ زَادَنِي مـا تعلميـنَ صبَابةً
إليْـكِ فَلِلْقَلْبِ الحزيـنِ وَجِيبُ
وما تُذْكَرِين الدَّهْرَ إلاَّ تهلَّلَـتْ
لعينيَّ مِـنْ شوقٍ إليـكِ غُـروبُ
أَبِيتُ وعيْنِـي بالدمـوعِ رهينـةً
وأُصْبِـحُ صبّـاً والفـؤادُ كئيبُ
إذَا نطـق القـومُ الجلوسُ فإنني
أُكِبُّ كـأَنِّي مـن هواكِ غَرِيبُ
يقولـون داءُ القلبِ ، جِنٌّ أَصابَهُ
ودائي غزالٌ في الجِحَـالِ رَبِيبُ

(١) الديوان ١/١٧٩ ، ١٨٠ .

إذَا شِئْتُ هاج الشوقُ واقتادَهُ الهوى
إليكِ من الرِّيحِ الجَنُوبِ هُبُــوبُ
هَوَى صاحبِي ريحُ الشَّمالِ إذا جرتْ
وأَهْوَى لِقَلْبِي أَنْ تَهُــبَّ جَنُوبُ
ومــا ذاكَ إلاَّ أَنَّهــا حيــن تَنْتَهي
تَنَاهَى وفيها مِنْ « عُبَيْدَةَ » طِيبُ

لا شك أن بشارا يطوع المعاني لعواطفه في هذه الأبيات العذبة تطويعا خلابا ويربط هواه بريح الجنوب الوافدة من عمان حيث مستقر صاحبته إلى البصرة حيث مقامه ومستقره لأنها تنتهي إليه حاملة عطر الأحباب وطيبهم.

ويمضي بشار في قصيدته هذه الجميلة التي تذكرنا بطهر الشعر العذري ورونقه حين يضفي أسبابا من التقى على سلوكه وألوانا من العفة على حبه في سؤال وجواب ، وتعليق وتحليل ، وبث شكوى ، وانتظار أمل ، وتقرير تمنّ في قوله :

وقائلةٍ : إنْ مُتَّ في طلــبِ الصِّبــا
فلا بُدَّ أَنْ تُحْصَى عليكَ ذُنُــوبُ
فَرُمْ توبــةً قبــلَ الممــاتِ فإنَّنِي
أَخافُ عليكَ اللهَ حيــنَ تَــؤُوبُ
فقلتُ لها : لمْ أَجْنِ في الحُبِّ بَيْنَنَا
أَثَاماً عــلى نفسٍ فَمِمَّ أَتُــوبُ ؟
أَرَانَا قريباً في الجِــوارِ ونَلْتَقِــي
مِــرَاراً ولا نَخْلُــو وذاكَ عجيــبُ

ألا لَيْتَ شعري هلْ أَزُورُكِ مــرةً
وليس علينا يا « عُبَيْدُ » رقيــبُ
فَنَشْفِي فؤادَيْنَا من الشَّوْقِ والهوى
فإنَّ الذي يَشْفِي المحــبَّ حبيــبُ

ويمضي بشار في محاولاته الغزلية التي يستهدف من خلالها أحيانا الغوص إلى معاني الحكمة يقرن بينها وبين الحب ، وتجاريب الحياة يمزج بها عذاب العشق وويلات الفراق ، فيقدم لنا قصيدة غزل أغرب فيها كل الإغراب من حيث استجلاب كثير من ألوان الحكمة وأنواع القيم وتضمينها صلب قصيدة عشق ، مختارا قافية صعبة هي قافية الضاد ، وبشار بالإضافة إلى ذلك كله يحشو القصيدة وهي بدوية النهج بعض ألفاظ الحضارة وتعبيراتها فيقول :[1]

غَمَضَ الجديدُ بصاحبيْــكَ فَغَمِّضا
وبَقِيتَ تطلبُ في الحِبالَــةِ مَنْهَضَا
وكأَنَّ قلــبي عنــد كــلِّ مصيبةٍ
عظمٌ تكــرَّرَ صدْعُــهُ فَتَهيَّضَــا
وأَخٍ سلوتُ لــه فأَذْكَرَهُ أَخٌ
فمضَى ، وتُذْكِرُكَ الحوادثُ ما مضَى
فاشربْ عــلى تَلَفِ الأَحبَّةِ إنَّنَــا
جَزَرُ المنيَّــةِ ظاعنيــن وخُفَّضَــا
ولقد جريْتُ مع الصِّبا طلْقَ الصِّبا
ثم ارعويْتُ فلم أَجِدْ لي مَرْكَضَا

(١) أمالي المرتضى ١٣٣/٢ .

وعلمتُ ما علمَ امروٌ في دهـرِهِ
فأَطَعْـتُ عُذَّالي وأعطيْـتُ الرِّضا
وصحوتُ من سُكْرٍ وكنـتُ مُوَكلاً
أرعى الحمامـةَ والغرابَ الأَبْيَضَا
ما كلُّ بارقةٍ تجـودُ بمائِهـا
وكذاك لـو صدق الربيعُ لَرَوَّضَـا
ومُنيفةٍ شرفـاً جعلتُ لهـا الهوى
إمَّـا مكافـأَةً وإمـا مَقْرِضَـا
حتى إذا شَرِبَـتْ بمـاءِ مودَّتِـي
وشَرِبْـتُ بَـرْدَ رُضَابِهـا مُتَبرِّضا
قالـتْ لِتِرْبَيْهـا اذهبَـا فتحسَّسَا
ما بالُه تـرك السلامَ وأَعْرَضَـا
قد ذقْتُ أُلْفَتَـهُ وذقتُ فراقَـهُ
فوجدتُ ذَا عَسَلاً وذَا جَمْـرَ الغَضَا
يا ليتَ شعرِي فِيمَ كانَ صُدُورُهُ
أَأَسَأْتُ أَمْ رَعَـدَ السحابُ وأَوْمَضَا
ويْلِي عليـهِ وويْلَتِـي مِـنْ بَيْنِهِ
كان الذي قد كان حُلْمـاً فانقضى
سبحانَ من كتبَ الشقاءَ لذي الهوى
ما كان إلاَّ كالخِضَابِ فقد نَضَا(*)

(*) الجديد الزمان ، ظاعنين وخفضا أي راحلين ومقيمين، الحمامة المرآة ، الغراب الأبيض=

ولبشار العديد من القصائد الغزلية التي سلك فيها النسق الأموي من حيث الجزالة وإبداء العشق على صورة الصبّ المعمود . فصاحبه التوفيق في بعضها وجانبه النجاح في أكثرها على الرغم من أن أصحاب الدراسات الأدبية والطبقات من القدامى كانوا يجتزئون البيتين والثلاثة من القصيدة فتبدو عذبة بارعة . فإذا ما راجعنا الديوان وجدنا الأبيات التي جاء بها الأصفهاني أو المرتضى أو الحصري مبثوثة في القصيدة في أماكن متباعدة إذا ضم بعضها إلى البعض أعطت البريق الذي يستهوي الكثيرين لشعر بشار . أما القصائد نفسها فهي متوسطة أو دون المتوسطة .

يذكر المرتضى بيتين جميلين لبشار يعجبان القارىء كل الإعجاب : [1]

أَصْفَراءُ لا أَنْسَى هواكِ ولا وُدِّي
ولا ما مَضَى بَيْنِي وبَيْنَكِ مِنْ عَهْدِ
لقد كان ما بَيْنِي زمانــاً وبيْنَهــا
كما كان بين المِسْكِ والعَنْبَرِ الوَرْدِ

فإذا ما راجعنا القصيدة في الديوان [2] وجدناها عشرين بيتاً سوادها متوسط ، وأقلها جيد . وبعضها ضعيف ، ووجدنا أن الشريف الرضي جاء منها بالبيتين الأول والأخير :

ويذكر الأصفهاني أبياتا عذبة لبشار قالها على طريقة الغزل الإسلامي في امرأة فارسية اسمها خُشّاب مطلعها :

أَخُشَّابُ حقاً أَنَّ دَارَكِ تَزْعَجُ وأَنَّ الذي بَيْنِي وبَيْنَكِ يَنْهَجُ

= الشيب ، الطلق والشأو والشوط بمعنى واحد ، ارعويت أقلعت عما كنت فيه ، روّض الربيع أنبت روضا ، المنيفة المرأة العالية ، المتبرض الشارب البرض الماء القليل ، نضا الخضاب زال.

(١) الأمالي ١٤٢/٢ .

(٢) الديوان ٣١١/٢ .

وفيها يقول : [1]

فوَاكبِداً قد أَنْضَج الشوقُ نِصْفَهَا
ونصــفٌ على نارِ الصَّبَابَةِ يَنْضَجُ
وواحَزَنــاً منهــنَّ يَحْفُفْــنَ هوْدَجاً
وفي الهودج المحفوفِ بدرٌ مُتَوَّجُ
فإنْ جِئْتَها بين النساءِ فقــلْ لهــا
عليكِ سلامٌ ، مَاتَ مَنْ يَتَزَوَّجُ
بكيْتُ وما في الدَّمْعِ مِنْكِ خليفــةٌ
ولكــنَّ أحزانــي عليــكِ تَوَهَّــجُ

هي أبيات رقيقة حقا او كانت مستقلة في الغزل ، ولكننا إذا عدنا بها إلى أمها، أي القصيدة الأم، وجدنا صاحب الأغاني اختارها على غير ترتيب من قصيدة تبلغ عشرين بيتا مــن الغزل دون المتوسط [2] ثم أجرى بعض التحسينات والتبديلات في الألفاظ حتى يكون بشار سيد الشعراء في كل فن من فنون الشعر .

الواقع أن بشارا قال غزلا كثيرا في نساء وردت أسماء بعضهن في ديوانه مثل عبدة أو عبيدة ، وخوش آب (خشاب)، وصفراء ، وحمدة ، وخليدة ، ونساء أخريات لم يبح باسمهن وأحيانا كان يكني بهن ، وقد عمد بشار كما ذكرنا إلى انتهاج مسلك مدرسة الغزل الإسلامية على ما مر بنا من أمثلة فحالفه التوفيق في بعض قصائده وخالفه في أكثرها .

---

(١) الأغاني ٣/١٨٠ .
(٢) الديوان ٢/٩١ – ٩٥ .

ولكن بشارا وهو الرجل الذكي الذي يزن شعره حق ميزانه يحس أنه لا يستطيع أن يلحق بالغزلين الإسلاميين في مضمارهم الذي دربوا عليه ومرنوا فيه، فوسع أساليبهم وجزالتهم وعواطفهم وأعماقهم وموسيقاهم وطهر العذريين منهم، ومن ثم كان بشار في هذا الضرب من أسلوب الغزل صورة مهتزة لعمر ومدرسته حينا ولجميل ومدرسته حينا آخر، وبسرعة يقنع الشاعر نفسه بأن: ما له ولهذا النهج المطروق ممن هم أقدر منه على سلكه؟ إنهم أبناء الحجاز وبنو نجد، حيث البداوة مع رقة والبساطة مع عاطفة والطبيعة مع سماحة، وذلك كله زاد ينفح الشاعر خيرا كثيرا، أما هو فابن البصرة، حيث الناس غير الناس والعادات غير العادات والثقافة غير الثقافة، ومجمل القول فإن المجتمع غير المجتمع، فليقل بشار الغزل في ظل مجتمعه ومن منطلق طبيعته، ولا شك أنه سوف يمد شاعريته القديرة بلون جديد من الغزل المتميز عن غزل الحجازيين والنجديين إطارا ومحتوى وشكلا وموضوعا، ويكون لبشار في نهجه الجديد المنبثق من طبيعة الحياة في مجتمعه ما أراد، فيقول الشعر الذي خلب ألباب الناس، والغزل الذي فتن العذارى ورددته ربات الخدور، لقد سمحت طبيعة المجتمع البصري للنساء أن يزرن بشارا في بيته الذي كان يطلق أسماء بعينها على حجراته وباحاته، فيلتقي الشاعر بهن تارة في مجلس بالدار أسماه «الرقيق» وتارة أخرى في مجلس آخر اسمه «البردان».

طرق خمسة من النساء باب بشار وهو معتكف عن الناس بعد عملية حجامه، فطلب من غلامه أن ينظر من بالباب، فإذا بالنساء الخمس يطلبن مقابلته لسماع شيء من شعره ينحن به، فسمح لهن بالدخول على أن يأكلن من أكله ويشربن من شرابه ففعلن، فلما انصرفن بلغ الحسن البصري — وهو كبير علماء البصرة — أمر بشار ومشاركة النساء له طعامه ونبيذه، فعاب الحسن على بشار وعلى النسوة ما جرى منه ومنهن، وكان النسوة فيما يبدو ذوات دل وصبا فأوحين مع اعتراض الحسن البصري، وكان بشار يلقبه بالقسّ، هذه الأبيات: [1]

(١) الأغاني ٣/١٦٩، ١٧٠.

لمَّـا طَلَعْـنَ مـن الـرُّقِيـ ـق عـليَّ بـالبـردانِ خمْسا
وكـأنَّهُـنَّ أهِلَّـةٌ تحـتَ الثِّيَـابِ زَفَفْنَ شَمْسَا
بَاكَـرْنَ عِطْـرَ لَطِيمَـةٍ وغُمِسْنَ فـي الجَادِيْ غَمْسَا(*)
لمَّـا طَلَعْـنَ حَفَفْنَهـا وأَصَخْـنَ مـا يَهْمِسْنَ هَمْسَا
فسألْنَنِـي مَـنْ فـي البُيُـو تِ فقلـتُ مـا يُؤْوِينَ إنْسَا
ليـتَ العيـونَ الطـارفـا تِ طُمِسْنَ عنَّـا اليـوْمَ طَمْسَا
فَأَصَبْـنَ مِـنْ طَـرَفِ الحدِيـ ـثِ لَذَاذَةً وَخَرَجْـنَ مُلْسَـا
لـولا تَعَرُّضُهُـنَّ لـي يـا قَسُّ كُنْتُ كأَنـت قَسَّا

لا شك أن هذا درب جديد مهدته لبشار وسوته له طبيعة البيئة الحضرية ، وهو ضرب من القول حضري من قمة الرأس إلى أخمص القدم كما يقولون إذا وقع على سمع بدوي رمى صاحبه بالتخنث ، ولا زلنا نذكر بيت جميل [1]

ألاَ أيُّها العشاقُ وَيْحَكُمُ هُبُّـوا
أُسَائِلُكُمُ هلْ يقتلُ الرجلَ الحُـبُّ

فوصف مصراع الأول من البيت بأنه أعرابي في شملة ، ووصف المصراع التالي بأنه مخنث من مخنثي العقيق ، وتبعا لذلك فإن مجتمع البداوة يرفض هذا النهج من الشعر وهذا الأسلوب الناعم المترف من التعبير ، ولكن بشارا لكي يجدد نفسه ويوشي شعره بشيء غريب يلفت نظر الناس إليه عمد إلى ذلك عمدا إن لم يكن اضطر إلى ذلك اضطرارا .

لقد مر بشار بمرحلة وسطى في شعره بين البداوة والحضارة حين أنشد :

(*) اللطيمة نافجة المسك ، الجادي الزعفران .

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الكتاب .

مِنْ المفْتُـونِ بشَّارِ بْـن بُـرْدِ
إلى شَيْبَـانَ كَهْلِهِـمُ وَمُـرْدِ
بـأَنَّ فَتَاتَكُـمْ سَلَبَـتْ فـؤادِي
فَنِصْفٌ عندهـا والنِّصْفُ عِنْدِي [1]

لقد سمعته امرأة كانت تزور قريبة لها في بني عقيل موالي بشار فعجبت كل العجب لهذا النسق الغريب على أذنها من الشعر ، إنه تعبير جديد أن تسلب الفتاة نصف قلب الرجل وتترك له النصف الآخر ، ولكن بشارا كان كما ذكرنا في مرحلة ما بين المرحلتين ، فترة الانتقال من البداوة إلى الحضر ، فهو تارة يجعل فؤاده نصفين كما هو الحال في البيت السابق ، وتارة أخرى يكون «التنصيف» من نصيب كبده كقوله البارع : [2]

فواكبداً قد أَنْضَجَ الشوقُ نِصْفَها
ونِصْفٌ على نَارِ الصَّبَابَةِ يَنْضَجُ

إنه أمر طبيعي أن يتدرج الشاعر في تطوير شعره وتحويره حتى ينتقل من المرحلة التقليدية إلى المرحلة البيئية ، لقد حاول بشار أن يكون تقليديا في غزله فأسعفته قريحته حينا وخذلته في أكثر الأحيان ، فليتخلّ عن أرستقراطية القول وينزل إلى العامة بشعر «حديث» وكان من الجرأة بحيث فعل ، فصفقت له العامة وأعجب به بعض الخاصة ، ولكنه خرج من هذا القول ناجحا ، لأن بضاعته نفقت ، وشاعريته لمعت ، وقصائده ذاعت وانتشرت ، فقد كان بارعا في تحواله ، لم يترك الشعر وإنما ترك منهجا منه وظل محافظا على فن الشعر من حيث هو شعر ، أنه يخيل إلينا لفرط الرقة الفاشية في أبياته السينية أن الشاعر يمسك

---

(١) الأغاني ٢/١٤٣ .
(٢) الأغاني ٣/١٨٠ .

بقلم من ذهب ، ويغمسه في مداد من عنبر ، وقد وضع أصابعه في قفاز من حرير ، وبكلمة أخرى لقد كان بشار مترفا في أبياته ترف المدينة نفسها ، ألفاظ خفاف ، سهولة دون تكلف ، بحر قصير ، قافية ناعمة ، عبارة مترفة ، ولا بأس أيضا إذا قلنا عبارة جديدة وبخاصة حين أدخل أداة التشبيه على الضمير المنفصل في قوله :

لـولا تَعَرُّضُهُـنَّ لـي يـا قَسُّ كنْتُ كأَنْتَ قَسَّا

فعبارة كأَنْتَ عبارة حضرية فيها طراوة شديدة إن لم نقل إنها عامية ، ولكنها مع ذلك لطيفة الوقع على الأذن قبلها مجتمعه وقبلناها منه .

ويدلف بشار إلى الباب الحضري من دنيا الغزل فيما يشبه الاقتحام حينما يجعل المسواك وسيلة لغزله على اعتبار ما بين السواك والثغر وثناياه من علاقة ، ولكن ذلك ليس بالأمر المهم ، فإن أكثر من شاعر قبل بشار أو على عصره قد طرقوا موضوع السواك طرقا طريفا وجعلوا منه مدخلا لطيفا إلى الغزل ، أما بشار فإنه يولد معنى جديدا في الغزل حين يجعل من العيون موضعا للقبل مثلها في ذلك مثل الثغر ، يقول بشار في معناه البديع الطريف : (١)

وَهَبْتِ لهُ على المِسْوَاكِ رِيقـاً فطـابَ لـهُ بِطِيـبِ ثَنِيَّتَيْكِ
أُقَبِّلُـهُ عـلى الذِّكْرَى كـأَنِّي أُقَبِّلُ مِنْهُ فَاكِ ومُقْلَتَيْـكِ

ألم نقل إن بشارا في ميدان غزل الحضارة أطول ذراعا وأوسع باعا ، وأقرب إلى الخلق والإبداع والإتيان بالصورة الخلابة والمعاني الجذابة ، إن هذه المعاني الجديدة والصياغة الجديدة أيضا كانت واحدا من الأسباب التي وفرت لشعر بشار الانتشار على الألسنة في المجالس والمنتديات .

ويغرم بشار بالغزل وصفا ليظهر للناس أنه قادر على محاكاة المبصرين

---

(١) زهر الآداب ٤٢١/١ .

من الشعراء فيما يحتاج فيه إلى العين ، وإن كان ما قاله من غزل جاء وحيُه عن طريق الأذن أفضل وأعمق وأرق ، ولكنها طبيعةُ المجاهَدَة التي درب بشار عليها ، وروح المنافسة التي تدفع بالشاعر إلى إثبات وجوده فنيا في مختلف موضوعات الشعر ، بل في مختلف نواحي الموضوع الواحد ، وينجح بشار في انتهاج طريقة المبصرين في الغزل ، وتلقي محاولته نجاحا عند العامة وبعض الخاصة في هذه الأبيات التي قالها في صديقه واعدته على اللقاء ثم ثم أخلفت موعدها ، فلما أرسل يعاتبها اعتذرت بمرض أصابها : (١)

يـا لَيْلَتِـي تـزدادُ نُكْـرَا ... مِنْ حُبِّ مَنْ أَحْبَبْتُ بِكْرَا
حَـوْراءُ إنْ نظـرتْ إليْـ ... ـكَ سَقَتْـكَ بالعينين خمْرَا
وكـأَنَّ رجْـعَ حَدِيثِهـا ... قِطَعُ الرِّياضِ كُسِينَ زَهْرَا
وكـإنَّ تحـت لسانِهـا ... هاروتُ ينفُثُ فيـه سِحْرَا
وتَخَـالُ مـا جَمَعَـتْ عليْـ ... ـهِ ثيابَهـا ذهباً وعِطْـرَا
وكـأَنهـا بَـرْدُ الشَّرا ... بِ صفَـا ووَافَقَ مِنْكَ فِطْرَا
جِنِّيَّـةٌ إنْسِيَّـةٌ ... أَوْ بَيْنَ ذاكَ أَجَلُّ أَمْـرَا
وكَفَـاكَ أَنِّـي لـم أُحِـطْ ... بِشَكَاةِ مَنْ أَحْبَبْتُ خُبْرا
إلاَّ مقـالَـةَ زَائـرٍ ... نَثَرتْ لِيَ الأَحـزانَ نَثْـرا
مُتَخَشِّعـاً تحـتَ الهـوَى ... عَشْراً وتحتَ الموْتِ عَشْرَا

ليس من شك في أن في القصيدة رقة الحضارة ورونق النضارة، وقد سبق أن عرضنا لها بشيء من التحليل ، ومقارنة وصف بشار للحديث من خلالها بوصف أبي حية النميري أستاذ من عرض لهذا الموضوع من الشعراء ، ورددنا

(١) الأغاني ٣/١٥٥ .

معاني بشار إليه ، كما ألمحنا إلى رأي بعض الدارسين المحدثين في هذه الأبيات وتعريتها من الأسباب التي أثارت حولها ضجيج الاستحسان ، غير أن الأمر الذي لا شك فيه أن القصيدة في جملتها جديرة بأن تثير شيئا من حسن القبول عند القارىء الذواقة لما فيها من سرعة الحركة ورشاقة الانتقال من معنى إلى آخر ، والروح الشعرية الإنسيابية التي تشيع في القصيدة على قصرها من أول بيت إلى آخر بيت .

وإذا كانت أبيات الغزل الطريفة السابقة لم تلق جماع الاستحسان ووجد من شكك في ذوق النقاد القدامى للغلو في استحسانها ، فإن بشارا في نهجه هذا الميسّر المبسّط قد رقّ وعذب حتى سحر ملوك الشعر في قوله :[1]

أيُّهـا السَّاقيـانِ صُبَّـا شَرابِـي
واسْقِيَانِي مِـنْ رِيقِ بَيْضَاءَ رُودِ(*)
إنَّ دَائي الصَّدَى وإنَّ شِفَائـي
شَرْبَـةٌ مـن رُضَابِ ثَغْـرٍ بَـرُودِ
عندها الصَّبْـرُ عن لقائي وعِنْدِي
زَفَـرَاتٌ يـأكُلْـنَ قلـبَ الجَلِيدِ
ولها مَبْسِمٌ كَغُـرِّ الأَقـاحِـي
وحديثٌ كالْوَشْي وَشْيِ البُـرُودِ
نَزَلَتْ في السَّوَادِ من حَبَّـةِ القَلْـ
ـبِ ونالـتْ زيـادةَ المُسْتَزِيـدِ
ثُـمَّ قالتْ نَلْقَـاكَ بعـدَ ليالٍ والليـالي يُبْلِيـنَ كُـلَّ جَدِيدِ

(١) زهر الآداب ١/٤٢٠ .
(*) الرود الشابة الناعمة الحسناء .

لا أُبَالي مَنْ ضَنَّ عنِّـي بوصـلٍ
إنْ قَضَى اللهُ منكِ لي يـومَ جُودِ

لقد كان الوليد بن يزيد أشعر ملوك العرب يردد هذه الأبيات من شعر بشار ويطرب لها ويشرب عليها ، بل قيل إنه بكى عند إنشادها حتى مزج كأسه بدمعه[1] والأبيات لا شك من الحسن بمكان غير أنها لا تستبكي رجلا فضلا عن ملك ، ولكن لعلها صادفت معنى معينا في قلب الملك المستهتر العربيد فاستدرت دموع عينيه .

وفي نطاق تقليد المبصرين من الشعراء وتحديهم يفتتن بشار بسحر العينين سماعا بطبيعة الحال وليس من قبيل المعاناة ، ومن الغريب أنه يصور سحر العينين وأثره في المحب إلى الدرجة التي لم يستطع أن يلحق به في ذلك مبصر ، الأمر الذي كان يجعل أبا تمام ، وهو من هو ، يقول : ما رأيت شعرا أغزل منه [2] ، وأما الأبيات التي نالت إعجاب أبي تمام وإعجاب كل أديب يتذوق المعاني العذبة والصوغ الرائق فهي :

زَوِّدِينَـا يـا عَبْدَ قبـلَ الفِـرَاقِ
بِتَـلاقٍ وكيـفَ لِـي بالتَّلاقِـي
أنَـا واللهِ أَشْتَهِـي سِحْـرِ عَيْنَيْـ
ـكِ وأَخْشَى مَصَـارعَ العُشَّاقِ
أَمَتِـي مِنْ بَنِي عَقِيلِ بْـنِ كَعْبٍ
مَوْضِعَ السِّلْكِ مِنْ طُلاَ(*) الأَعْنَاقِ

(١) الأغاني ١٨٧/٣ .
(٢) زهر الآداب ٤٢١/١ .
(*) الطلا أصول الأعناق .

وبيت القصيد هنا هو البيت الأوسط وأما البيتان الآخران فغير جديرين بالالتفات .

والشعراء العشاق يشكون ، ولبعضهم مصارع حقيقية خشيها بشار في بيته الفريد السابق ، وقد كان مصرعه بطريق آخر ، طريق التطاول على الناس من كرام وغير كرام ، ولكنه يريد أن يتشبه بالعاشقين الذين يضنيهم الشوق ويهزل جسومهم الوجد وتقتلهم الصبابة ، فيقول في ذلك ، أي في الشكوى من جوى الحب شعرا رقيقا يعجب به الناس فيحفظونه ويرددونه ، لا لأنهم صدقوا بشارا في شكواه ، فهو أكذب من ادعى العشق ، ولكن للروح الحضرية التي أشرنا إليها ، والتي يحسن توشية شعره بها فيجعله خفيفا على الأذن سهلا إلى مسار بها ، آخذا في يسر طريقه إلى الخاطر والوجدان فيقول في «عبدة» :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي ولكنْ لَمْ أَنَمْ ... ونَفَى عَنِّي الكرى طَيْفٌ أَلَمّ
وإذا قلتُ لها جُودِي لنا ... خَرَجَتْ بالصَّمْتِ عَنْ لاَ وَنَعَمْ
نَفْسِي يا « عَبْدَ » عَنِّي واعْلَمِي ... أَنَّنِي يا « عَبْدَ » مِنْ لحْم ودَمْ
إنَّ فِي بُرْدَيَّ جِسْماً نَاحِلاً ... لو تَوَكَّأْتِ عليهِ لانْهَدَمْ
خَتَمَ الحُبُّ لها في عُنُقِي ... مَوْضِعَ الخاتَمِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَمْ(*)

إن أبا عمرو بن العلاء يفضل بشاراً على جميع الشعراء لتجديده وإبداعه في هذه الأبيات [1] ، وكان أبو عمرو من أكثر الناس حماسا لبشار ، غير أن الأبيات نفسها تستحق أن يعجب المرء بها وإن كانوا لا بد سخروا من بشار فقد كان ضخم الجسم صاحب جثة هرقلية مخيفة لا يستطيع الحب —

(*) كان أهل الذمة يختمون على أعناقهم حتى يعرفوا وينالوا حماية الدولة لهم ، وليعرف أيضا من دفع الجزية ومن لم يدفع بعد ، وكانوا يفضلون بقاء هذه الأختام في أعناقهم .

(١) الأغاني ٣/١٥٠ .

إن وجد – أن يترك بها أي أثر فضلاً عن أن يصيبها بالنحول ، هذا وفي البيت الأخير صورة فريدة وتشبيه غريب ربما لم يقله شاعر أو يلتفت إليه شاعر قبل بشار .

ليست هذه النماذج من الغزل الحضري وحدها هي التي انتزعت إعجاب الناس ببشار ولكن هناك نماذج أروع منها وأبدع ، وهي تلك التي تمثلنا ببعضها في مقام الحديث عن عقدة العمى عند الشاعر ، فجعل الأذن والسمع مسربا لنقل فتنة الحسان إلى فؤاده ، وطريقا تسلكه إيقاعات الحب إلى قلبه .

ومجمل القول في غزل بشار أنه يتأرجح بين المحافظة وبين الانطلاق ، وبين الإباحية وبين اصطناع العذرية ، وبين البداوة وبين الحضرية ، وبين الحسن إلى درجة الابداع وبين القبح إلى درجة الإسفاف ، وإن ديوانه محشوّ بعدد وافر من قصائد الغزل التي لا طعم لها ولا روح فيها ولا ذوق يشجع على قراءاتها ، ولكن ذكاء بشار جعله في بعض الأوقات ينظم على نسق يجمع بين رقة البداوة وطراوة الحضارة ، ثم اعتمد النهج الأخير مذهبا وسبيلا ، فتلقفه الناس ، وحجب الحَسَنُ القبيح ، وتغلب البديع على القديم ، فتأثر الناس جميعا به وفي مقدمتهم كبار النقاد الأقدمين الذين تفرد كل منهم بمجموعة من العبارات في تمجيد بشار والإشادة بشعره ، فجعلوه على رأس جميع المحدثين .

ونحن لا ننكر على بشار إبداعه في المعاني ولا نحجب ابتداعه في الصنعة من الإكثار من فنون البديع مثل فعل ابن هرمة،ولكنه كان أكثر حظا من ناحية الدراسة وأوفر نصيبا من حيث التمجيد من غيره من معاصريه الذين رصّوا معه لبنات التجديد في المعاني والموضوعات ، ورصفوا معه طريق الانتقال المتدرج المستأني – وليس السريع الفجائي الطفري كما يذهب بعض الدارسين – فكان حصاد اجتهاد بشار وصحبه من أمثال ابن هرمة وآدم بن عبد العزيز والحسين بن مطير والعبلي، الذخيرة الفنية التي منها أخذ من جاء بعدهم من الشعراء العباسيين

وانطلقوا إلى غاياتهم البعيدة .

على أنه إذا كان العبلي وآدم بن عبد العزيز والحسين بن مطير وابراهيم بن هرمة وبشار — وهم رءوس التحول في شعر المخضرمين — يمثلون معا الجسر المتين الذي عبر عليه الشعر متطورا إلى العصر العباسي ، فإن آخر مرحلة في هذا الجسر التليد تتمثل في كل من ابن هرمة وبشار على حد سواء .

مراجع البحث

- الأدب في موكب الحضارة الاسلامية
  للدكتور مصطفى الشكعه،
  ط الأنجلو القاهرة
- الأعلام
  لخير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة
- الأغاني
  لأبي الفرج الأصفهاني ، ط دار الكتب المصرية
- أمالي المرتضى « غرر الفرائد ودرر القلائد »
  الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي
  ط دار إحياء الكتب العربية القاهرة
- البيان والتبيين
  لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،
  ط لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة
- البيزرة
  لأبي عبد الله الحسن بن الحسين ،
  ط القاهرة

• اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري
للدكتور محمد مصطفى هدارة ،
ط دار المعارف ــ القاهرة

• تاريخ آداب اللغة العربية
لجرجي زيدان ، مراجعة الدكتور شوقي ضيف ،
ط دار الهلال ، القاهرة

• تاريخ الأدب العربي
لكارل بروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ،
ط دار المعارف ، القاهرة

• تاريخ بغداد
للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ،
دار الكتاب العربي ، بيروت

• تاريخ الشعر السياسي إل منتصف القرن الثاني
للأستاذ أحمد الشايب ،
ط النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٦

• تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري .
للدكتور نجيب محمد البهبيتي
ط ثالثة الخانجي ، القاهرة

• تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق
لداوود الأنطاكي
ط القاهرة ١٢٩١ هـ

• حديث الأربعاء
للدكتور طه حسين ،
ط دار المعارف ، القاهرة

• حماسة أبي تمام
شرح أحمد بن علي المرزوقي المتوفي ٤٢١ هـ
ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة

• حماسة البحتري
رواية ابن أبي خالد الأحول ،
تحقيق الأب لويس شيخو ، بيروت

• خزانة الأدب وغاية الأرب
لتقي الدين أبي بكر علي بن حجة الحموي ،
ط القاهرة ١٢٩١ هـ

• خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب
لعبد القادر بن عمر البغدادي المتوفي ١٠٩٣ هـ
تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة

• ديوان بشار بن برد
تقديم محمد الطاهر بن عاشور ،
ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٠ م

• زهر الآداب وثمر الألباب
لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
ط دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٣ م

• الشعر والشعراء
لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
تحقيق محمود محمد شاكر ، ط دار المعارف القاهرة

• طبقات الشعراء
لعبد الله بن المعتز ،
ط دار المعارف القاهرة

* طبقات الشعراء
لمحمد بن سلام الجمحي ،
تقديم عبد الحميد فايد ، بيروت

* العقد الفريد
لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥ م

* الفن ومذاهبه في الشعر العربي
للدكتور شوقي ضيف ،
دار المعارف ، طبعة رابعة

* قصة الأدب في العالم
للدكتور أحمد أمين والدكتور زكي نجيب محمود
ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

* الكامل
لمحمد بن يزيد المبرد ،
بشرح المرصفي

* معاهد التنصيص على شواهد التلخيص
لعبد الرحيم العباسي ،
القاهرة ١٩٤٧ م

* معجم الأدباء
لياقوت الحموي .
ط دار المأمون ، القاهرة

• معجم البلدان
لياقوت الحموي ،
ط أوربا

• معجم الشعراء
للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران ،
ط دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٦١

• من حديث الشعر والنثر
للدكتور طه حسين ،
ط دار المعارف ١٩٦١ القاهرة

• الموازنة بين أبي تمام والبحتري
لأبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي المتوفى ٣٧٠ هـ
ط القاهرة ، ١٩٥٤

• المؤتلف والمختلف
للآمدي ، أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى المتوفى ٣٧٠ هـ
ط دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٦١

• الموشح
للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران ،
ط القاهرة ١٩٦٥

• نكت الهميان في نكت العميان
لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ،
ط القاهرة ١٩١١ م

* نور القبس المختصر من المقتبس
للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران ؛
اختصار يوسف اليغموري
ط فرانكفورت

* الوساطة بين المتنبي وخصومه
لعلي بن عبد العزيز الجرجاني ،
تحقيق أحمد الزين ، ط القاهرة

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان
تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة

المحتويات

المحتويات

القسم الثاني

المخضرمون من شعراء الدولتين ومراحل فنونهم

الفصل الأول : المراحل الزمنية وفنية التحول	١١	٢٤
تدرج التحول الفني	١١	
مرحلة المحافظة عند شعراء الدولتين	١٥	
مرحلة التوسط	١٧	
مرحلة التطور والخلق والإبداع	٢٠	
الفصل الثاني : المرحلة الأولى (المحافظة)	٢٥	٦٣
الأحيمر السعدي	٢٥	
أبو العباس الأعمى	٣٢	
هجاؤه	٣٣	
مدائحه	٣٦	
ابن ميادة	٣٩	
هل كان شعوبيا	٣٩	
رقة غزله وطهارته	٤٣	
مدائحه	٤٩	
هجاؤه ونقائضه	٥٤	
الفصل الثالث : المرحلة الثانية (الإطلالة على العباسية)	٦٥	١٥٢
سديف	٦٧	
تلوثه بدماء بني أميه	٦٧	
مع الحسنية	٧١	
غزله	٧٣	
أبو عديّ العبلي	٧٧	
أمير أموي متشيع	٧٧	
مصانعته العباسيين	٧٩	
أصالة مديحه	٨٢	

تحذير العشيرة ٨٤
أول شعر في رثاء دولة سقطت ٨٦
أبو نخيلة الراجز ٩١
مداح هجاء ٩١
يمدح الأمويين ٩٤
في خضم السياسة العباسية ٩٥
في الطرديات ٩٧
يشفع للفرزدق فيرفض الفرزدق شفاعته ٩٩
أبو حية النميري ١٠١
أخباره وطرائفه ١٠١
غنائيته ووصفه الحديث ١٠٥
تجسيم الصورة الغزلية الرفيعة ١١٢
بكاء الصبا والشباب ١١٦
أبو حية يبكي زوجته ١١٨
أبو حية والصحراء ١٢٠
مروان بن أبي حفصة ١٢٧
حبه للمال وبخله الشديد ١٢٧
مطلق المديح ١٣٢
مروان يمدح معن بن زائدة ١٣٧
مروان يرثي معن بن زائدة ١٤١
مروان يمدح المهدي من الجانب السياسي ١٤٥
تعثر مروان إذا خرج عن المديح والرثاء ١٤٧
الفصل الرابع : المرحلة الثالثة « المناصفة فنيا بين المحافظة الأموية والانطلاقة العباسية » ١٥٣—٣٣٢
آدم بن عبد العزيز ١٥٥
الفكاهة في شعره ١٥٧
آدم يقف على إيوان كسرى ويرثي ملكه ١٥٨
آدم رائد الشعر الصوفي ١٦١
الحسين بن مطير ١٦٣
أبياته الفريدة في رثاء معن بن زائدة ١٦٧

ابتداء صلته بمعن ومدحه إياه ١٦٨
روائعه في مدح المهدي ١٧٠
رقته غزله وعفته ١٧٢
صناعته الشعرية ١٧٩
الحسين وشعر الحكمة الذي أبكى الخليفة ١٨٠
قصيدته في المطر وما فيها من صنعة رائدة ١٨٣
ابن هرمة ١٨٥
ارتباطه فنيا بالدولتين ١٨٥
غرامه بالهجاء وتفننه فيه ١٨٧
ابن هرمة السكير ١٩١
احترامه آل بيت الرسول ١٩٣
من روائع مدائحه وصنعته ١٩٦
صوره الفنية وتشبيهاته ٢٠٢
بشار بن برد ٢٠٩
حملة من المبالغة والتهويل ٢٠٩
نشأة بشار ٢١٤
عقدة العمى وانطلاقة الشعر ٢١٧
ملامح بارزة في حياة بشار وسلوكه ٢٤٢
بين الشعوبية والولاء للعرب ٢٤٧
يهجو الأعراب ٢٤٩
فخره بقيس في قصيدتيه الرائية والبائية ٢٥٣
بشار بين فسق القول واصطناع الحكمة ٢٥٨
بشار بين الزندقة والإيمان ٢٦٨
موضوعات شعر بشار ٢٧٥
مدائح بشار ٢٧٦
مذهب بشار في المديح ٢٧٨
رجز بشار ٢٨٨
الهجاء عند بشار ٣٠٤
غزل بشار ٣١٥
بشار وابن هرمة يمثلان الجسر إلى العباسية ٣٣٢